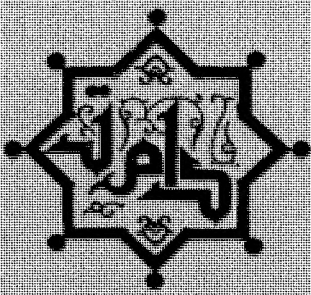


الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

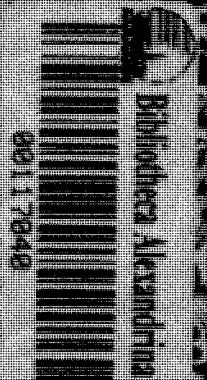


كتاأرة المعمارف التونسية

الكراس 4 / 1994



بيت الحكمة - قرطاج





كثرة المعارف التونسية

عدد خاص

في تاريخ إفريقية
أ. د. محمد الطيب البي

_____ دار المعارف نسبية _____

أ. د. محمد الطيب

في تاريخ إفريقيا

أعلام - مواقع - قضايا

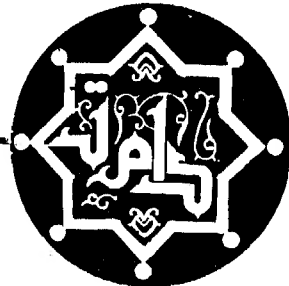
مجموعة من مقالات صدرت في « دائرة المعارف الإسلامية »

ترجمة

الاستاذ محمد العربي عبدالرزاق (و) الاستاذ رياض المرزوقي

تحظى « دائرة المعارف التونسية »
بتوصية بالنشر من وزارة الثقافة

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة » - قرطاج - تونس



الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة »

أمانة التحرير

* الأستاذ عبد الوهاب الدخلي

التصميم والإشراف الفني

* فتحي اللواتي

التوثيق الفوتوغرافي الفني

* رضا الزيلي

- تصدر «دائرة المعارف» تباعا في كراسات مرتبة موادها ترتيبا أبجديا ومفصلة محتوياتها ضمن أقسام ثلاثة : أعلام ومواقع وقضايا.
- لا يتحمل المجمع «بيت الحكمة» أية مسؤولية مادية أو أدبية إذا وقع اعترا على النص.

المدير المسؤول
رئيس المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة »



دائرة المعارف التونسية

الكراس 1994/4

- * سحب من هذا الكراس في طبعته الاولى : 5000 نسخة
- * جميع الحقوق محفوظة للمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون /
- «بيت الحكمة» - قرطاج - تونس

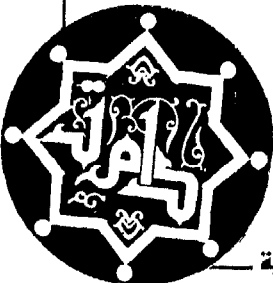
صورة الغلاف

* لوحة فنية تشكيلية من معرض «المفردة التشكيلية»

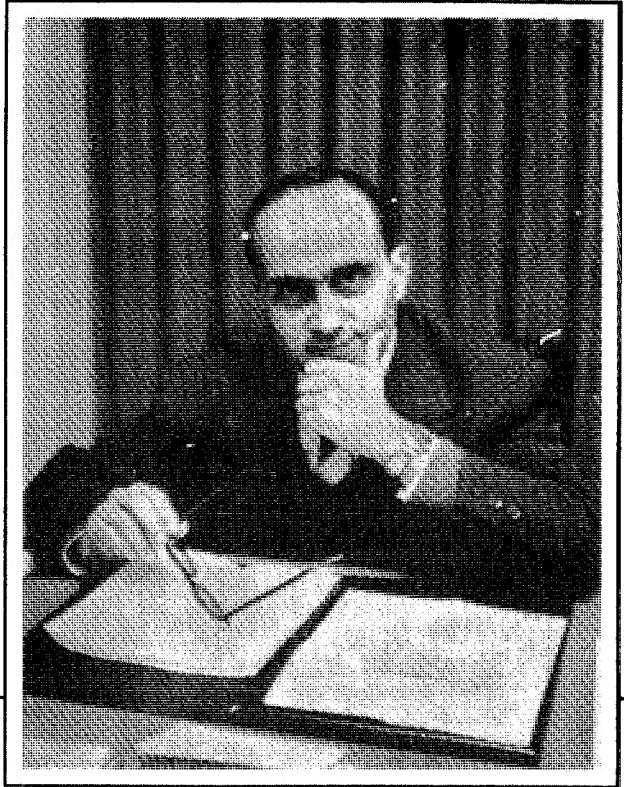
مركز الفن الحي لمدينة تونس - 1988.

التركيب الفني المطبعي : محمد المهدي

المطبعة : شركة فنون الرسم والنشر والصحافة - القصبة - تونس



تكریم



أ. د. محمد الطالبي

تمهيد

من البديهي اليوم التأكيد على أهمية دوائر المعارف في حوصلة المعرفة البشرية التي تزداد تشعباً يوماً فيوماً.

لذا رأينا بعض الدول وبعض المؤسسات تعتني بإصدار دوائر معارف عامة أو مختصة تسمح بعض الميادين أو ما يهم بعض الثقافات أو بعض الجهات.

ويتنزل مشروع «دائرة المعارف التونسية» الذي صدر منه حتى الآن ثلاث كراسات ⁽¹⁾ ضمن المشاغل الرئيسية للمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون. وقد حظي باهتمام القراء، بجميع فئاتهم فخصّصت له المقالات النقدية المطوّلة في كثير من الأحيان ⁽²⁾، وبقطع النظر عن قيمة الأحكام والآراء الواردة في هذه المقالات، فإنّها أثبتت أنّ هذا المشروع أساسي بالنسبة إلى الثقافة التونسية «إذ لا يوجد شعب يعتزّ بهويّته وثقافته وتراثه الإنسانيّ إلّا ولديه دائرة معارف بلغته تعكس رؤيته للماضي والمستقبل وتقدّم كل المعارف الإنسانية وتحافظ على تراثه الفكري» ⁽³⁾.

ومن أهمّ ما نشر وله صلة متينة بالثقافة العربية «دائرة المعارف الإسلامية» التي أشرف على إصدارها والتحرير فيها جمع من المستشرقين الكبار منذ سنة 1913 عندما بدأت الطبعة الأولى في الصدور وانتهت سنة 1934.

ووعياً بقيمة المشروع رأى بعض العلماء العرب والمسلمين منذ البداية أهميّة ترجمة هذه الدائرة إلّا أنّ هذه الترجمة لم يصدر منها إلا ستة عشر جزءاً وانقطعت لأسباب مختلفة، وكان من جملة الأسباب التي زهدت في الترجمة أن طبعة ثانية مزيّدة ومنقّحة من هذه الدائرة قد بدأت في الظهور منذ سنة 1954 ووجب الاتجاه إلى ترجمتها إن كان لا بد من ترجمة.

ولم يجد المشروع مؤسسة تقوى عليه لأنه يتطلب عملاً طويلاً النفس
واتجهت الكثير من البلاد العربية والإسلامية ومؤسساتها إلى مشاريع
مختلفة تمتّ بصلة متينة أو بعيدة إلى دوائر المعارف.

وراودت فكرة ترجمة «دائرة المعارف الإسلامية» المسؤولين عن «بيت
الحكمة» ومجلسها العلمي ومجلس إدارتها منذ سنة 1985. وللتاريخ
يجب أن نذكر أن الأستاذ محمد الطالبي كان من المتحمسين للفكرة
وراسل في ذلك رئيس «بيت الحكمة» الأسبق الأستاذ أحمد عبد السلام.

ولئن لم تتوفر إلى الآن أسباب تجسيم الموضوع برمّنه فإننا رأينا في
نطاق التهيئة لمادة «دائرة المعارف التونسية» التي نسعى إلى بلورة
معالمها أن نبدأ بترجمة المقالات المتعلقة بالبلاد التونسية من «دائرة
المعارف الإسلامية»، بل ورأينا في بداية هذه المرحلة أن نبدأ بما كتبه
أستاذ من أستاذتنا الأجلّاء الذين لهم فضل السبق والريادة في التأليف
الموسوعي هو الدكتور محمد الطالبي ⁽⁴⁾، وهو من أبرز العرب
المسلمين المحرّرين فيها وجل كتاباته تتعلق بالبلاد التونسية، وهو من
المتحمّسين بالكتابة في دوائر المعارف. ونرجو أن يكون أسوة حسنة
لبقية محرّري مقالات «دائرة المعارف التونسية» من حيث الضبط
والتحقيق والشمول والدقة والقيمة العلمية.

وهذا النوع من التأليف يقتضي المنهج العلمي الصارم في تناول
المسائل والقضايا والإيجاز والتركيز في عرضها، وهي مقتضيات
رستحتها الموسوعات المتنوّعة التي نشرت في شتّى أقطار العالم. وقد
رأينا ونحن مازلنا في طور الإعداد للمشروع النهائي الكبير لدائرة
المعارف التونسية «دامت» أن نجمع أربعة وعشرين نصّاً من تأليف
الأستاذ الطالبي نشر ثلاثة وعشرون منها في «دائرة المعارف
الإسلامية» (الطبعة الجديدة) أمّا مقال «القديس لويس في تونس»
فقد صدر ضمن تأليف جماعي في تاريخ الحروب الصليبيّة ⁽⁵⁾.

وأملنا أن يجد الباحثون التونسيون وخاصة منهم أصحاب الاختصاص
في المسائل التي تتناولها هذه المقالات (أعلام - مواقع - قضايا)

المادة العلمية النافعة، وأن يكون هذا الجزء مرحلة من مراحل تهيئة الإنجاز الكبير الذي نرومه وهو «دائرة معارف تونسية» شاملة تهتم بأبرز الأعلام والمواقع والقضايا محررة من قبل علماء تونسيين أو غير تونسيين مشهود لهم بالتضلع في المادة التي يكتبون فيها حتى تكون مادة هذه الدائرة غذاء علميا نافعا لكل المهتمين بالثقافة التونسية.

ولا يفوتنا أن نشكر كافة الذين ساعدونا على إنجاز هذا الكراس:

. الفقيه كلود كاهين (بصفته مؤلفا مشاركا لمقال «الحسبة»)

. المترجمان الأستاذان محمد العربي عبد الرزاق ورياض المرزوقي

. المستشار في ميدان الخرائط المثبتة في قسم المواقع: الأستاذ عبد المجيد الذويب، المتفقد العام للتعليم الثانوي بالجمهورية التونسية (سابقا).

(1) «عن بيت الحكمة»: الكراس 1/141، 1990 ص+ الكراس 2/150، 1991 + الكراس 3/164، 1992 ص.

(2) يراجع بصفة خاصة : مقال الأستاذ جمعة شيخة : «دائرة المعارف التونسية» مالها وما عليها، من أجل دائرة معارف متميزة شكلا ومحتوى، الصباح 7 ماي 1991: ومقال الأستاذ الحبيب عباس: المنهجية العلمية في الكراس الثاني لدائرة المعارف التونسية، الهداية س 17 ع 3، ص ص 78 - 87.

(3) مصطفى نبيل: نحو موسوعة عربية شاملة «الهلal» - يناير 1989، ص 19.

(4) راجع خاصة «إلى الأستاذ محمد الطالبي في عيد ميلاده السبعين» منشورات كلية الآداب 1993.

(5) صدر عن دار لوسوي باريس - 1988 - ص ص 72 - 79.

وردت في مقالات «دائرة المعارف الإسلامية» المترجمة المنشورة في هذا الكراس الخاّص مجموعة من عناوين النّشريات والمجلّات مختصرة رأينا خدمة للقارئ، غير المتخصّص إيرادها مرتّبة ترتيباً أبجدياً وأثبتنا أمامها العناوين الكاملة مع ترجمتها العربية:

- | | |
|---|--|
| — Annales E.S.C. (=Annales, Economie, Société, Civilisation). | - حوليات الاقتصاد والاجتماع والحضارة. |
| — Bull. Arch. : (= Bulletin Archéologique). | - نشرة الآثار. |
| — B.E.O. (= Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas). | - نشرة الدراسات الشرقية الصادرة عن المعهد الفرنسي بدمشق. |
| — B.S.O.A.S. (= Bulletin of the School of Oriental and African Studies). | - نشرة معهد الدراسات الشرقية والإفريقية. |
| — C.T. (= Cahiers de Tunisie). | - كراسات تونسية. |
| — I.A. (= Index Arabicus). | - الفهرس العربي. |
| — I.C. (= Islamic Culture). | - الثقافة الإسلامية. |
| — I.Q. (= The Islamic Quarterly). | - الفصلية الإسلامية. |
| — J.A. (= Journal Asiatique). | - المجلة الآسيوية. |
| — J.E.S.H.O. (= Journal of the Economic and Social History of the Orient). | - المجلة الشرقية للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي. |
| — J.Sem.St. (= Journal of Semetic Studies). | - مجلة الدراسات السامية. |
| — M.M.I.A. (= Mağallat al-Mağma al-Ilmi al Arabi). | - مجلة المجمع العلمي العربي. |
| — R.G.A. (= Revue de Géographie des Alpes). | - مجلة جغرافية منطقة الالب. |
| — R.I.E.E.I. (= Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos en Madrid). | - مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرد. |
| — R.S.O. (= Rivista degli Studi Orientali). | - مجلة الدراسات الشرقية. |
| — R.T. (= Revue Tunisienne). | - المجلة التونسية. |
| — S.I. (= Studia Islamica). | - دراسات إسلامية. |

أعلام

النص	ترجمة	الصفحة
(أ) إبراهيم الأوّل	رياض المرزوقي	14
(أ) إبراهيم الثاني	رياض المرزوقي	21
(أ) ابن خلدون	رياض المرزوقي	24
(أ) ابن الرقيق	رياض المرزوقي	44
(أ) ابن شدّاد	رياض المرزوقي	46
(أ) ابن عاشور (آل .)	رياض المرزوقي	48
(ح) حسّان بن النعمان الغسّاني	رياض المرزوقي	51
(د) الدبّاغ	العربي عبد الرزاق	54
(ك) الكاهنة	رياض المرزوقي	56
(ك) كسيلة	رياض المرزوقي	62
(م) المعزّ بن باديس	العربي عبد الرزاق	66

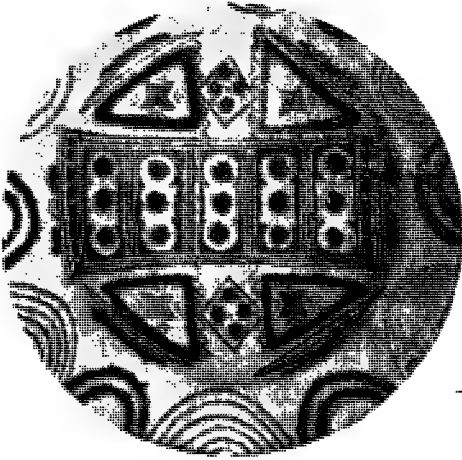
مواقع

(إ) إفريقية	العربي عبد الرزاق	80
(خ) خير	العربي عبد الرزاق	90
(ق) قابس	العربي عبد الرزاق	98
(ق) قسطلية	العربي عبد الرزاق	116
(ق) قفصة	العربي عبد الرزاق	122
(ق) قوصرة	رياض المرزوقي	133
(ق) القيروان	العربي عبد الرزاق	137
(ك) الكاف	العربي عبد الرزاق	163
(م) المهديّة	العربي عبد الرزاق	171

قضايا

(ح) الحسبة	العربي عبد الرزاق	180
(ل) القديس لويس في تونس	العربي عبد الرزاق	192
(م) مشاركة	العربي عبد الرزاق	200
(م) مغاربة	رياض المرزوقي	205

اعلام



إبراهيم الأول

[184 196 هـ / 800 - 812 م]

إبراهيم الأول بن الأغلب بن سليم بن عقال، مؤسس دولة الأغالبة الإفريقية، كان تميميا من عشيرة بني سعد بن زيد مناة. وقد استقر هؤلاء، بفضل الفتوحات الإسلامية، بصفة مبكرة جدا في خراسان، حيث واجهوا خاصة المهلبين الذين سيقاهم إبراهيم فيما بعد في مصر ثم في إفريقية. هكذا ولد الأغلب، جد الأغالبة ومانح اسمه لهم، بمرور الوقت. وقد اعتنق دعوة العباسيين، وكان من أكثر أبطالهم حماسة إلى جانب أبي مسلم الخراساني. واتصل لأول مرة بالمغرب في خدمة العباسيين، ضمن جيش ابن الأشعث. وقد عينه ابن الأشعث حاكما على الزاب (144هـ / 761 م)، أي منطقة الأوراس جنوب جهة قسنطينة الحالية. وفي سنة 148 هـ / 765 م، أطرد جيوش ابن الأشعث قائدهم، وعوضه الأغلب بالقيروان وتحت أسوارها لقي حتفه خلال إحدى حركات التمرد العديدة التي لم تكف عن إغراق البلاد بالدم.

وانسحبت أسرته إلى مصر. وكان عمر إبراهيم آنذاك عشر سنين. فبدأ بتلقي دروس متينة في الفقه، وكان من ألمع تلامذة الليث بن سعد (المتوفى 179 هـ / 795 م). ولكن كان عليه، وهو سليل أحد مشاهير قواد الجيش العباسي، أن يتبع تقاليد أسرته. فانضم إلى جند مصر، وشارك حتما في الانتفاضات التي كانت تهز البلاد. وشارك بصفة خاصة، سنة 174 هـ / 790 م، في نهب بيت المال، ليأخذ مقدار رزقه، « لم يزد على ذلك شيئا » حسب تأكيد البلاذري. وتسبب هذا التصرف في طرد الوالي المهلبي له من مصر،

وإرساله إلى الزّاب في الإقامة الجبرية، وكان يحكم الزّاب آنذاك مهلبّي آخر، أي عدو تقليدي لأسرته .

إلا أن إبراهيم، بفضل الاضطرابات التي لم تنفك تهزّ إفريقيا، دعم مركزه بالزّاب حيث مازال ذكر أبيه حيّاً. وتعلّم خاصّة كيف لا يخرج عن الشرعيّة. وعرف، وقد أنضجته التجارب، تجنّب الانتفاضات، وتوصّل، بفضل شغور الحكم بالزّاب، نتيجة لهذه الانتفاضات، إلى الاضطلاع بسلطة حقيقة فعلية. وفي سنة 179 هـ / 795 م، حوّل هرثمة الذي قدم من بغداد لإعادة النظام والشرعيّة في البلاد، هذه السلطة الفعلية إلى تنصيب قانوني. ومن المرجح أن إبراهيم، بعد سنتين، رقّاه الرّشيد، وقد رضي فيما يبدو عن خدماته، من خطة مساعد الوالي إلى والي الزّاب العائد إليه مباشرة بالنظر.

وسرعان ما وضعت انتفاضة جديدة مفاتيح القيروان بين يديه. وفي رمضان 183 هـ / أكتوبر 799 م، أطرد تّمّام، والي تونس التميمي - وهو من عشيرة بني مالك بن زيد مناة، المعادية لبني سعد بن زيد مناة- ابن العكّي من القيروان. فسارع إبراهيم، من الزّاب، بإنجاد الشرعيّة، وأعاد للوالي الشرعيّ حقوقه. وفي الواقع، لم يلق هذا الرجوع الى الوضع الثابت < statu quo ante > موافقة الخلافة ولا موافقة الأفارقة. فدعي إبراهيم إذن، لأسباب مختلفة من السياسة البغدادية والإفريقية، إلى تعويض ابن العكّي، وبواسطة اتفاق مالي ملائم، حمل الرّشيد على منحه رتبة الإمارة الوراثية. وهكذا، ارتقت إفريقية، دون صدمة، إلى وضع إمارة مستقلة .

إلا أن هذه الولادة بغير كبير ألم لم تجنّبه الصعوبات. فقد كان على إبراهيم الأول أن يقاوم عداء أوساط الفقهاء والجند. واضطر إلى أن يتحمّل إهانات كثيرة وأن يبذل كنوزاً من الاعتدال، والحيلة والنشاط لتدعيم نظامه. وبمجرد تولّيه الحكم، أسس، على ميلين جنوبي القيروان، قصرًا محصّنًا، العباسية [انظر الفصل المخصص لها في « دامت »]، وسينقذ هذا القصر المزوّد بفرقة حراسة عتيدة زنجيّة، أكثر من مرة الدولة. وقد اندلع التمرد الأول بتونس (186 هـ / 802 م)، ثم كان دور طرابلس في التحرك (189 هـ / 805 م). لكن أخطر انشقاق كان انشقاق الجند الذي لم يهزم إلا بفضل المعونة المرسلة من الخليفة في الوقت المناسب. ولما توفي إبراهيم الأوّل (21 شوال 196 هـ / 5 جويلية 812 م)،

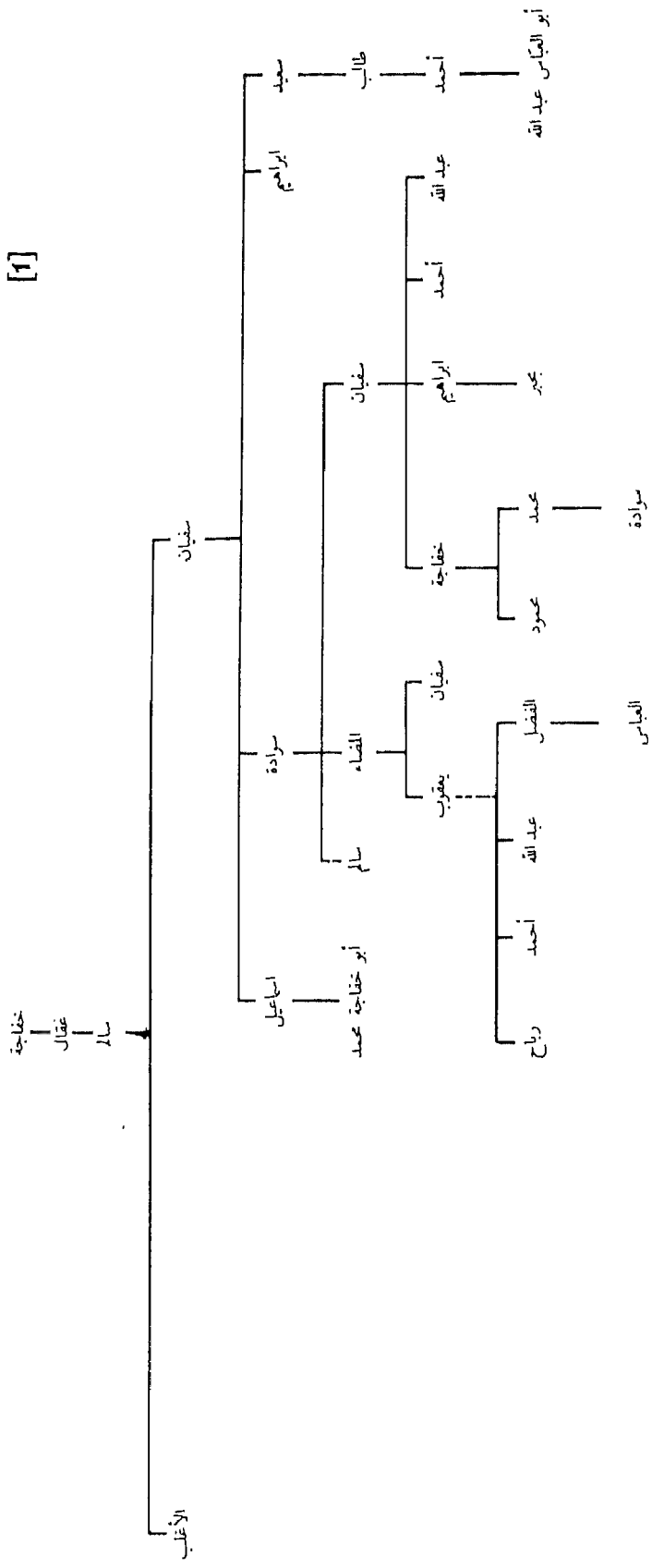
كان ابنه وخلفه عبد الله محاصرا في طرابلس .

وخلف إبراهيم الأول ذكرى أمير مثقف، حازم، عادل. ويذكر النويري أنه « كان فقيها، عالما، خطيبا، شاعرا. وكان أيضا رجل رأي وحزم ... لم يحكم إفريقية قبله أمير أعدل في سيرته، وأمثل في سياسته، وأرفق بالرعية، وأحزم في تصريف الأمور » .

البيبليوغرافيا: البلاذري، فتوح، ط. بيروت، 1958، 326 — 328 ابن الأثير، الحلة، تح. ح. مؤنس، القاهرة، 1963، 93 — 101 ابن الأثير، الكامل، ط. القاهرة — 1938 — 1939 V، 96، 104، 121، 141، 156، VI، 63؛ ابن عذاري، البيان، تح. ج. س. كولان-G. S. Colin، ليفي بروفنسال E. Lévi Provençal. ليدن 1948، I، 90-95؛ ابن خلدون، العبر، ط. بيروت، 1958، IV، 417-421؛ ابن الخطيب، أعمال، في مائوية آماري II Centenario Amari، 434-436؛ النويري، نهاية، تح. وترجمة إلى الإسبانية ج. ريميرو-G. Remiro، غرناطة، 1917-1919، II، 60-65؛ م. فونديرهيدن M. Vonderheyden، بلاد البربر الشرقية تحت حكم دولة بني الأغلب La Berbérie Orientale sous la dynastie des Benoûl-Arlab، باريس، 1927؛ م. الطالبي، الإمارة الأغلبية L'Emirat aghlabide، باريس، 1966.

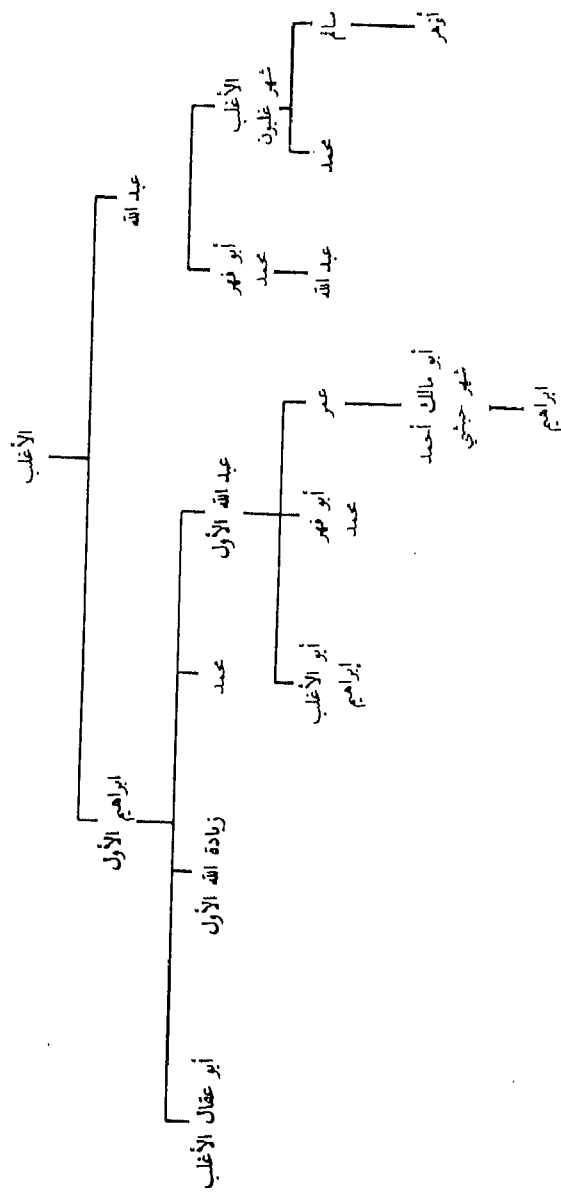
شجرة انساب الدولة الاغلبية

[1]



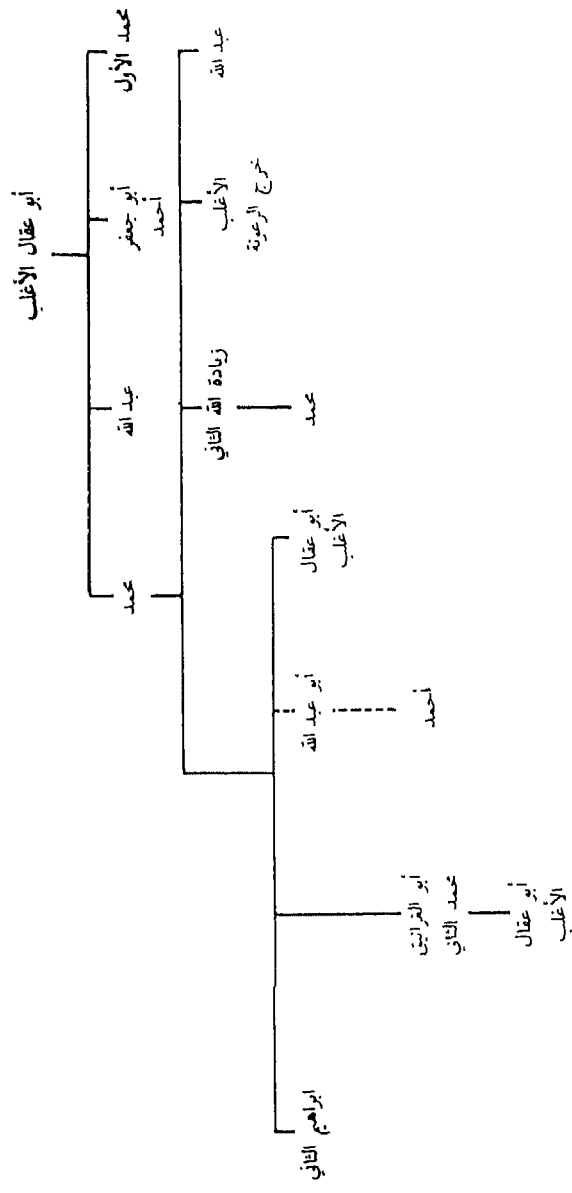
شجرة انساب الدولة الاغلبية

[2]



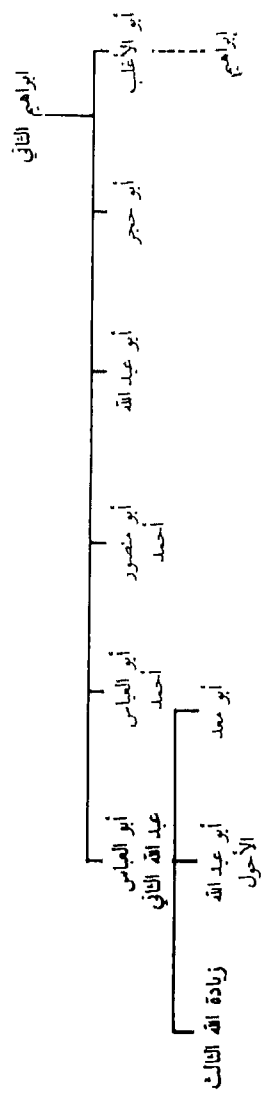
شجرة انساب الدولة الاغلبية

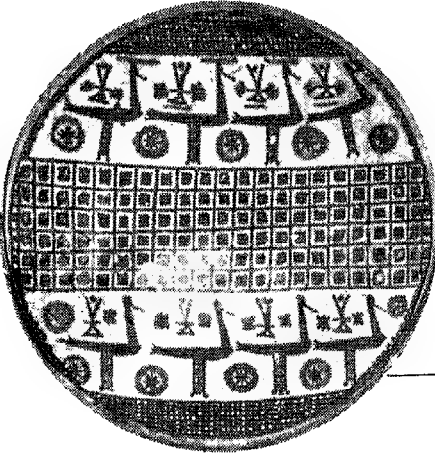
[3]



شجرة انساب الدولة الاغلبية

[4]





ابراهيم الثاني

[235 - 289 هـ / 850 - 902 م]

إبراهيم الثاني بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب، ولد في 10 ذي الحجة 235 هـ / 27 جوان 850 م، وكان، بعد إبراهيم الأول، أبعد الشخصيات أثرا في البيت الأغلبي، وقد تميّز على حدّ السواء بخصاله الاستثنائية، وجرائمه التي لا تصدق ببسر. فلما رفعه الحماس الشعبي إلى الحكم، على حساب الوريث الشرعي الذي مازال آنذاك طفلا، وكان هو الوصي عليه، افتتح عهده (261 هـ / 875 م.) بقرارات عادلة، وإدارية حكيمة. ولتحقيق هذه الغاية، لم يتأخّر أمام اجراءات غير شعبية ولكنها منقذة، مثل سحب القطع النقدية التي لا قيمة لها، والتي طغت على المعاملات، من التداول، ممّا كاد يحدث انتفاضة خطيرة بالقيروان (ثورة الدراهم). وعرف، في هذه المناسبة، كيف يبرهن على تحكّمه في نفسه، وكيف يتجنّب، مع المحافظة على قراره، إسالة الدماء .

لكنّه لم يعتم، تحت تأثير الاضطرابات العقلية التي اشتدت عليه شيئا فشيئا، أن نصب، بكامل الوعي، الاستبداد المطلق للأمر دستورا للحكم، وبالإفراط في استخدام هذا الحق، أن يسفك الدّم بصفة واسعة. وارتكب، بالتأكيد، تلبية لحاجات سياسته، وكذلك بصفة مجانية، جرائم كثيرة، ونسب إليه عدد أكبر منها. وهكذا اتخذ في عين الأجيال اللأحقة شكل وحش، وبقيت منه خاصة ذكرى بطل شرير لسلسلة من الحكايات السوداء ، الضحايا فيها هي بناته، وابناؤه ، وخدمه، وغلماؤه، وجواريه، وغير هؤلاء كثير. وللدعاية الإسماعيلية، في هذا الرسم المرعب الذي صوّره

له أغلب الإخباريين ، دور كبير دون شك، وقد كانت نشطة بصفة خاصة في آخر ملكه.

ولم يخل استبداد إبراهيم الثاني من إثارة ردود فعل عنيفة. فانتفض البربر في البداية (268 - 269 هـ / 881 - 883 م.)، وهم أكثر تعرّضا من غيرهم، من شمال المملكة إلى جنوبها، وعوقبوا بقسوة. فحملت أجساد الضحايا ملء عربات كاملة، وقذف بها في قبور مشتركة. وبعد اثني عشر عاما (280 هـ / 893 م)، حان دور كبار « الاقطاعيين » لدخول الحلبة. وكانت علّة هذه الانتفاضة سياسة استعباد كبار القوم التي يمارسها الأمير، وأشهر ضحاياها مقاتلو قلعة بلزمة الفخورون، وهي قفل جبل كتامة، ومنه انطلقت الحركة التي ستطيح بالأسرة الأغلبية. وقد تملك إبراهيم الثاني الخوف، فقد ظنّ فـي البداية أن تمرّد الجند الكبير الذي كاد يذهب بعرش زيادة الله الأول، تكرر. وانتصر، في الواقع، ببسر على أعدائه الذين لم يحاولوا حتى توحيد قواهم. ثم دخل في خلاف مع بربر نفوسة (283 - 284 هـ / 896 - 897 م)، وأباد صفوفهم تماما. وإثر ذلك، تظاهر بغزو مصر، بعد أن أمر بقتل ابن عمه حاكم طرابلس، بقسوة كبيرة - ومصر انطلقت منها حملة أبي العباس بن طولون المجهضة على إفريقية - وذلك قبل أن يسلك من جديد طريق تونس .

وبعد بضع سنوات (289 هـ / 902 م.)، تخلّى عن الحكم لابنه عبد الله الثاني الذي وقعت دعوته من صقلية، وسار، يحيط به أهل البصائر، وهو يلبس مرقعة الزهاد التائبين، يبحث عن الشهادة ويلقّاها تحت أسوار كنسته Cosenza (17 ذو القعدة 289 هـ / 23 أكتوبر 902 م). وقيل إن الأمير الذي نشر وصوله الرعب في كامل إيطاليا الجنوبية، كان يعتزم لا أقل من السير لامتلاك بيزنطة عبر رومة. لقد كان ملكه ملك القوة والجنون. وتبعاً لتفاقم الداء الذي كان يدمره، تراجع من الأفضل إلى الأسوء، وبأخطائه أعدّ انتصار الفاطميين .

الببليوغرافيا : ابن الأبار، الحلة، تح. ح . مؤنس،

القاهرة 1964، 171، 165، 164، 174، 179، 181، 185، 187، 266 : ابن

الاثير، الكامل، ط . القاهرة، 1938-1939، V، 5، 7، 36، 39، 67، 82، 91

١٥٣ ابن عذاري، البيان، تح. ج. س. كولان G. S. Colin وأ. ليفي بروفنسال E. Lévi - Provençal، Leyde، ١٩٤٨، I، ١١٥-١٣٤ ابن خلدون، العبر، ط. - بيروت، ١٩٥٨، IV، ٤٣٤-٦٤٣ ابن الخطيب، أعمال، في ماثوية أماري Centenario Amari، II، ٤٣٩-٤٤٣؛ النويري، نهاية، تحقيق وترجمة إسبانية ج. رميرو G. Remiro، غرناطة، ١٩١٧-١٩١٩، II، ٨٢-٩٢؛ الشماخي، سير، ط. القاهرة، ١٨٨٣-١٨٨٤، ٢١٥، ٢٢٩، ٢٣٧، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٥ ٣٢٠ القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، نشرة بصدد الإعداد ف. الدشراوي، تونس* م. فونديرهيدن M. Vonderheyden، بلاد البربر الشرقية تحت حكم دولة بني الأغلب La Berbérie Orientale sous la dynastie des Benou'l- Arlab، باريس، ١٩٢٧؛ م. الطالب، الإمارة الأغلبية L'Emirat aghlabide، باريس، ١٩٦٦.

* صدر سنة ١٩٧٥ (المترجم).



ابن خلدون

[732 - 808 هـ / 1332 - 1406 م]

ابن خلدون، وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن أبي بكر محمد بن الحسن (732 هـ / 1332 م - 808 هـ / 1406 م)، من أقوى شخصيات الثقافة العربية الإسلامية زمن غروبها. ويعتبر عامة مؤرخا وعالم اجتماع وفيلسوبا. وبهذا العنوان، كانت حياته وآثاره موضوع دراسات لا تحصى، وتعرضت لأكثر التأويلات تنوعا، ولربما أكثرها تباينا.

I. - الرجل. إن حياة ابن خلدون ثلاثية، شغل مرحلتها الأولى (20 سنة) الطفولة والتكوّن، والثانية (23 سنة) مواصلة الدراسة والمغامرات السياسية، والثالثة (31 سنة) حياة عالم و مدرّس وقاض. وقد دارت المرحلتان الأوليان بالمغرب الإسلامي، وكانت الأخيرة بين المغرب ومصر.

في تونس - ولد ابن خلدون بتونس في غرة رمضان 732 / 27 ماي 1332 في أسرة عربية يعود أصلها إلى حضرموت، استقرّت منذ بداية الفتح الإسلامي بإشبيلية (ابن حزم، *جمهرة* نشر أ. ليفي بروفنسال E. Lévi-Provençal، 430) حيث قامت بدور سياسي هام. ثم غادرت هذه المدينة إلى سبتة، قبيل الاسترجاع المسيحي للأندلس. ومن هناك، وصلت إلى إفريقية واستقرّت بتونس في عهد السلطان الحفصي أبي زكرياء - (625-647 هـ / 1228-1249م). والجدّ ابن خلدون، أبو بكر محمد بن الحسن الذي ترك لنا رسالة في أدب الكاتب (انظر أ. ليفي بروفنسال [E. Lévi Provençal في

أرابيكا Arabica، II، (1955)، (280 - 288)، وقد تحصل على خطة المالية في عهد أبي إسحق (678 - 681 هـ / 1279 - 1283 م). ووضع المغتصب ابن أبي عمارة حداً لعمله وحياته بالأمر بخنقه بعد أن استولى على أملاكه، وعرضه للتعذيب. وشغل ابنه محمد بدوره عدة خطط ببجاية وتونس على حدّ السواء، وتوفي سنة 737 هـ / 1337 م، بعد أن تخلّى عن الحياة السياسية إثر سقوط ابن اللّحياني (711-717 هـ / 1311-1317) وبقي ابنه محمد، أي والد مؤلفنا متعلّلاً، بعيداً عن السياسة، يحيى حياة الفقيه والأديب (التعريف: 1510) وتمكّن بذلك من أن يضمن لابنه عبد الرحمن تربية فيها عناية. وتابع هذا الابن كذلك دروس أشهر الشيوخ في تونس، وقد خصّص لهم في ترجمته الدّاتية (التعريف) تحاليل مطوّلة. وتلقّى بهذه الصفة تكويناً كلاسيكياً، يعتمد أساساً على تلقي القرآن، والحديث، واللّغة العربية، والفقه. وجعلت غزوة بني مرين (748 - 750 هـ / 1347 - 1349 م) باقية كاملة من الفقهاء والأدباء تتوافد على تونس مع السلطان أبي الحسن. وقد كان ذلك انبهاراً للشّابّ ابن خلدون الذي تمكّن بهذا، وخاصة بتلمذه للأبلي، من تلقّي مبادئ الفلسفة، والقضايا الكبرى في الفكر العربي الإسلامي. إلّا أن القدر كان يهيء له أياماً قاسية، فقد انتهى الاحتلال المريني في الفوضى والدم. وممّا زاد المأساة حدّة، أن الطاعون الأسود العالمي الرهيب الذي ظهر في منتصف القرن، وانطلق من الشرق، قد كانت له فتكات سوداء في البلاد، وأودى بأبويه. وكان عمّ ابن خلدون يومئذ 17 سنة. وطيلة حياته، سيحتفظ من ذلك بذكرى قاسية تنعكس في مقاطع عدّة من التعريف والمقدمة. وقد كانت تلك أول صدمة في حياته لها تأثير لا يمحي على اللّون والتوجّه اللذين سيتصف بهما فكره فيما بعد. ومن جهة أخرى، خلف رحيل العلماء المرينيين فراغاً ثقافياً كبيراً بتونس. ويبدو أنه من ذلك الحين، لم يفكر ابن خلدون الشاب إلّا في مغادرة تونس إلى فاس النّي كانت حينذاك ألمع عواصم المغرب الإسلامي. وقد كان كما يذكر لنا (التعريف، 55) متعطّشاً إلى الدراسة، وحوله شقيقه الأكبر محمد عن مشروعه، ولكن لم يكن ذلك لمدة طويلة.

في بلاط فاس - لم يبلغ ابن خلدون بعد العشرين، عندما عهد إليه الحاجب القوي ابن تفراجين، قرب نهاية 751 هـ / 1350 م، بخطة العلامة لدى

السلطان أبي إسحق. وقبل، مع إبطان أفكار الإفلات كما يبدو (التعريف، 56). ومكّنه غزو إفريقية، على يد أمير قسنطينة، أبي يزيد (753 هـ / 1352م)، من الفرصة التي كان يحلم بها : فبفضل الهزيمة، هرب من سيّده، ولجأ لبعض الوقت الى إبّة، ثم التحق بتبسة، فقفصة، قبل أن يبلغ بسكرة حيث قضى الشتاء لدى أصدقائه بني مزني، وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حياته، وهي في الآن نفسه فترة دراسة ومغامرة، بارتداد، وسيكرر ذلك في المستقبل، ويحكم أغلب الذين انكبوا على حياته وآثاره عليه حكما قاسيا. وفي الواقع، هل علينا أن نأسف له إلى هذه الدرجة ؟ لقد كان ابن خلدون يرفض الغرق في الوحل الذي كان يترقبه في بلاد إفريقية، وكانت آنذاك في انحلال كامل، وكان بلاطها إلى ذلك بعيدا عن أن يكون مدرسة للإخلاص وحسن الإخلاق.

وأثناء ذلك، لقي السلطان المريني أبو الحسن حتفه (752 هـ / 1351م)، في ختام مغامرة تعسة، وترك مجال المغرب الأقصى مفتوحا أمام ابنه أبي عنان الذي لم ينتظر إلى ذلك موت أبيه ليأخذ مكانه بفاس. وبدا أن السيطرة المرينية تأكدت من جديد. فاستولى أبو عنان على تلمسان (753 هـ / 1352 م)، وأعاد بجاية إلى حكمه. ومن بسكرة، عرض عليه ابن خلدون خدماته. وفي طريقه إليه، لقي الحاجب المريني ابن أبي عمرو الذي سمي حاكما على بجاية، فحمّله إلى إقامته الجديدة، حيث بقي بعض الوقت (حتى نهاية شتاء 754 هـ / 1353م)، قبل أن تقع دعوته إلى بلاط فاس. وانضمّ بصفة رسمية الى مجلس السلطان العلمي، وبعيد ذلك، التحق بكتابته، دون حرص كبير كما يبدو، « إذ كان لم يعهد مثله لسلفه»، ولنفهم من ذلك : أنّ هذه الخطّة كانت دون مكانته. ولنلاحظ مدى الطموح الذي تكشف عنه هذه الفكرة لدى شاب كان عمره آنذاك لا يكاد يبلغ 23 سنة. وواصل إذن التعلم خاصة، وقد خاب أمله قليلا أو كثيرا، وكتب في ذلك (التعريف، 59) : « وعكفت على النظر، والقراءة، ولقاء المشيخة، من أهل المغرب، ومن أهل الأندلس، الوافدين في غرض السفارة، وحصلت من الإفادة منهم على البغية ». وفي الجملة، كان تعطّشه للعلم مازال بعد يغلب على اهتماماته السياسيّة. لكن هل انغمس حينذاك، منتهزا مرض السلطان، في مؤامرة تهدف إلى تحرير أمير بجاية القديم، أبي عبد الله وإقراره على مملكته القديمة ؟ إن مؤلّفنا يدفع عن نفسه التهمة، ويتحدث عن مكائد، وحسد، ومداخلة

(التعريف، 67). وعلى كلٍّ، فقد ألقى في السجن، حيث بقي عامين (758-759 هـ / 1357-1358 م)، حتى وفاة أبي عنان وكانت هذه الوفاة مناسبة اضطراب، وصراع مسلح بين المطالبين بالعرش، وخيانة، وسفك للدماء. وقد شارك ابن خلدون الذي أطلق سراحه، في ذلك، حسب قواعد اللعب السياسي لذلك العصر. فقد كان الارتداد عملة رائجة. واستخدم ابن خلدون تلك العملة بنجاعة، فوجد نفسه يعين في شعبان 760 / جويلية 1359م. في كتابة السر والترسيل للسلطان الجديد أبي سليم، وحتى يؤدي دوره بصفة أفضل، ويدعم مركزه، فقد جهد في أن يصبح شاعرا للبلاط (« أخذت نفسي بالشعر» (التعريف، 70) ، وينقل لنا مقطوعات طويلة من إنتاجه المدحي. لكن بلا جدوى، إذ أن نجمه أفل. وبعد سنتين تخلّى عن الكتابة إلى قضاء المظالم. ثم جاءت اضطرابات جديدة بسلطان جديد. فأبدل ابن خلدون معسكره في الوقت المناسب، واعتبر أنه حرم من ثمار النصر. فعبر عن سخطه، وخلق لنفسه أعداء، وبعد صعوبة كبرى، تحصل على الإذن بالانسحاب إلى غرناطة (خريف 764 هـ / 1362 م).

في بلاط غرناطة. - في رمضان 760 هـ / أوت 1359 م، أطردت ثورة في القصر محمد بن الأحمر من العرش. وهكذا، وجد نفسه منذ محرم 761 هـ / ديسمبر 1359م، لاجئاً بفاس مع وزيره الشهير ابن الخطيب. وعقدت بين ابن الخطيب والشاب ابن خلدون، منذ ذلك الحين، صداقة ستصمد فيما بعد، رغم الغيوم التي لا يمكن تجنبها، أمام صروف الزمان، وفي جمادى الثانية 763 هـ / أفريل 1362 م، استعاد محمد بن الأحمر عرشه، وابن الخطيب مركزه القديم، ونتج عن الصداقة المعقودة بفاس أن ابن خلدون المرغم بدوره على أن يبحث عن ملجأ في الضفة الأخرى من المتوسط، استقبل بغرناطة بأكبر التشريف، وفي نهاية 765 هـ / 1364م، بُعث إلى إشبيلية، مكلفاً بمهمة عسيرة لتحقيق السلام لدى بطرس القاسي Pierre le Cruel. وينبغي أن نسجل هذا الاتصال بالعالم المسيحي وقد كان آنذاك في أوج التحوّل. ولما رجع، غمره الأمير النصري بالعطايا (التعريف، 85). فاستقدم ابن خلدون عندئذ زوجته وأبناءه من قسنطينة. وللأسف، شعر ابن الخطيب ببعض الاستياء أمام نجاح صديقه الشاب، وفضل ابن خلدون ألاّ يلحّ في هذا الشأن (ربيع 766 هـ / 1365 م).

في بلاط بجاية. - والحق أن فرصة فريدة سنحت له آنذاك لإشباع

طموحه. فقد استعاد صديقه أبو عبد الله محمد، الذي قد يكون شاركه في مؤامرتة بفاس، مملكة بجاية. فعرض عليه خطة الحجابة، وكانت آنذاك أهم خطط الدولة، وعهد بالوزارة إلى شقيقه الأصغر يحيى. وقام ابن خلدون في الآن نفسه بتدريس الفقه وبالوعظ. وكان ذلك انتصارا زائلا. فمن السنة الموالية، عاد أمير قسنطينة، أبو العباس، إلى الهجوم، وألحق هزيمة ساحقة بابن عمه أبي عبد الله محمد الذي بقي على أرض المعركة. وسلم ابن خلدون الرافض لمواصلة القتال، مثلما اقترح عليه، باسم أحد أبناء المتوفى القصر، المدينة للمنتصر (شعبان 67هـ / ماي 1366م) وانتقل إلى خدمته. ولم يكن ذلك لمدة طويلة. فقد شعر ابن خلدون بانقلاب الريح. فاستعفى في الوقت المناسب و لجأ أولا إلى العرب الذواودة، ثم لدى أصدقائه بني مزني ببسكرة، بينما قبض على شقيقه الأصغر يحيى. وأجاب السلطان أبا حمو الذي عرض عليه في رسالة بتاريخ 17 رجب 769 / 8 مارس 1368م (التعريف، 102 - 103)، خطة الحجابة بتلمسان، بالرفض اللطيف، واكتفى بأن بعث إليه بأخيه يحيى المشرح في الاثناء. ويفسر ذلك بقوله :

طريق العزلة. - « كنت نزعته عن غواية الرتب، وطال عليّ إغفال العلم، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك، وبعثت الهمة على القراءة والتدريس » (التعريف، 103) . وبتعبير آخر، أيعاود وهذا أثر الفأس ؟ حاول ابن خلدون إذن أن يحيى حياة الأدباء ببسكرة. وتبادل الرسائل الطويلة، المرصعة بزهور البديع، مع صديقه ابن الخطيب (التعريف، 103-130) . غير أن شيطان الدسائس لم يستطع التخلي عنه. فشجع ضد أبي العباس، تحالف السلطان الحفصي بتونس، وسلطان تلمسان ابن عبد الواد أبي حمو. وتحول، إثر ذلك، إلى ضابط تجنيد لدى السلطان المريني أبي فارس. وتعددت تنقلاته، محاولا أن ينشئ من غبار القبائل قوة قادرة على دعم سلطة تتمتع بقوة حقيقية. لكن الأحداث كانت، في كل مرة، تشوش حساباته. فقد كان المطالبون المتنافسون كثيرين للغاية . ومن هنا ،كانت له سلسلة من حركات الارتداد ربما ليست هي في أصلها سوى محاولات غير ناجعة لإيجاد الجواد الجيد القادر على الفوز في السباق. لكن هذا الجواد كان مفقودا في سباق المغرب الإسلامي في القرن الثامن هـ / الرابع عشر م. ومن جهة أخرى، بدأ أصدقاؤه بنو مزني يستأثرون من نشاط ضيفهم الباعث على الشك. فحاول ابن خلدون

مرة أخرى أن يفلت من إغراءات السياسة، فلجأ إلى رباط أبي مدين. وكتب أنه كان (التعريف 134) « مؤثرا للتخلي والانقطاع للعلم لو ترك له ». ولم يكن من طبعه أن يبقى كذلك لمدة طويلة، فأفضى به السعي إلى فاس (774 هـ / 1372 م) إذن، بعد بعض المحن في المغرب الأوسط. واستقبل، في البداية، استقبالا حسنا، ثم قبض عليه، وأطلق سراحه إثر ذلك، وسمح له، في نهاية الأمر، بأن ينسحب إلى إسبانية الإسلامية ربيع (776 هـ / 1375 م)، حيث ذهب « قصد القرار والانقباض، والعكوف على قراءة العلم » (التعريف، 226). وللأسف، فإن أمله قد خاب مرة أخرى. إذ أصبح شخصية سياسية ذات ماضٍ ثقيل إلى درجة توحى بالرؤية، وكان من ذلك الحين محكوما عليه بأن يؤجر خدماته وأن يوحى بمشاعر مختلطة لا يبعد عنها الشك أبدا. غير أنه، في الظاهر، لم يكن يطمح إلى غير السلام لاستخراج نتائج تجربته الصاخبة وتنظيم أفكاره .

في قلعة ابن سلامة. عاد ابن خلدون إلى المغرب، بعد أن أنذر فعليا بمغادرة مملكة غرناطة، وإثر بعض الصعوبات، استقر مع أسرته بتلمسان (غرة شوال 776 هـ / 5 مارس 1375 م). وفي هذه الأثناء، خُنق صديقه، الوزير ابن الخطيب في سجنه بفاس، وقد حاول عبثا إنقاذه (التعريف، 227)، مما أكسبه عداوة أمير غرناطة، فهل رأى في ذلك إنذارا ؟ بدا، على كل، أنه منذ ذلك الحين، قرّر بصفة ثابتة الاكتفاء بالدراسة والتدريس، لكنّ سلطان تلمسان قبل أن ينسى الماضي — وقد وقف ابن خلدون بالتداول معه وضده — بخلفية استخدامه من جديد، فعهد إليه بمهمة لدى الذواودة. وتظاهر ابن خلدون بالقبول، لكنّه بمجرد أن غادر تلمسان لجأ لدى أولاد عريف، واستقبله هؤلاء استقبالا ملكيا وتدخلوا لفائدته لدى سلطان تلمسان الذي سمح لأسرته باللاحاق به. ولمدة أربع سنوات (776 - 780 هـ / 1375 - 1379 م)، عاش ابن خلدون بقلعة ابن سلامة، على بعد 6 كلم جنوب غربي فرندة الحالية، في مقاطعة وهران (التعريف، 228). وكان ذلك منعرجا حاسما في حياته. فقد ألّف، وهو سجين برجه العاجي لأول مرة بصفة جدية، المقدمة « على ذلك النحو الغريب الذي اهتدى إليه في تلك الخلوة » (التعريف، 229) .

من جديد في تونس — ثم أصبحت ضرورة الحصول على وثائق أشمل تتأكد أكثر فأكثر، لمتابعة العمل. وكان عمر ابن خلدون آنذاك 37 سنة. ففكر في العودة الى تونس، وقد غادرها في سنّ العشرين، تونس « حيث قرار أبائه، ومساكنهم، وآثارهم، وقبورهم »، حسب تعبيره (التعريف 230). فراسل وتحصل على الترخيص من محيي الدولة الحفصية، أبي العباس (771-796 هـ / 1370-1394 م)، وقد كان له معه خصام منذ أكثر من عقد سابق في بجاية. وهكذا « ألقى عصا التسيار » (التعريف، 231) بمسقط رأسه، في شعبان 780 هـ / نوفمبر — ديسمبر 1378 م. وواصل في تونس مهنته الجديدة في التدريس والعلم، وأتم بها تحريراً أول لكتابه العبر الذي أهدى نسخته الأولى، مصحوبة بمدحة طويلة أملتتها الظروف (التعريف، 233-234)، إلى السلطان، لكن نجاح تدريسه — وقد اعتبره البعض هدأماً — وحظوة السلطان كونا له أعداء كثيرين. وجعلته دسيسة، روجها ابن عرفة الشهرير، يخشى شرّ العواقب. فخير أن يغادر المغرب الإسلامي حيث يتبعه ماضيه الثقيل بصفة أكيدة في كل مكان، وكانت التعلقة الحجّ، فمنحه السلطان ترخيصاً، وكان أحد المراكب على أهبّة الإقلاع إلى الاسكندرية، فركبه ابن خلدون في 15 شعبان 784 هـ / 24 أكتوبر 1382 م (التعريف، 245) .

في القاهرة. لقد كان وصول مؤلفنا إلى عاصمة الممالك انبهاراً حقيقياً بالنسبة إليه، فتدفّق الطلاب على دروسه بالأزهر. وسرعان ما سمّي مدرّساً للفقهاء المالكي، وكان هذا الدرس شاغراً، بالمدرسة القمحية، وبعد وقت قليل، سمي كذلك قاضياً مالكياً أكبر (جمادى الثانية 786 هـ / جويلية- أوت 1384 م)، وعندئذ بدأت محنة، فقد غرقت أسرته التي سمح لها بالالتحاق به إثر تدخل السلطان الظاهر برقوق، في عرض الإسكندرية، وفي نفس الوقت، تسبّب تشدّده وفسائس أعدائه الغاضبين لمنح وظيفة من أهم وظائف الدولة إلى « غريب » في فقدانه لخطّة القضاء (جمادى الأولى 787 هـ / جوان - جويلية 1385 م). وفي سنة 789 هـ / 1387 م. سمّي بالمدرسة الظاهرية، وهي حديثة البناء، ثم عهد إليه، عند رجوعه من الحجّ، بتدريس الحديث في مدرسة صرغتمش، وقد احتفظ لنا ابن خلدون بدرسره الافتتاحي بحذافيره (محرم 791 هـ / جانفي 1389 م) وهو مخصّص لموطأ مالك (التعريف، 294-310)، وفي الآن نفسه، وضع على رأس خانقاه

بيبرس، أهم «الأديرة» الصوفيّة بمصر. ثمّ إثر أربعة عشر سنة خصّصت للتدريس وحده، وقّع الاتّجاه إليه من جديد ليشغل خطة القضاء (15 رمضان 801 هـ / 21 ماي 1399 م). وعزل مرّة أخرى (محرم 803 هـ / أوت سبتمبر 1400 م) وبعد بضعة أشهر (ربيع الثاني 803 هـ / نوفمبر - ديسمبر 1400 م)، اضطرّ إلى أن يتّبع، وكان ذلك بالقوّة أكثر مما هو عن طيب خاطر، الناصر الذاهب إلى نجدة دمشق التي يهددها تيمورلنك المستولي بعد على حلب. ولعب ابن خلدون الذي بقي في المدينة المحاصرة - وقد تخلّى عنها الناصر بعجالة إذ كان يشكّ في قيام مؤامرة بالقاهرة اثناء غيابه - دورا ما في استسلام المدينة، بأمان خداع، واحتفظ لنا برواية مفصّلة لمقابلاته مع القائد المغولي (التعريف، 366 - 383). وليس من المستحيل أنّه تخيل فيه رجل القرن المتمتّع بعصبية كافية لإعادة توحيد العالم الإسلامي وإعطاء توجّه جديد للتاريخ (التعريف 372، 382). وفي النهاية، عاد إلى القاهرة، إثر تحرير وصف للمغرب لتيمورلنك وبعد أن شهد فظائع الحرق والنهب بدمشق، وتخلّى حتى عن ثيابه لقطاع الطريق، وعلى الرّغم من موقفه المتورّط تجاه القائد المغولي (التعريف، 378) فقد استقبل استقبالا حسنا في البلاط. ولأربع مرّات أخرى سيّسمّى قاضيا أكبر، ويخلع بالتوالي. وتمّت آخر تسمية له، وهي السادسة، في شعبان 808 هـ / جانفي / فيفري 1406 م، قبل أسابيع من وفاته في 26 رمضان 808 هـ / 17 مارس 1406 م.

وخلال إقامة ابن خلدون بالقاهرة، لم يقطع صلته بالمغرب الإسلامي. فقد حافظ على زيه المغربي، وهو برنس داكّن. وحاول أيضا أن يشجع تبادل الهدايا بين سلاطين مصر وسلاطين المغرب وأن يوجد مناخا للتفاهم (التعريف، 335 - 346). وأرسل نسخة من كتاب العبر الى السلطان المريني أبي فارس (796 - 799 هـ / 1394 - 1396 م)، وواصل مراسلة أصدقائه، واحتفظ لنا بصفة خاصة، بمقاطع طويلة، نثرا وشعرا، من الرسائل التي وجهها إليه الشاعر الغرناطي الشهير، ابن زمرك (التعريف، 262 - 274).

إن حياة ابن خلدون قد وقع الحكم عليها أحكاما متنوعة، وبصفة عامة، بصرامة نسبية. فبالفعل، لا شكّ يحوم حول تصرّف مفكرنا الطائش،

النفعي، المتعالي، الطموح، الملتبس. وهو، إلى ما ذكرنا، لا يخفي ذلك، ويعرض بنفسه في وضوح النهار، في كتاب التعريف، هذه التغييرات المتتالية للاتجاه. أهو التقلب ؟ أم الانعدام المحير للوطنية ؟ لقد كان ينبغي، لكي تكون هذه الأحكام صحيحة بدقّة، أن يوجد وطن. بينما، لم يكن هناك وطن بالفعل. ولم يكن يوجد على الإطلاق حتى المفهوم، ولن يدخل الفكر الإسلامي إلا بفضل الاتصال الحديث جدًا بأوروبا. ولم يكن يتصور أنه توجد خيانة غير الردّة. ولم يكن الوفاء مفهوما كذلك إلا في إطار العلاقات بين الرجل والرجل، وكان أكابر القوم يضربون، يومياً، المثال على الخيانة. وكان يعفى عن الخيانة، إلى ذلك، بيسر تبعاً للمصلحة. أو لم يكن ابن خلدون بالتداول عدوًا لهؤلاء و أولئك أو خادماً لهم ؟ — كما كان المرء يقتل غدراً أو بلا سبب، و ببساطة كاملة قصد التوقّي. وكانت الصراعات التي تمزّق المغرب الإسلامي في عهد ابن خلدون سلسلة من الإجهاضات بلا أفق ولا عظمة. فينبغي أن نحكم عليه إذن حسب مقاييس عصره، لا حسب مقاييسنا .

وكان ابن خلدون، إلى ذلك، مثلما يبرهن عليه في مقدمته، جلي الرؤى بصفة مدهشة. وبالطبع ، كان تصرفه يمليه الطموح، والتعلّق بالسلطة، وطعم المغامرة، وربما انعدام كامل للقلب في ميدان السياسة. ولكن، هل كان ذلك كلّ شيء ؟ يمكن الشكّ في الأمر. وبالفعل، قد يكون رغم كلّ شيء من الغريب أن منظّر العصبية لم يتصوّر، وربما كان ذلك في غموض قليل أو كثير، مشروع إحياء الحضارة العربية الإسلامية التي يعلم أنها - وهو يذكر ذلك بوضوح - في صلب الاحتضار. فيمكن ألا تكون مغامرته سوى تنقيب غير مجدّ وبارد عن عصبية قوية إلى درجة لإنقاذ مركب الإسلام من الغرق. وتسمح بعض العلامات بإبداء هذا الافتراض. لكنّ ابن خلدون لا يذكر لنا شيئاً بصفة صريحة. ولا يمكننا كتابه التعريف، وقد أبديت في شأنه، إلى هذا، أحكام مختلفة، من أية مساعدة. ومثلما لاحظنا ذلك من قبل، فهو لا يسمح لنا بالدخول في حياة الرجل الخاصة، إذ أنّه يرسم لنا فقط ملامح الشخصية. ولذا علينا أن نرضى برؤية نوايا الرجل العميقة تفلت منا إلى الأبد .

II - الآثار - عرف ابن خلدون خاصة بمقدمته وكتاب العبر، لكنّ له آثاراً أخرى لم تصان كلها. لقد حاول، في حوالي العشرين من عمره، تحت تأثير

وهكذا، حصل تحوّل حقيقي. فقد أصبح الفقيه العادي الذي كان يمكن أن يكونه ابن خلدون على كلّ حال، مؤرخاً عبقرياً، وربما مؤسس بعض العلوم التي ستكشف أنها من بين أكثر العلوم الإنسانية العصرية إثماراً. وأول دفعة من مقدمته - وتحوي أساس تفكيره - لكتاب العبر، وكذلك أقسام واسعة من هذا التاريخ نفسه، قد تمّ تحريرها بين 776هـ / 1375م و 780هـ / 1379م في أثناء عزلته. ولم ينقطع إثر ذلك، إلى نهاية أيامه، عن تنقيح هذا الأثر الأساسي، وخاصة المقدمة. ويبدو التعريف، وهو ترجمة ذاتية تتوقف في ذي القعدة 807هـ / ماي 1405م (ط. الطنجي، القاهرة، 1951)، وشفاء السائل، وهو مؤلف في التصوّف كتب في أواخر حياته (ط. الطنجي، إسطنبول، 1958، وط. ا.ا. خليفة، بيروت، 1959) في شكل عملين أدنيين مقارنة مع أثره الرئيسي، وتقتصر أهميتهما الأساسية إذّاك على إضاءته. ونلاحظ في هذا الصدد أن مشكل صحّة نسبة شفاء السائل، ولها من الأهمية مالها بالنسبة إلى تاريخ فكر المؤلّف، لم يقع بعد حلّها بصفة نهائية اليوم.

ويمجّد المؤرخ العثماني نعيمة (المتوفى 1128هـ / 1716م) ابن خلدون في مقدّمة كتابه ويقدم تلخيصاً لأفكاره. (قام بأول ترجمة تركية لقسم من المقدمة شيخ الإسلام بيري - زاده محمد في 1143هـ / 1749م (انظر الفهرس العربي I A؛ فصل ابن خلدون Ibn Haldūn، العمود 740 ب). وأحدث الترجمات، وهي كاملة، قام بها زاهر كادري أوغن Zakir Kadiri Ugan، في مجلدين، اسطنبول، 1954). إلّا أن فضل اكتشاف ابن خلدون وثراء مقدمته يعود إلى أوربا، أي إلى دار بولو d'Herbelot (المكتبة الشرقية Bibliothèque Orientale، 1697)، وسلفستر دوساسي Silvestre de Sacy (مختارات أدبية عربية von Hammer-Purgstall، 1806 Chrestomatie arabe)، وفون هامر بورغستال (1812، ... Über den Verfall des Islams)، وخاصة كواترمار Quatremère الذي قام، سنة 1858، بالطبعة الأولى الكاملة للمقدمة - وقد طبعت كذلك في نفس السنة بالقاهرة على يد نصر الهوريني عن مخطوط آخر يتضمن خاصة الإهداء إلى السلطان أبي فارس (796 - 799هـ / 1394 - 1397م) بفاس - ودوسلان De Slane الذي قام بعد بعض السنوات بأول ترجمة لها إلى اللغة الفرنسية (المقدمة Les Prolégomènes، باريس 1863 - 1868). ومن ذلك التاريخ، لم تكفّ الطبعات والدراستات عن التكاثر، في

الشرق والغرب، شاهدة بالاهتمام المتزايد الذي يبعثه الفكر الخلدوني، وقد بلغ عددها هذه السنوات الأخيرة حدًا جعلها تحتاج إلى الضبط البيبليوغرافي الذي قام به هـ . بيريس H. Pérès و.و.ج فيشال W.J. Fischel. وتوفّر آخر الترجمات، وهي ترجمة فر. روزنتال Fr. Rosenthal، مزية أنها انجزت عن مخطوط اسطنبول (عاطف أفندي، 1936)، وقد أثبتت فيه بخط ابن خلدون ملاحظة تشير إلى أن المؤلف «راجع علميًا». ونلاحظ أيضا الترجمة البرتغالية التي قام بها كوري Khoury في مجلدات (ساوباولو، 1958-1960)، والترجمة الفرنسية (قيد الطبع) التي قام بهاف، مونتاي* V. Monteil وبالطبع، أثار كتاب العبر، التاريخ العالمي نفسه، اهتماما أقل. وأول المهتمين، نوال ديفرجي Noël Devergers قام بنشر مقاطع مستمدة من العبر وترجمتها تحت عنوان تاريخ إفريقيا تحت حكم الدولة الأغلبية وصقلية تحت السيطرة الإسلامية-Histoire de l'Afrique sous la domination musulmane de la Sicile et de l'Afrique sous la domination musulmane. باريس 1841. ونشرت بعد سنوات قليلة، ترجمة أخرى جزئية قام بها دوسلان De Slane، تحت عنوان تاريخ البربر والدول الإسلامية بإفريقيا الشمالية-Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale (في مجلدات، الجزائر، 1852-1856) متبوعة بنشرة للمقاطع المترجمة (في جزأين، الجزائر، 1863). ثم نشرت طبعة بولاق الكاملة (في 7 مجلدات، 1868) ومن ذلك الحين، تتابعت كذلك الترجمات الجزئية. إلا أننا مازلنا ننتظر الطبعة النقدية الحقيقية للمقدمة والعبر. والطبعة الأخيرة، طبعة بيروت، (1956-1959) - التي نحيل عليها - هي طبعة تجارية إلا أنها مزودة بفهارس نافعة.

والنقد الموجّه عامة إلى كتاب العبر هو أنه لم يحقق وعود المقدمة وهو نقد واضح جلي. لكن لم يكن من الممكن أن تتم الأمور على غير هذا. فلا بشر يقدر وحده على كتابة تاريخ عالمي حسب مقتضيات المقدمة. لكن يوجد ما هو أخطر. إذ يبرهن ابن خلدون في كتابه أحيانا عن انعدام عجب للمعرفة، مثال ذلك ما يتعلق بالموحدين وعقيدتهم. « وفضلا عن ذلك، لم تكن التواريخ الدقيقة نقطة قوته، فالمعطيات الزمنية تتناقض غالبا عبر كتابه، ويضطر المرء إلى أن يفضل في عديد المرات، تلك التي توفّر لها كتب أخرى، أكثر تواضعا، وأكثر اختصارا بكثير » (ر. برونشفيغ R. Brunshvig الحفصيون II، 392).

إلا أن كتاب العبر، بالترتيب الذكي للأحداث، وعمق الرواية واتساعها، يبقى رغم كل شيء، حسب رأي أفضل اختصاصي، استعمله أكبر استعمال، أداة عمل لا نظير لها، وخاصة « بالنسبة إلى القرنين القريبين أكثر من مؤلفنا، وهما الثالث عشر والرابع عشر » (ر.برونشفيغ، المرجع المذكور II، 393). ونلاحظ أيضا أن هذا الكتاب، وغالبا ما يكون مخبيا للأمال عندما يتعلق الأمر بتاريخ المشرق، له قيمة بصفة عامة خصوصا بالنسبة إلى المغرب الإسلامي، وبالأخص إلى البربر.

لكن الآية الحق، ذات القيمة العالمية، التي أنتجت ريشة ابن خلدون، هي المقدمة. وهي، في ذهن مؤلفها، ومثلما يدل عليه عنوانها إلى ذلك، مدخل إلى عمل المؤرخ. ولهذا، قدمت لنا بصفتها موسوعة تأليفية للمعارف المنهجية والثقافية الضرورية للمؤرخ ليتمكن من إنجاز عمل علمي حقا. وفعلا، كانت اهتمامات ابن خلدون في المنطلق، أبيستمولوجية بالأساس. وسيدفع، خطوة خطوة، أثناء تأمله في منهج التاريخ ومادته، وبكامل الوعي، إلى ابتداء ما يسميه « علم مستنبت النشأة » (63)، وسيبرز هو نفسه بصفته حاويا بصفة صريحة إن قليلا أو كثيرا نقط انطلاق عدة اتجاهات في البحث تفضي إلى فلسفة التاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلوم أخرى أيضا.

ويبدأ ابن خلدون، في مقدمة المقدمة (1 - 68) بتعريف التاريخ — الذي يوسعه إلى دراسة مجمل الماضي الإنساني، بما في ذلك المظاهر الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافة — واستخراج فائدته، ونقد انعدام الفضول والمنهج لدى سابقه، ووضع قواعد نقد جيد سليم. ويتركز هذا النقد أساسا، إذا تركنا جانبا فحص الشهادة، على قانون المطابقة (61 - 62)، أي قرب الأحداث المذكورة من الحقيقة ومطابقتها لطبيعة الأمور، وليس ذلك سوى جري التاريخ وتطوره. ومن هنا، كانت ضرورة بروز القوانين التي تحدّد اتجاه هذا الجري. ويذكر لنا أن العلم القادر على إضاءة هذه الظاهرة، هو علم العمران « وكان هذا علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني » (62).

وكل ما يتبع ذلك، أي صلب المقدمة نفسها، ليس سوى العرض المفصل لهذا العلم الجديد المستقل الذي تفتن إليه المؤلف حدسا. ويحلل ابن خلدون، انطلاقا من هنا برهنته — على عكس ما يمكن أن يكون البعض

ظنّوه - حسب هندسة محكمة، وهو إلى ذلك يشير بوضوح إلى خطوطها الكبرى ويفسرهما (68) قبل أن ينطلق في عرضه. وهذا العرض يتوزّع على ستة فصول كبرى، تنقسم بدورها إلى عدد كبير من الفقرات ذات الطول المتنوع، وغالبا ما يتمّ تحديد ذلك حسابيا .

الفصل I : في العمران البشري على الجملة. ويرسم فيه ابن خلدون ملامح دراسة للوسط وتأثيره في الطبع البشري، واثنولوجيا، واثنوبولوجيا .

الفصل II : في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل. ويدرس عامة المجتمعات القريبة من البدائية .

الفصل III : في الدّول والممالك والخلافة والمراتب السلطانية، ويدرس مختلف أصناف الحكم، والدّول، والمؤسسات .

الفصل IV : في البلدان والأمصار وسائر العمران الحضري ، أي الأشكال المتطورة أكثر، وربّما المتصنّعة أكثر للحضارة .

الفصل V : في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، ويدرس الصنائع ومجموع الأحداث الاقتصادية .

الفصل VI : في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، ويدرس العلوم والآداب، ومجموع الظواهر الثقافية .

ويبيّن هذا التخطيط، بوضوح، أن ابن خلدون دفع في مقدمته إلى الاهتمام بجملة الظواهر الاجتماعية. والمحور الذي تنتظم حوله الملاحظات، والموجّه لبحوثه، هو دراسة مظاهر ذبول الحضارات وانحطاطها، أي أعراض الأدواء التي تموت من جرائها الحضارات وطبيعتها. ومن هنا كانت الروابط المتينة للغاية والتي تجمع بين المقدمة وتجارب مؤلفها السياسية. وفعلا، فقد كان لابن خلدون شعور تنبئي واضح بأنه شاهد على تغيير عملاق في مجرى التاريخ. ومن هنا كانت ضرورة القيام بتقويم الماضي الانساني واستخلاص العبر منه. ويقول ابن خلدون إن التغييرات، في بعض الأوقات المتميّزة من التاريخ، تصل إلى حدّ الشعور بأن المرء يشهد « خلقا جديدا، ونشأة مستأنفة، وعالما محدثا. فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة والآفاق » (53). وهذا « العالم المحدث » كان ابن خلدون يعلم (866) أنه في حالة مخاض على ضفاف أخرى، وكان يعلم كذلك أن الحضارة التي ينتمي إليها تحيي أيامها الأخيرة. وقد رغب،

لاستحالة إمكان تجنّب الكارثة، أن يفهم الأحداث على الأقل، ومن هنا كانت ضرورة تفكيك آليات التاريخ .

وفي عمل التفكيك هذا، كانت الأداة الأساسية له هي الملاحظة. وقد وقع الإلحاح حديثا على المظهر الواقعي لفكره. فابن خلدون، المتمرس بمصادر المنطق والملتجئ إليها، وخاصة إلى الاستقراء، يحذر كثيرا من العقل النظري. وهو يقبل أن العقل هو بالتأكيد أداة مدهشة، لكن في إطار حدودها الطبيعية فحسب، وهي حدود البحث في الواقع وتأويله. وقد حيرّه مشكل المعرفة عميق الحيرة ودفعه، في النهاية، في آخر نقد جذري، إلى رفض الفلسفة. « وبوضعه لتطابق العقلي العالمي مع الواقعي الفردي موضع شك، وضع ابن خلدون موضع شك، بنفس العملية، كامل بناء الفلسفة النظرية السابقة ».

(ن . نصار N. Nassar، فكر ابن خلدون الواقعي La pensée réaliste d'Ibn Khaldūn: 66). وهكذا اختار ابن خلدون، بعد أن أنهى، بصفاء كبير، مأساة الفلسفة العربية الإسلامية، التوجّه الى مذهب تجريبي معين، لاستكشاف الواقع واستخراج معناه، وهذا المذهب لا يرفض « اللّجوء إلى أصناف التفسير العقلي المتولّدة عن الفلسفة » . وفي الجملة، لا يطرح ابن خلدون التنظير التقليدي للفلاسفة الذي يتورط في الطريق غير النافذة للخلافات والمجادلات، إلّا ليعوّضه بتنظير آخر أوثق في مساعيه وأخصب في نتائجه، لأنه متصل مباشرة مع الواقع الملموس .

وهذا التنظير الإيجابي الجديد الذي يعرضه علينا، ويعطينا مثالا له في المقدمة، يجري حسب حركة جدلية لاحظها عدة باحثين (انظر خاصة الكتب الحديثة. إ. لاکوست Y. Lacoste ون. نصار N. Nassar) وفعلا، فانه لا يمكنه النّفاذ إلى قلب الواقع ، ووصف الصّراعات، والنّزاعات ، والتّوترات، والإجهاضات المتتالية للدول والحضارات تحت تأثير تناقضاتها الداخلية، دون أن يعترضه ، وأن يلاحظ في طريقه، لعبة الجدل، خاصة وأنه التقى في شبابه بالمنطق، وأن مفاهيم المتناقض، والمتضاد، والمقابلة، وتكامل الأضداد، واللّبس، والتّعقد، والتّداخل كانت منذ زمان طويل مألوفة في الفكر الإسلامي الذي ينتمي إليه. ولهذا تذكر هذه المفاهيم غالبا بصفتها مفاهيم إجرائية تسمح بالفهم والتفسير. وتوصل ابن خلدون هكذا، بتجاوز التناقضات جدليا، ومحاولة تفسيرها، وحلّها

إذن، إلى تصوّر دينامي للتطور الجدلي لمصير الإنسان، ولتاريخ واضح، عقلي، ضروري استعاديا. وينبغي إدماج رسمه البياني الدائري الشهير للتأويل التاريخي، وهو في حدّ ذاته لا يقدم أية طرفة خاصة، ضمن هذه الرؤية العامة، حتى يأخذ معناه الحقيقي .

ولقد جعل ثراء الأفكار المثارة في المقدمة عدة اختصاصيين يكتشفون فيها بذور عدة علوم لم تتأسس حقًا بصفتها علوما مستقلة إلّا في فترة حديثة جدًا نسبيًا. ولا أحد بالطبع يناقش صفته مؤرخا، ويرى إلاكوست (ابن خلدون Ibn Khaldoun 187) أنّه « إذا كان توسيديد Thucydide مخترع التاريخ »، فإن ابن خلدون « يسجّل ظهور التاريخ بصفته علما ». لكن رأى الدارسون فيه فيلسوفا، وقد كان التعجّب خاصة من اكتشاف علم اجتماع كثير الضبط في مقدمته. وليس « علمه المستنبت النشأة »، علم العمران، وقد كان هو نفسه منبها باكتشافه، في حقيقة الأمر، وبالمعنى الدقيق، غير علم اجتماع، وقع تصوّره في الحق بصفته علما مساعدا للتاريخ. وهو يرى أن الأسباب العميقة للتطور التاريخي، علينا بالفعل أن نبحث عنها في الهياكل الاقتصادية والاجتماعية. فثابر على تحليلها إذن، مؤسسا، في طريقه، عددا من المفاهيم الإجرائية الجديدة وأبعدها تأثيرا هو بلا جدال مفهوم العصبية. وهذا المفهوم، وكذلك مفهوم العمران، أنتجا عديد المناقشات العصرية - ولا يمكن ذكرها هنا - في شأن تأويلهما (انظر م. الطالبي، ابن خلدون ومعنى التاريخ Ibn Haldun et le sens de l'Histoire، في دراسات إسلامية S.I XXVI (1967)، (86 - 99,90 - 112). وقد اهتم خاصة بتأثير نوع الحياة والإنتاج في تطوّر المجموعات الاجتماعية. وهو يؤكد، في جملة اشتهرت بعد : « اختلاف الأجيال في أحوالهم، إنّما هو باختلاف نحلّتهم من المعاش » (210). وكثيرا ما قربت هذه الجملة من جملة أخرى لا تقلّ عنها شهرة لماركس Marx : « تحدد طريقة الإنتاج للحياة المادية، عامة، التطوّر الاجتماعي، والسياسي، والفكري للحياة ». والتماثل، فعلا، مدهش. وليس الوحيد بين المفكرين. ولهذا فإنّ فكر ابن خلدون كثيرا ما يؤوّل، وخاصة في هذه السنوات الأخيرة، في معنى المادية الجدلية. ولكن، على الرغم من وجوه التماثل التي لا تناقش فإنه يبدو لنا صعبا أن نرى في ابن خلدون رائدا للمادية. وإلى ذلك، فالتعليل، عنده، ليس اجتماعيا

اقتصاديا فقط، بل هو نفساني أيضا . « لا تحوي المقدمة علم اجتماع عام فحسب، ولكن أيضا علم نفس اجتماعي وافر الثراء، كثير التنوع، يمكن أن ينقسم الى علم نفس سياسي، وعلم نفس اقتصادي، وعلم نفس اخلاقي، وعلم نفس عام. وتكون العناصر المتشابكة والمتراطة في الصميم، وهي عناصر علم النفس الاجتماعي هذا وعلم الاجتماع العام كلاً معقدا صعب الفصل » (نصار Nassar المرجع المذكور أعلاه، 178) .

وهكذا تعتبر صورة ابن خلدون غير الخاضعة للقوالب في الثقافة العربية الاسلامية وبالإجماع، منذ اكتشاف أوروبا له، بصفتها صورة عبقرى حقيقي بارز، صورة « مفكر عبقرى شاذ » (ر. برونشفيغ R. Brunschvig الحفصيون، II ، 391) تشكل مقدمته « أحد الأوقات الجليّة للفكر البشري » (بوتول Bouthoul) وقد كان « عبقرى متفردا »، لا يرتبط بأي تيار معين من الفكر العربي الإسلامي، لأنه في الحق نهاية العديد من التساؤلات المحيرة، ويمثل فكره تحولا جذريا بقي - للأسف - عديم التأثير مثل مغامراته السياسية الفاشلة. « ومثلما لم يكن له سابقون في اللغة العربية، لم يكن له كذلك في هذا اللسان، إلى الفترة المعاصرة، منافسون ولا تابعون. وإذا لم يكن تأثيره المباشر منعدما، في مصر، في بعض كتاب العصر الوسيط المنتهي، فإنه يمكن التأكيد أن مقدمته وتعليمه الشخصي لم يخلف كلاهما، في مسقط رأسه بلاد البربر، أثارا دائمة. وذلك في الحقيقة، من أكثر المآسي تأثيرا، وأشجى صفحات تاريخ الثقافة الإسلامية وأكثرها دلالة، أي هذا الانعدام المطلق للفهم والعداوة المصرة اللذان تعرض إليهما، في عالمه نفسه، هذا المفكر العبقري الشاذ » (ر. برونشفيغ، المرجع المذكور أعلاه، II ، 391) .

الببليوغرافيا : إن الببليوغرافيا حول ابن خلدون غزيرة إلى حد أنها لا تجد مكانها هنا بصفة تامة ويمكن الرجوع إذن إلى هـ . بيريس H. Pérès ، ببليوغرافيا حول حياة ابن خلدون وأثاره Bibliographie sur la vie et l'oeuvre d'Ibn Kaldûn ، في متفرقات ليفي دلافيدا Mélanges Levi Della Vida ، II ، 308 -

329 ، وإلى بيبليوغرافيا أحدث أنجزها و.ج. فيشال W.J.Fischel في نهاية
المجلد III من ترجمة المقدمة التي قام بها فر. روزنتال Fr.Rosenthal
نيويورك، 1958، 27 ص. على أنه ينبغي التنويه بالدراسات
والتأليف التالية بصفة خاصة : طه حسين، دراسة تحليلية
ونقدية لفلسفة ابن خلدون الاجتماعية Etude analytique et critique de la
Philosophie sociale d'Ibn Khaldùn [باريس 1917؛ ج، بوتول G. Bouthoul، ابن
خلدون، فلسفته الاجتماعية Ibn Khaldoun , sa philosophie sociale ، باريس،
1930 : ن. شميت N.Schmidt، ابن خلدون، مؤرخا وعالم اجتماع
وفيلسوبا [Ibn Khaldùn Historian, Sociologist and philosopher]، نيويورك،
1930؛ م.ع. عـنان، ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري،
القاهرة، 1933 (ط. جديدة مزيدة، القاهرة، 1965)؛ ر. برونشفيغ
R. Brunschvig، تأليف ممتاز في بلاد البربر الشرقية تحت حكم
الحفصيين La Berbérie Orientale sous les Hafsidès ، باريس، 1947، II، 385-393
صدرت الترجمة العربية عن دار الغرب الإسلامي، في جزأين، 1988 :
حمادي الساحلي : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ؛ ش. إيساوي Ch. Is-
sawy فلسفة عربية للتاريخ، An Arab philosophy of history ، لندن، 1950؛
س. الحصري، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، القاهرة، 1953؛ م. مهدي.
فلسفة التاريخ لدى ابن خلدون Ibn Khaldùn 's philosophy of history
لندن، 1957.

ومنذ آخر ضبط بيبليوغرافي أنجزه و.ج. فيشال W. J. Fischel
نشرت دراسات وتأليف أخرى. نذكر منها :
أ.ج. روزنتال E.I.J.Rosenthal، الفكر السياسي في الإسلام الوسيط Po-
litical thought in medieval Islam ، كامبريدج، 1958، الفصل IV، 84-113، نفسه،
الإسلام في الدولة الوطنية العصرية Islam in the modern national state
كامبريدج، 1965، 16-17 وما بعدها (تأثير ابن خلدون في المفكرين
المسلمين المعاصرين)؛ ه. سيمون H.Simon، Ibn Khaldùn's Wissenchaft،
der menschlichen kultur ، ليبزغ ، 1959؛ س. م. باسييفا S.M.Bacيفا، حول
العمل في فكر ابن خلدون Sur le travail dans la pensée d'Ibn Khaldùn ،
في متفرقات أ. كراتشوفسكي Mélanges I.Krackovskij ، لينينغراد، 1958؛
و.ج. فيشال، استعمال ابن خلدون للمصادر التاريخية Ibn Khaldùn 's
use of historical sources في دراسات إسلامية XIV، S.I (1961)؛ نفسه،

ابن خلدون في مصر، وظائفه العامة وبحثه التاريخي (1382-1406)
 †Ibn khaldùn in Egypt. His public fonctions and historical research 1967 :
 جلنر E.Gellner من ابن خلدون إلى كارل ماركس. From ibn Khal-
 dùn to Karl Marx، في الربعيات السياسية XXXII (1961)،
 385 — 392 ؛ خصّصت الفكر (تونس) ، عدد مارس 1961 ، لابن
 خلدون**ع. بدوي، مؤلفات ابن خلدون ، القاهرة، 1962 ؛ ع. الوردى،
 منطق ابن خلدون ، القاهرة، 1962 ؛ أعمال مهرجان ابن خلدون ، القاهرة
 ، 1962 ؛ ر. والزر R.Walzer مظاهر من الفكر السياسي الإسلامي : الفارابي
 وابن خلدون Aspects of Islamic political thought : Al-Fàrabi and Ibn Kaldùn ، في
 الشرق Oriens ، 1963 ، 60.40 ؛ جيتسوزو تامورا Jitsuzo Tamura ، نظرات ابن
 خلدون الاقتصادية Les vues économiques d'Ibn Khaldùn (باليابانية،
 في أجيا كازاي Ajia Kazai ، سبتمبر، 1963 ؛ ولفسون [Wolfson] الفلسفة
 الدينية Religious Philosophy ، جامعة هارفارد Harvard ، 1961 ، 177 - 195
 (حول الصفات والقدر) ؛ ندوة الرباط ، ماي 1962 ، ط. دار الكتاب، الدار
 البيضاء؛ م . عطاء الله برهان، فكر ابن خلدون الاقتصادي La Pensée
 économique d'Ibn Khaldùn ، أطروحة جامعية، باريس، 1964 ؛ ن. نصار، شيخ
 ابن خلدون : الأبلي Le maître d'Ibn Khaldùn: al- Abili في دراسات اسلامية
 XX S.I. (1964) 103 - 115 ؛ نفسه، فكر ابن خلدون الواقعي La pensée réaliste
 d'Ibn Khaldùn ، باريس ، 1967 ؛ ج . هـ. بوسكي G.H.Bousquet
 نصوص المقدمة الاجتماعية والاقتصادية 1375.1379 sociol- Les textes
 ogiques de la Mukaddima باريس 1965 ؛ ج. لابيكا G.Labica ، محاولة
 رسم سوسيولوجيا الدين لدى ابن خلدون Esquisse d'une soci-
 ologie de la religion chez Ibn Khaldùn في الفكر La Pensée أكتوبر 1965 ،
 العدد 233.123 ؛ ر.أرنالديز [R.Arnaldez] ، خواطر حول مقطع من
 مقدمة ابن خلدون Réflexions sur un passage de la Mukaddima d'Ibn Khaldùn ،
 في متفرقات ر. كروز Mélanges R.Crozet ، بواتي Poitiers ، 1966 ، 1337 وما
 بعدها؛ إ. لاکوست Y.Lacoste ، ابن خلدون، نشأة التاريخ، ماضي
 العالم الثالث Ibn Khaldùn, naissance de l'histoire, passé du tiers- monde
 باريس، 1966 (تأويل ماركسي لاعم، للرجوع إليه بحذر، انظر في الملحق
 الادبي للتايمس Times ، 8 أوت 1968 ، 853) ؛ أ. أ. ميسارس E.A.Myers ،
 ابن خلدون رائد « علم جديد » Ibn Khaldùn, forerunner of new science
 في العالم العربي The Arab World ، نيويورك، مارس 1966 ؛ م. الطالبی،

ابن خلدون ومعنى التاريخ Ibn Haldùn et le sens de l'histoire، في دراسات إسلامية S.I. XXVI (1967) 73 - 148 : ف. مونتاي V.Monteil، في المجلة التاريخية Revue Historique، أفريل - جوان 1967: محمد محمود ربيع، نظرية ابن خلدون السياسية The political theory of Ibn Khaldùn، ليدن Leyde 1967: ج. بيالوسكي J. Bielawski، المظهر السوسيولوجي لأراء ابن خلدون حول «علوم اللغة العربية» Aspect sociologique des opinions d'Ibn Haldùn sur les Sciences de la langue arabe أعمال المؤتمر الثالث للدراسات العربية الإسلامية Atti del terzo congresso di studi arabi e islamici، نابولي Naples، 1967، وحول تأثيره في تركيا، انظر ن. فاهري فنديكوغلو Türkiye'de Ibn Haldunizm، في Fuad Köprülü Armagani، إسطنبول، 1953، 153-163. وانظر كذلك بيرسون Pearson، الفهرس، 10897-10923، الملحق، 2872-2887 الملحق، II، 2796-2805

* صدرت ترجمة ف. مونتاي في 3 مجلدات بيروت، 1967 - 1968، ثم في باريس، 1978. (المترجم)
وكذلك الحياة الثقافية (تونس)، س V، العدد 9، ماي - جوان 1980 (المترجم).

والنويري (المتوفى 732هـ / 1331-1332)، وابن خلدون (المتوفى 808هـ / 1405-1406 م) والمقرئزي (المتوفى 846هـ / 1442-1443 م). ويبدو أن السخاوي (إعلان، 122 [توفي 902هـ / 1496-1497 م]، والشمأخي، وحتى الوزير السراج (الحلل، 289 وما بعده) وكان يكتب سنة 1137هـ / 1724-1725 م)، ينقلون عنه مباشرة إلا أن تاريخ ابن الرقيق، في أيامنا، يبقى في الواقع مفقودا، على الرغم من الإشارة بلانقطاع إلى وجوده في بعض المكتبات الخاصة بالبلاد التونسية. أما القطعة غير المنسوبة، من تاريخ المغرب، من حكم عقبة بن نافع إلى عهد إبراهيم الأول، والتي هي ناقصة الأول، منعدمة اللصاق، وقد وقع اكتشافها في الرباط على يد السيد المنوني، ونشرها بتونس (1968) السيد الكعبي، ونسبها إلى ابن الرقيق، فصحتها مشكوك فيها. ونسجل أخيرا قصد الاستعمال الحسن للمقاطع المأخوذة من ابن الرقيق، أن أثره، على الرغم من أنه مجموع أو مؤلف بكثير من الوعي والعناية، تطبعه ميول صاحبه الشيعية، وهو ما يبدو أن الجامعين الذين احتفظوا لنا بقطع مطوّلة منه قد نسوه أو أهملوه.

ويبدو أن ابن الرقيق، الذي قام سنة 388هـ / 998م. باسم الأمير الزيري باديس بمهمة دبلوماسية لدى أمير مصر الحاكم، حسب قصيدة احتفظ بها ياقوت (المصدر المذكور أعلاه، 222-224) قد أقام مدة طويلة بالقاهرة التي يتغنى بملاذنها في حنين أخاذ. ونذكر ضمن آثاره التي لم تقع الإشارة إليها بعد : كتاب النساء، والراح والارتياح، والأغاني، ونظم السلوك في مسامرات الملوك.

البيبلوغرافيا : ذكر المصادر بروكلمان I. Brockelman، 161، الملحق 1، 252؛ آمري Amari تاريخ مسلمي صقلية Storia، ط. نالينو Nallino، 1933، 39؛ الزركلي الأعلام، ط. 2، 51-52هـ. ر. إدريس H.R. Idress، بلاد البربر الشرقية تحت حكم الزيريين Zirides، 1، XIV و 81-82. وأفضل نص يترجم لابن الرقيق هو نص ياقوت، معجم الأدباء ط. القاهرة، 1936، 216-226.

وفي تاريخ ابن شدّاد (١) وذكر شدة ما انتهى إليه حال القرية
إيام استيلاء على بن إسحاق المودني عليها قتال . أخيراً أُرِيدَ عيد الله
محمد بن البراء المهدي وقد وصل إلى دمشق في هذه السنة يسي
سنة اثنين وثلاثين (٢) وخمسائة قال فأنشأه عن أصول القرية
قتال : هلك البلاد وغرب البلاد ثم قال : وسأخبركم ببعض ما تستدل
به على الحال : لما نزل على بن إسحاق على منزل بأشور من الجزيرة وهو
على بعض يرم من تونس سألته أهله الأمان فأمّنهم ودخل عسكره
إلى المنزل المذكور فأنشروا جميع ما فيه وسلبوا أهله حتى يأبهم
الذين تواربهم واستدت أيدي البنية وجنّاد الأعراب إلى البنية (٣)
فأخبر أهله إلى التراب ففروا بأجمعهم إلى تونس وولوا بين سوديا
فدخل عليهم لصل الشتاء هناك فأهلكهم البرد والماء ، وأحصى من
مات منهم بترس فكانوا اثني عشر ألفاً . انتهى كلام ابن شدّاد

وفي مياومة الفاضل ابن اليساري (٤) أن الخبر وصلهم في جادى
الأخرى من سنة خمس وثلاثين أن يحيى بن إسحاق المودني وأبا

(١) من أهم مصادر تاريخ تونس من قديم الزمان . وهو من تأليف الصنهاجي محمد بن أبي
الفتح محمد بن أبي الفوارس . في أخبار المغرب واليهود من رجال آخر القرن السادس للهجرة
وقد ما يرسى إلى القصر وبعد به وكان من أمراء الصنهاجيين في دولة صلاح الدين الأيوبي
(٢) سنة ثمانين في بعض النسخ
(٣) في بعض النسخ ثمانين . وفي بعض النسخ : هلك . وفي بعض النسخ : في التاريخ لابن شدّاد - ج
(٤) سنة ٦٢٢ هـ . وفي بعض النسخ : هلك . وفي بعض النسخ : في التاريخ لابن شدّاد - ج

ابن شدّاد

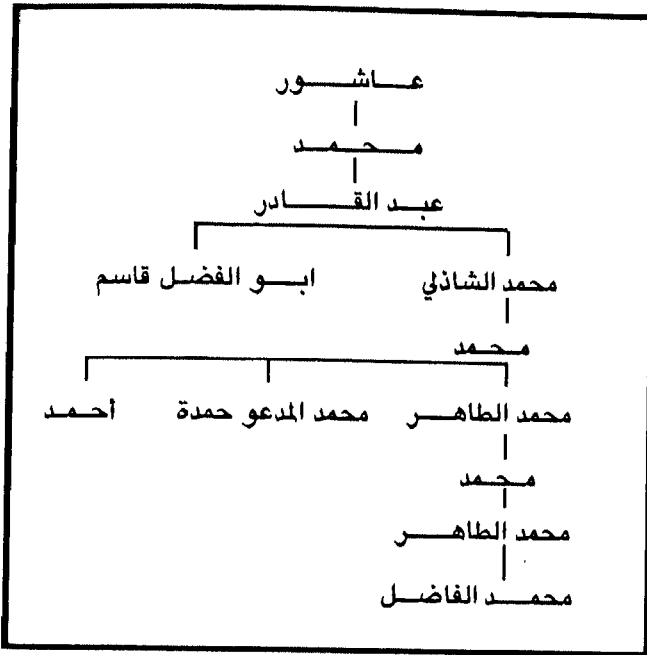
[توفي بعد 582 هـ / 1186 م]

ابن شدّاد، أبو محمد عبد العزيز بن شدّاد بن تميم بن المعز بن باديس
(توفي بعد 582 هـ / 1186 م)، ويسمى كذلك أحياناً أبا الغريب عز الدين
الصنهاجي. إخباري من أصل زيري - فقد كان حفيد تميم (454-
501 هـ / 1108-1062 م) وابن أخي يحيى بن تميم (501-509 هـ / 1108-
1116 م). عاش ابن شدّاد أولاً في حاشية آخر أمراء المهديّة الزيريين،
الحسن بن علي، ويبدو أنّه اتبعه، بعض الوقت على الأقل، لدى الأمير
الموحّدي عبد المؤمن، لما قصده الحسن ملتصاً دعمه له. ويبدو أنّه شهد
بحضوره في بلّرم سنة 551 هـ / 1156-1157 م. وفي النهاية، سافر إلى
المشرق واستقرّ بدمشق، وذلك على أكثر تقدير سنة 571 هـ / 1175-1176 م؛
وكان ما يزال يعيش بها سنة 582 هـ / 1186 م، وتمكّن من الحصول
على شهادة أحد سكّان المهديّة حلّ في هذا التاريخ
بمدينة دمشق، بخصوص أحداث إفريقية (التجاني، الرحلة،
ط، تونس، 14.1958).

استعمل تاريخه - واتجاهه مضاداً للشيعّة (انظر المقرئزي، اتعاض...،
ط. الشّيال، القاهرة، 1948: 47) - ويبدو أن عنوانه الكامل كان كتاب الجمع
والبيان في أخبار القيروان وفي من فيها وفي سائر بلاد المغرب
من الملوك والأعيان، ابن خلّكان وابن الأثير (الكامل، ط. القاهرة،
1938-1939، VI، 125)، والنويري، والمقرئزي، والتجاني (الرحلة - تونس،
1958-14، 15، 341-347) وأبو الفداء. وينبغي أن نعتبر هذا التاريخ مفقوداً

(الشيال، مقدّمة ط. اتّعاظ .. المقرّيزي، ص. كاف) وأن ب. لويس. B.
Lewis (أصول المذهب الإسماعيلي The Origins of Ismā'īlism ،
كامبريدج 1940 ، 57) قد أشار خطأ إلى مخطوطات عديدة منه في مصر
وسوريا .

الببليوغرافيا : أشار إلى المصادر بروكلمان Brockelmann ،
الملحق II ، 575 ؛ آماري Amari ، تاريخ مسلمي صقلية Storia ، ط ، نلينو
Nallino ، 1933 ، I ، 40-41 (وانظر كذلك III 486) هـ.ر. إدريس H.R. Idris [بلاد
البربر الشرقية تحت حكم الزيريين I Zirides ، -XIX - XVIII -



ابن عاشور

[أسرة]

ابن عاشور، أسرة تنتمي إلى الأدارسة، من أصل مغربي، استقرت بإسبانيا المسلمة. يقال إن عاشور، الهارب للمحافظة على دينه، قدم إلى المغرب إثر ذلك واستقر به. ولد ابنه محمد بسلا (حوالي 1030هـ - 1621م)، وبدأت الأسرة، مع محمد ابن عاشور في شقّ طريقها في التاريخ التونسي، في البداية عن طريق «التصوّف»، ثم عن طريق الفقه، والتعليم والخطب الدينية. برز محمد ابن عاشور، وقد أخذ «التصوّف» بالمغرب عن الشيخ محمد القشيري، في تونس بصفته شيخاً لإحدى الطرق. وقد استقرّ بتونس، إثر عودته من الحج، وكان يبلغ حوالي الثلاثين سنة من عمره، وامتهن بها صنع الشواشي. وفي تونس، وقع في البداية تحت تأثير الشيخ علي الزاوي، وقد خلف هذا الشيخ عند وفاته، بصفته شيخاً للطريقة في الزاوية التي تحمل اسمه، وكانت تقع في نواحي باب المنارة، أحد أبواب العاصمة، وقد اندثرت منذ بضع سنوات فقط. لكنّه اتبع في النهاية طريقة أبي الحسن الشاذلي.

وكان لمحمد بن عاشور موقف منكمش، وربما مُعاد، إزاء السلطة، وعاش حياة الفقر الشديد. وتنسب إليه هذه القولة التي لا تخلو من النبل « ما نحن ممن يذكر الله بالكراء والدراهم » (ذيل، 197). وعند موته (1110هـ -

/ 1698 - 1699م)، دفن في الزاوية التي ورثها عن شيخه علي الزواوي.

وخلفه ابنه عبد القادر، الذي بشره به في الحلم المتصوّف الشهير، سمّي ابنه، بصفته شيخا للطريقة. وكان أقل نفورا من أبيه، وعاش في بعض اليسر.

وقد وصف فعلا بأنه شيخ طريقة ميسور الحال يتمتع بنوع من السلطة المعنوية التي يضعها في خدمة جميع الذين يطلبون حمايته، بما في ذلك الذميون من اليهود والنصارى. ولم يكن الدراويش القادمون على حدّ السواء من الهند ومن الشرق يحجمون أبدا عن طرق بابه. ولما كان حسين خوجة بصدد تأليف كتابه الذيل، كان ابن عاشور على قيد الحياة.

وبدأت العائلة، بأبناء أحفاده، أحمد (المتوفى 1255 هـ / 1839 م)، ومحمد المدعو حمدة (المتوفى 1265 هـ / 1849 م)، وخاصة محمد الطاهر (المتوفى 1284 هـ / 1868 م)، تبرز في ميدان العلوم الإسلامية. فدرّس أحمد بجامع الزيتونة الأكبر النحو والفقه. وشغل مهنة عدل موثق، ودفن عند موته في الزاوية الموروثة عن الشيخ علي الزواوي. وتعاطى محمد المدعو حمدة أيضا التدريس. ولما عيّنه الباي أبو العباس أحمد (1253-1271 هـ / 1837 - 1854 م)، من غير رغبته، قاضيا للجيش، لجأ إلى الوزير مصطفى خزندار ليراجع الباي قراره. ودفن هو أيضا في زاوية سيدي علي الزواوي التي يبدو أنها تحولت إلى مقبرة للأسرة.

وكان محمد الطاهر أشهر الإخوة الثلاثة، فبرز في نفس الوقت بصفته أديبا - وقد احتفظ بنماذج عديدة من نشره وشعره - ونحويا وفقهيا. وله حاشية على شرح القطر (وهو أثر بقي أساسا للسنة الثانية من التعليم الزيتوني إلى إصلاح سنة 1958)، وتلخيص لشرح ابن مرزوق لبردة البوصيري. وعين في 25 رجب 1267 هـ / 26 ماي 1851 م، قاضيا أكبر لتونس، وهي خطة تركها سنة 1277 هـ / 1860 - 1861 م. ليشغل خطة الإفتاء. وجمع، بعيد ذلك، بينها وبين نقابة الأشراف. وتوفي في 21 ذي الحجة 1284 هـ / 14 أفريل 1868 م، ودفن في نفس الزاوية التي دفن فيها أخواه.

وتواصلت تقاليد الأسرة في شخص حفيده، المسمّى كذلك محمد الطاهر (المولود في 1296 هـ / 1879 م) [انظر الفصل المخصص له في «دامت» وفي شخص ابن حفيده محمد الفاضل.

الببليوغرافيا: حسين خوجة، الذيل لكتاب بشائر أهل الإيمان، تونس
1908، 192-199؛ محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات
المالكية، القاهرة، 1349 / I، 1930، 392، الرقم 1565؛ أحمد بن أبي الضياف،
إتحاف أهل الزمان، تونس، 1966، VIII، الأرقام 243، 283، 394؛ التاريخ
الباشي، مخطوط دار الكتب الوطنية التونسية، رقم 1794، 316؛ الوزير
السراج، الحلل السندسية، مخطوط تونس، الأحمديّة (الزيتونة)، رقم
6205، و : 98-99؛ محمد النيفر، عنوان الأريب، تونس، 1351 / 1932، 122-
127؛ محمد البهلي النيّال، الحقيقة التاريخية للتصوّف
الإسلامي، تونس 1965-306-307.

الكاهنة مكسب حاله من يروا الى حمار كادبا وجهه في غيرة مله في دفعها
الى اليسر ليلطس منها الكتب ويلطس من راي الحيرة انها اراء الإرجل
مخرجت الكاهنة وهي تقول يا بني ملاككم فيها تلكه الناس بكورت ذلعت
ومضى الرسول حتى ادم على حمار بالكتاب فيه علم ما يمان اليه . قسم
كتب اليه كادبا اعرجه في قريتين حلو وضع الكتاب فيه والمطبق
عليه حتى انتهى وعلى كتابه فخرجت الكاهنة ايضا وهي تقول يا بني
ملاككم في خود من سلت الاراض مست مكررب ذلك ومضى حتى لا دم
على حمار فهدت اصحابه ثم فرما لها مبرجها اليها خرجت بالسرعة فحسوها
فقلت يا بني انظروا ما ذا يرون في الحساء قالوا يرى شيئا من سمات اجور
قلت لا والهي ولكنها رجع جبل اللوب ثم قلت كعاد من يرمه ابي اعدا
كنت سبيك مثل هذا اليوم انا مغرلة بالميكف بالمرتك فدون حسرا
عدا حاله ابي انا الى كل ما ففولين هذا لا يستيقا فليت . ملي ويكروين
اعدما ضد الحرب اعظم شأنا به اليوم فانطلق معه لهما انايا وانطلق حاله
فماي حمار فعدوا معا واحدا لانيها انايا . وكان مع حسان جانية من
البربر من الشرقي لمطم حسان . لا كسرس ادي الكاهنة وقرب
ومضى حسان ومن معه فلفي الكاهنة في اصل حمار فلفيت ويدته من
سها فسيت يترد الكاهنة . وكل فقل الكاهنة ...
قال ثم جم الى خدمت تنال برة قال ثم اصرف حمار فقل مبرج

حسان بن النعمان الغساني

[توفي بعد 80 هـ / 699 - 700 م]

حسان بن النعمان الغساني، قائد أموي لعب دورا حاسما في دعم غزو إفريقية باحتلال قرطاج والتغلب في النهاية على الكاهنة [انظر الفصل المخصص لها في « دامت »]. إلا أننا نصطدم في تتبع أعماله، بقلة الضبط الزمني، وبعديد التناقضات. والتواريخ المقدمة لوصوله إلى إفريقية هي : محرم 68 / جويلية - أوت 69687 / 688 73 689 / 692 - 693 / 74 - 693 -

694 / 78.697 - 698 ، ولعزله : 695 / 76 696 697 / 78.697 - 697 / 79 ، 698

699 / 82 ، 701 - 702 / 84 ، 703 - 704 ، 89 هـ / 707 - 708 م. والتاريخ الزمني الذي أثبتته أقدم الإخباريين أي ابن عبيد الحكم وابن قتيبة المنحول، والذي أكدّه ابن عساكر، هو التاريخ الأقرب إلى المعقول. فهو يتماشى والتتابع المنطقي للأحداث ويسمح بتجنب التناقضات .

لقبي زهير بن قيس البلوي [انظر الفصل المخصص له] حتفه سنة 69 هـ / 688 - 689 م، وهو يقاتل الروم بعد انسحابه من إفريقية. ولم يتمكن عبد الملك بن مروان المشغول بصراعه للخليفة - المضاد عبد الله بن الزبير، من أن يعوّضه على الفور بخلف. ولكن، سنة 73 هـ / 692 - 693 م، هزم ابن الزبير وقتل، واستؤنفت الحرب مع البيزنطيين . وهكذا فهذا التاريخ هو بلا شك الذي أرسل فيه حسان مع جيش قوي لإعادة غزو إفريقية. وبعد أن استولى على قرطاج واجتاحها، وركب سكانها البحر إلى صقلية، طارد الروم وحلفاءهم البربر في جهة

بنزرت. وبعد أن قهرهم من جديد، قذف بالروم إلى باجة (= فاغا vaga) حيث تحصنوا، وبالبربر إلى بونة. وإثر توقفه بالقيروان، سار لقتل الكاهنة. وجانب قلعة المجانة دون مهاجمتها وذهب ليتعرض إلى انكسار كامل على ضفاف المسكيانة. واضطر وقد طورد والسيف يتهدهده إلى قابس، إلى الانسحاب من إفريقية، وذهب لينتظر أوامر الخليفة بقصور حسّان، على أربع مراحل شرقي طرابلس، وقد سميت كذلك للتذكير به .

وقد سبب سقوط قرطاج انفعالا كبيرا ببيزنطة. فأرسل الامبراطور ليونتيوس Léontius الذي أطاح بجوستنيان الثاني Justinien II سنة 695 م، البطريق جان Jean مع أسطول قوي لاستعادة المدينة، وذلك بالتأكيد بعد جلاء حسّان عن إفريقية. وقد بقي حسّان ثلاث سنوات في البلاد الطرابلسية. ثم عاد إلى الهجوم بجيش جديد، سنة 78 هـ / 697 - 698 م. حسب المرجح، وبدعم من بعض جماعات البربر الغاضبين من سياسة الكاهنة. وهُزمت الكاهنة ولقيت حتفها في المعركة. ثم وقع الاستيلاء، من جديد، على قرطاج التي أخليت في الوقت المناسب من المدافعين عنها، وتم اجتياحها. وعاد حسّان بعد أن عزله عبد العزيز بن مروان - شقيق الخليفة وحاكم مصر - وعوّضه بمولاه موسى بن نصير (صفر 79 / أفريل - ماي 698) إلى المشرق . وعند مروره بمصر، وقع افتكاك جميع الغنائم التي جمعها بإفريقية منه. وتوفي وهو يحارب الروم سنة 80 هـ / 699 - 700 م .

وتسجل حملات حسّان الدعم النهائي للغزو العربي. ويعود إليه فضل تأسيس دار الصناعة [انظر الفصل المخصص لها] بتونس، بأمر الخليفة المهتم بتكوين أسطول قوي، وإعادة بناء الجامع الكبير بالقيروان بمواد أمتن . وقد حاول أيضا، وهو يقلد في ذلك الجهد المبذول آنذاك في المشرق، أن يجهز إفريقية بإدارة ناجعة، ولكي يضمن محالفة البربر وولاءهم، جعلهم يشاركون في الفياء، وبصفة خاصة في تقسيم الأراضي .

الببليوغرافيا : ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية، نشر وترجمة أ.غاتو. Gateau، الجزائر، 1948، 76-87 ، والهامش 97 لليعقوبي، تاريخ، بيروت، 1960، II، 277؛ البلاذري، فتوح، القاهرة، 1932، 231؛ ابن قتيبة (منحول)، كتاب الإمامة والسياسة، القاهرة، 1904، 97.

102 (وحول هذا الأثر، انظر هـ . بيريس > H. Pérès ، كتاب الإمامة Le...
 Kitab al- Imàma في كراسات تونس ، C.T. ، 1934 ، 317 - 335) ؛ ابن عساكر ،
 تاريخ دمشق ، IV ، 1332 ، 146 - 147 ؛ ابن الأثير الكامل ، القاهرة ، 1357 ، IV ، 146
 - 147 ؛ ابن الأبار ، الحلة ، تح . م . ج . مولر M.J.Müller ، في
 دراسات في تاريخ المغرب العربي - Beiträge zur Geschichte der Westli-
 chen Araber ، مونيخ 1878 ، 253 ، (تح . حسين مؤنس ، القاهرة ، 1963 ، 164 I
 II ، 331 - 332) ؛ ابن عذاري ، البيان ، تح . كولان ولفي
 بروفنسال Colin et Lévi- Provençal ، ليبدن Leyde ، 1948 ، I ، 34 - 39 ؛
 النويري ، ملحق بتاريخ البربر L'Histoire des Berbères ،
 ترجمة دي سلان De Slane ، باريس ، 1925 I 338 - 343 ، ابن
 خلدون ، العبر ، بيروت 1958 ، I ، 453 - 454 ، IV ، 401 ؛ ابن خرداذبه ، المسالك ،
 نشر وترجمة الحاج صادق ، الجزائر ، 1949 ، 5 ، والهامش 45 ؛
 المقدسي ، أحسن التقاسيم ، نشر وترجمة ش . بلا Ch.
 Pellat ، الجزائر ، 1950 ، 63 ؛ البكري ، المسالك ، ترجمة
 دي سلان De Slane 22 - 23 ، 52 ، 82 - 85 الإدريسي ، نزهة ، تح . هـ .
 بيريس H. Pérès ، الجزائر ، 1957 ، 90 ؛ التجاني ، الرحلة ، تح . ح . ج .
 عبد الوهاب ، تونس ، 1960 ، 249 ؛ المالكي ، رياض ، تح . ح . مؤنس ،
 القاهرة 1951 ، 38 - 31 ؛ ابن ناجي ، معالم I ، 54 ، 63 ؛ م . آماري M.Amari ،
 تاريخ مسلمي صقلية Storia dei musulman di Sicilia 1854 - 1872 I ، 118
 121 ؛ ش كورتوا Ch. Courtois ذخائر قرطاجنية وأسطورة
 كارولنجية Reliques carthaginoises et légende carolingienne . في المجلة
 التاريخية Revue Historique 1945 ، 69 ؛ ش ، ديبل [Ch.Diehl] أفريقيا
 البيزنطية l'Afrique Byzantine ، باريس ، 1896 ، 581 - 587 ؛ هـ فورنال H. Fournel ؛
 البربر Les Berbers ، باريس ، 1875 ، I - 207 - 224 أ - ف ، غوتيي E.F.Gautier ،
 ماضي إفريقيا الشمالية Le passé de l'Afrique du Nord ، باريس ، 1952 ، 270 - 272

معركة الأيمان في معرفتنا أهل القيروان

صنفه
الجزيني، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي، الدباغ
(١٦٤ - ١٦٦ هـ)

أحسنه وعلق عليه
أبو الفضل أبو التمام بن موسى بن أبي السهمي
(٨٢٩ - ٨٣٩ هـ)

الجزء الرابع

الدباغ

[605 - 699 هـ / 1208 - 1300 م]

الدباغ، هو أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن علي بن عبد الله الأنصاري الأسدي. ولد سنة 605 هـ / 1208 م. وتوفي في سنة 699 هـ / 1300 م. وكان حسب قول العبدري - الذي أدلى بشهادة عيان لو طر كان يقضيه بدون شك - فريد عصره بين علماء القيروان. وإذا ما اعتمدنا الخبر الذي يقول إنه مدين بلقب الدباغ لتتكرر جد أبيه في زي دباغ جلود قصد الإفلات من مهام القضاء، فإنه يكون منتسبا إلى أسرة عريقة من فقهاء القيروان. وقد كان العبدري، الذي زاره في سنة 688 هـ / 1289 م. وحصل منه على إجازة عامة في كل تأليفه، يثني على كرمه وحسن هيئته وطيب معاشرته وصفاء ذهنه وسعة معارفه. فقد كان متضلعا في جميع العلوم الإسلامية التقليدية، وكان يقرض الشعر، وكان متقدما في علوم الحديث. وقد أخذ عن كثرة من الشيوخ (يزيدون على الثمانين). وخصهم - على سنة عصره - بـ «برنامج» أو دليل لم يصل إلينا. وألف مصنفًا في الحديث سماه كتاب الأحاديث الأربعين في عموم رحمة الله لسائر العالمين، وكتابه في التاريخ بعنوان تاريخ ملوك الإسلام، وكتابه في المناقب سماه «جلاء الأبصار في مناقب الأنصار». ولم يصل إلينا أي واحد من هذه المؤلفات. لكن شهرة الدباغ تعود إلى كتاب الطبقات الذي خص به العلماء والأولياء الصالحين الذين عاشوا بالقيروان أو زاروها. وقد رتبته ترتيبا يعتمد التدرج الزمني لتواريخ الوفيات. وقد كان عنوان هذا الكتاب فيما ذكره العبدري معالم الإيمان وروضة الرضوان في

مناقب المشهورين من صلحاء القيروان. وهو يتألف من مجلدين وكان الدبّاغ يقتبس كثيرا من مؤلفات سابقة، ولاسيما طبقات أبي العرب ورياض النفوس للمالكي. وقد جرت مراجعة كتاب الدبّاغ بدوره والتوسّع فيه من قبل إبراهيم العوّاني (المتوفى حوالي سنة 719هـ / 1320م). أولاً، ثم وبالأخص من قبل قيرواني آخر وهو ابن ناجي الذي أكمل الكتاب بإضافة أخبار حياة علماء عصره وبالتدخل في ثنايا النصوص التي سبقته بزيادة ملاحظاته الشخصية التي يستهلّها في الغالب بفعل «قلت». وبذلك فإن مصنف الدبّاغ لم يصل إلينا إلا في هذا الشكل النهائي — أربعة المجلّدات — الذي صاغه فيه ابن ناجي بعنوان معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. وهذا الكتاب هو في الحقيقة مؤلف جماعي يحيي أمام أنظارنا — بواسطة النوادر والأخبار والعبر المقدّمة في شكل طبقات متتالية — عالم الصلّاح والفقه الشديد التنوّع.

وكانت الطبعة المنشورة بتونس (سنة 1320 - 1325هـ) كثيرة الضعف والرداءة. وقد أعاد طبع الكتاب بأسلوب أقرب إلى الطريقة النقدية الأستاذ إبراهيم شبوح (مجلّد I القاهرة، 1968). لكنّ هذه الطبعة وقفت عند حدّ هذا الجزء الأوّل. ويبدو أنه ليس من المتوقّع صدور بقية الأجزاء.

وقام الأستاذ محمد الحبيب الهيلة من جهته بوضع فهرس مفيدة جدّاً، غير أنها بقيت من سوء الحظّ مسحوبة بالآلة الراقنة وقليلة الانتشار. وينبغي أن نضيف أنّ الدبّاغ قد دفن بالقيروان بجوار باب تونس في تربة أجداده التي كان يطلق عليها اسم سلسلة الذهب. وقد كان فعلاً سليل أسرة من مشاهير الأنصار.

المراجع: العبدري، الرحلة المغربية، تح. م. الفاسي، الرباط، 1968، ص 66-72: ابن ناجي، المعالم، ج IV: ص 89-92، الوزير السراج، الحُلّ، تح. م. ح. الهيلة، تونس، 1970، ج I، ص 262-270 (ينقل بالخصوص ما كتبه العبدري) ر. برانشفيك، الدولة الحفصية، باريس، 1947، ج II، ص 382-383.

وهنا ستركب كسلا من ازم ما وثير لثقاله ويخرج اليه لافضل لثقاله كسلا ومن
معه لم يصوب زهير لثقاله الى بركة. ويقال بل حسان بن النعمان الذي كان
وجه زهير بن قيس والله اعلم. وكان عذرا كسلا كما حدثنا يحيى بن بكير
الليث بن سعد في سنة أربع وخمسين.

حسان بن النعمان. - تم قدم حسان بن النعمان واليا على المغرب
امره عليها عبد الملك بن مروان في سنة ثلث وخمسين لمضى في جيش كبير
حتى نزل الموالس واجتمع اليه بها من كل هرج من الرقبة والمسالس
فرجع على عدده عبيد بن ابي بكر وطلح بن كيسان والزبيري بن قيس
ودفع البلاد واسباب غلام كفرة. وخرج الى مدينة قرطاجنة ولها السرم لم
يصب فيها الا ليل من حلقهم. بالصبوب رجز الكافة ومن اذ ذاك ملكة
البربر وقد بلغت على جل افرقة فلقبها على عيسى اليوم هو السلا
فاقتلوا قتالا عظيما فهربوا وقلعت من اصحابه وابرت منهم قبايل رجلا
واثنت حسان وذل من كاهن الى الطائفة ابا صالح وكانت الطائفة والرعية
فصروا حسان واستطاع على الرقبة ابا صالح وكانت الطائفة والرعية
ورقبة الى حد اجدادها من حسان.

فاثنت الكاهنة لسان من اسرته من اصحابه وارسلهم الا رجلا منهم من
بقي ليس يقال له خالد بن يزيد فبنته وامام بها. جمعت حسان الى عاتق
رجلا مائة قتال له ابن حسان يقول لك ما يستك من الكذب اليها بغير.

الكاهنة

[القرن الاول هـ / السابع م]

كانت الكاهنة في مواجهة حسان بن النعمان [انظر الفصل المخصص له
في دامت]، روح المقاومة البربرية للغازين العرب، إثر انهيار سلطة الروم
الرسمية المسجل بسقوط قرطاج (73 هـ / 692-693 م) .

وشخصيتها الحقيقية - وينبغي أن تكون إلى ما نذكر كثيرة التعقد - يعسر
حصرها لاسيما أنه لا يمكننا الحصول من ملامحها الحقيقية إلا
على الانعكاس المحرف عبر زجاج الأسطورة. فمأذا
نعلم عن حياتها الخاصة ؟ إن الاتفاق لم يحصل حتى على اسمها
الحقيقي، إذ أن الكاهنة ليس سوى لقب أطلقه عليها
العرب. فيبدو أنها سميت دهيّة - ويذكر ابن خلدون (ترجمة دي
سلان De Slane، البربر I، Berbères، 172) قبيلة بربرية تعرف كذلك
بهذا الاسم - ويمكن ألا تكون دهيّا، أو دميّة، أو داميّة أو
داهيّة، أو دحيّة سوى اختلافات في الرسم ويسجل نفس التردد
في شأن نسبها، فيبدو أنها ابنة تاتيت، أو كذلك ماتيا (« ماتياس،
ماتيو Mathias, Mathieu ابن تيفان « تيوفان Téophane) . فهل تكون الكاهنة
من هؤلاء البربر ذوي الدّم المختلط، الناشئين عن زيجات مختلطة ؟ وقد
يساعد ذلك على تفسير النفوذ الذي كان لها لعل مواطنيها وحدهم بل
وعلى البيزنطيين أيضا. وهذا الافتراض معقول لاسيما أن عددا من
العلامات الأخرى تؤكده. فقد تزوّجت الكاهنة نفسها - فيما يبدو -
يونانّيّا. وكان لها بالفعل، كما يؤكّد لنا، ابنان : أحدهما بربريّ النسب،
والثاني من أب يوناني. وكانت أيضا، على عكس ما ظنّ، مسيحية العقيدة

لا يهوديتها. ومن المؤكد أن قبيلتها جراوة، وهي فرع من زناتة التي ترتبط بدورها بالبُترذوي المعيشة البدوية والرعوية خاصة، قد اعتنقت في البداية اليهودية، لكنّها تحوّلت، فيما بعد، مثل قبائل أخرى كثيرة، ومن ضمنها نفوسة مثلاً، إلى المسيحية. وحين دخلت الكاهنة ركح التاريخ، كانت أرملة ومتقدمة في السنّ جدّاً بالتأكيد. وتمنحها الأسطورة 127 سنة من العمر، قضت منها 35 ملكة على الأوراس حيث كانت قد تأسّست بعد منذ سنة 477 م بفضل ثورة مظفّرة على الوندال، مملكة بربرية مستقلة أولى يحكمها يابداس Iabdas. وكانت، مثل هذه «الملكات العربيات» اللّائي يذكرهن ت. فهد (الكهانة العربية - La Divina tion arabe، 98) بلا شك «مجنوبة». وفي وقت الوحي، كانت تدخل في انفعال كبير، وتنفس شعرها وتدنّق على صدرها. وهكذا كانت تستخدم أيضاً تقنيات أكثر كلاسيكية في ميدان الكهانة، مثل قراءة المستقبل في الحصى، ولا شك أنها تدين بقسم كبير من نفوذها إلى مواهبها التنبؤية. وقد رفعت الكاهنة القفّاز الذي ألّقه كُسيّلة [انظر الفصل المخصّص له في «دامت»-] وكان جنّد خاصة البرانس الحضريين. وفي مرحلة أولى تمّ لها النصر. وبعد أن انتزع حسان بن النعمان [انظر الفصل المخصّص له] قرطاج ودمّر القوات البيزنطية المنظمة، توجّه نحو الأوراس، قلعة المقاومة البربرية. وبعد أن جمع قواته على ضفاف المسكيانة، انطلق في الهجوم. وفعلت الكاهنة مثله، بعد أن دمرت بجاية، وكانت حسب المرجح، عاصمتها، رغبة في منعها من السقوط المحتمل في أيدي المعتدين. ودارت الموقعة الحاسمة على ضفتي وادي نيني، غير بعيد دون شك عن المحطة التي تحمل نفس الاسم والتي توجد اليوم على 16 كلم جنوبي عين بيدة على السكة الحديدية المؤدية إلى خنشلة. وكانت المعركة نكبة على حسان حتى أن الوادي الذي شهدها لم يسمّ لدى العرب، ولمدة طويلة سوى نهر البلاء، أو كذلك، ولأسباب أقل قابلية للتفسير، وادي العذارى. وعرفت هذه الحملة المشؤومة بالنسبة إلى حسان نهايتها في أرض قابس خلال معركة أخيرة ألقت بالغازين خارج إفريقية.

وتلقّى حسان الأمر بالتوقّف عن الانسحاب على أربعة مراحل شرقي طرابلس حيث أقام معسكره (قصور حسان) وانتظر ساعته. ووسعت الكاهنة في سيطرتها، لكنّها لم تمدّ نفوذها بلا شك مثملاً تؤكد بعض المصادر (ابن عذاري، البيان، 36، I، النويري، نهاية، دي سلان De Slane، البربر Berbères، I، 340) إلى كامل المغرب، ولا

حتى إلى كامل إفريقية . وعاملت الأسرى العرب معاملة حسنة وتبنت من بينهم، بفضل طقس الإرضاع المصطنع البربري، قائدا ذا نفوذ، هو خالد بن يزيد - ويسمى كذلك يزيد بن خالد - وينسب إليه دور التجسس لصالح حسان . فهل كانت ترغب في إحداث علاقات طيبة مع العرب ، وحملهم على التخلي عن مراميمهم التي كانت بلا شك مطلعة عليها بوسائل أجدى من الكهانة، و من المرجح أن فشل هذه السياسة هو الذي حملها بعد استنفاد جميع الوسائل على اتخاذ قرار جذري ثقيل العواقب : تخريب البلاد، متبعة في الجملة، أمام عدو عنيد، طريقة « الأرض المحروقة » وكانت بعد، سنة 539، طريقة سليمان في مواجهة الملك يابباس Iabdas المتحصن في الأوراس (ش. ا. ديفورك Ch.E.Dufourcq، بلاد البربر وايبيريا ... Berbérie et Ibérie، في المجلة التاريخية Revue Historique، الكراس 488 ص. 300 وينقل عن بروكوب Procope. وقد سبب هذا التخريب مناقشات طويلة. وينكره بعض المؤرخين العصريين. كما أن الإخباريين العرب بالغوا فيه بلا حد. وفي الواقع، يبدو أنه لا يمكننا بصفة معقولة إنكاره، ولا إعطاؤه أبعاد كارثة حقيقية. ولم يكن يتعدى بلاريب إطار بعض المناطق من إفريقية، لكنه رغم ذلك كان هاما إلى درجة تكفي لإغضاب أقسام واسعة من السكان الحضريين، فحين لم يبحث هؤلاء السكان عن ملجأ في الجزر المتوسطية، وحتى إسبانيا، رضخوا للتماس تدخل حسان . وغزا حسان الذي كان مطلعاً على تطور الوضع وقد تلقى مددا، من جديد إفريقية، سنة 78 هـ / 697 - 698 م (التاريخ غير ثابت)، وفي هذه المرة دون شك بدعم بعض الفرق البربرية الغاضبة من سياسة الكاهنة. ومن ذلك الحين، لم يبق للأهالي قضية مشتركة. وبدأت ريح الهزيمة من ذلك الوقت بالتأكيد تهب على الأوراس، وهذه الرياح بلا شك عند تخللها لشعر الكاهنة المنشور في شطحتها، قد أوحى إليها، وهي فريسة الاضطراب والعصبية تلك التنبؤات المندرة التي لم تكن سوى إنذارات يائسة، والتي نقلت لنا باعتبارها من الوحي. ووقع الصدام الأول في جهة قابس، ولم يكن مواتيا للكاهنة. وهنا ينبغي أن نضع منطقيا الواقعة المساوية، التي تبدو غير معقولة ولكنها حقيقية حسب المرجح، وتقدم لنا « الملكة »، وقد أصبحت واثقة من هلاكها، تنصح أبناءها بتغيير المعسكر في الوقت المناسب. وأسرعت، هي نفسها، وقد تعقبها حسان، للجوء إلى جبال الأوراس. ودارت المعركة الأخيرة في مكان يسميه المالكي (رياض، 36، I) طرفه، وليست طبرقة - ويثبتها البكري (المسالك ،

57، (الترجمة 121)، وابن ناجي (معالم، I، 61) وابن أبي دينار (المؤنس، 35) - بدون أدنى شكّ سوى تحريف في الرسم. وفي هذا الموضع، أي على الأرجح في مخرج جبل نشار على بعد ما يقارب 50 كلم شمالي تُبنة، خاضت الكاهنة معركتها الأخيرة في تلاحم ظلّه الطرفان، كما أثبت لنا، تلاحم الإفناء، قبل أن تسقط قتيلة بجانب بئر سُمّيت طويلا باسمها. إن عزم الكاهنة وحزمها قد أثرا أيما تأثير، ويرى فيها بعض المؤرخين المحدثين نوعا من جان دارك Jeanne d'Arc بربرية (دو لارتينغ de Lartigues، دراسة أحادية monographie، 182).

البيبلوغرافيا - المصادر (حسب الترتيب التاريخي) :
 ابن عبد الحكم، فتوح، تح. وترجمة أ. غاتو A.Gateau، الجزائر، 1948، 76-
 78؛ البلاذري، فتوح، تح. رضوان محمد رضوان، القاهرة، 1932، 231.
 المالكي رياض، تح. ح. مؤنس، القاهرة، 1951، I، 32-36؛ البكري المسالك،
 تح. وترجمة دي سلان De Slane، باريس 2، 1965، النص 87، 20، 31، 57، 145،
 182، الترجمة 22-23، 48، 69، 121، 277، 340؛ ابن الأثير، الكامل،
 القاهرة، 1357 / 1938-1939، 31-33؛ ياقوت، في نيني؛ عبید الله بن
 صالح بن عبد الحليم، فتح العرب للمغرب، تح.
 ألفي بروفنسال E.Lévi Provençal، في مجلة RIEEI،
 مدريد II، 1954، 222-223 (الترجمة في أرابيكا Arabica 40-41؛) ابن
 الرقيق (منسوب إليه)، تاريخ، تح. م. الكعبي، تونس
 1968، 55-64؛ ابن عذاري، البيان، تح. ج. س. كولان G.S.Colin و أ.
 ليفي بروفنسال E.Lévi Provençal، ليدين Leyde، 1948، I، 35-38؛
 التجاني، الرحلة، تونس، 1958، 58؛ النويري، نهاية،
 ترجمة دي سان De Slane في البربر Berbères،
 الجزائر، 1852، I، 340-342؛ ابن خلدون، العبر، بيروت
 1959، VI، 214، 218-219، VII، 17-18 (ترجمة دي سلان De Slane)
 البربر Berbères، I، 208-209، 213-215؛ ابن ناجي، معالم، تونس
 1902، I، 55؛ ابن أبي دينار، المؤنس، تونس، 1967، 21، 34-35
 الوزير السراج، الحل، تح. ح. الهيلة، تونس، 1970، I، 533
 - 537؛ المولى أحمد، الرحلة، فاس د.ت. 48-51
 (ترجمة بربروجر Berbrugger رحلات Voyages، باريس،

1846-234-241؛ الورثيلاني، نزهة، الجزائر، 1326/1908-101-104 ؛
ابن أبي الضياف، إتحاف، تونس، 1963، I، 82 - 83 ؛ النصيري،
استقصاء، الرباط 2 / 1954، I، 83-8258.

الدراسات الحديثة : م ، دلأركي M.Dall'Arche، اختفاء
المسيحية وانتشار الإسلام في إفريقيا الشمالية Scom-
parsa del Cristianesimo ed espansione dell Islam nell Africa Settentrionale
1967، 125 - 132 : س. و. بارون S.W.Baron تاريخ اجتماعي وديني
للـ يهود A Social and religious history of the Jews، الترجمة
الفرنسية، باريس، 1961، III، 107 و 323 - 324 ؛ ش. أ. -
ديفورك Ch. E. Dufourcq، بلاد البربر وإيبيريا في
القرون الوسطى : مشكل قطيعة Berberie et Ibérie médiévales : un
problème de rupture في المجلة التاريخية Revue Historique
باريس، 1968، الكراس 488، 297 - 302، 311 ؛ ه. فورنال H.Fournel،
البربر Berbers، باريس، 1875-1881، I، 215-225 ماسكوري Masqueray
، تقاليد الأوراس Traditions de l'Aurès، في نشرة الاتصال الإفريقي
Bulletin de Correspondance Africaine، 1885، 1 / 2 - 80 - 83 ؛ أ. مرسيني
E.Mercier، تاريخ إفريقيا الشمالية Hist.de l'Afrique Septentrionale
باريس، 1888، I، 212 - 216 ؛ دو لارتينغ de Lartiges، دراسة
أحادية للأوراس Monographie de l'Aurès، قسنطينة، 1904، 582 ؛ أ. ف.
غوتيي E.F.Gautier، ماضي إفريقيا الشمالية «Le passé de l'Afrique du Nord»
باريس، 1952، 270 - 280 ؛ ج. مارسني G.Marçais، بلاد البربر
الإسلامية والمشرق في العصر الوسيط La Berbérie musulmane et l'Orient
au Moyen - Age، باريس، 1946، 29، 34-35 ؛ ح. مؤنس، فتح العرب للمغرب،
القاهرة، 1947، 242 - 259 ؛ أ. غاتو A.Gateau، غزو إفريقيا
الشمالية Conquête de l'Afrique du Nord، باريس، 1948، 161 عـدد
506 ؛ أ. ليفي بروفنسال E.Lévi.Provençal، رواية جديدة عن غزو
العرب لإفريقيا الشمالية Un nouveau récit de la conquête de l'Afrique
du Nord par les Arabes، في أرابيكا Arabica، I، (1954) 32-33 هـ.ز. هرشبوغ Z.
Hirschberg الكاهنة البربرية Ha-Kahina ha-berberit، في
تربيـز XXVI، Tarbiz (1957) 370 - 383 ؛ ت. ليفسكي T.Lewicki، الأنبياء
والمتكهّنون والسحرة لدى البربر في القرون الوسطى، Prophètes

devins et magiciens chez les berbères médiévaux
 Folia Orientalia ، 1965 ، VII. ، 4 ، 6 : نفسه، بقاء العبادات القديمة
 والعقائد الوثنية لدى بربر القرون الوسطى في العهد
 الإسلامي- Survivances chez les berbères médiévaux d'ère musulmane de cultes an-
 ciens et de croyances païennes في الورقة الشرقية Folia orientalia ، 1967 ،
 VIII ، 7 ؛ سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب
 العربي، القاهرة، 1965 ، 182 - 195 ؛ م سيمون M.Simon، اليهود البربري
 في إفريقيا القديمة Le judaïsme berbère dans l'Afrique ancienne ،
 في مجلة التاريخ والفلسفة الدينيّين Rev.d'Hist. et de Phil. religieuses ،
 ستراسبورغ، 1946 ، 6 ، 8 ؛ ت، فهد، الكهانة العربية La Divination
 Arabe ، ليدن Leyde ، 1966 ، 92 - 93 ، 97 - 98 ، 100 ؛ م : الطالبي، قطعة
 جديدة من تاريخ المغرب الإسلامي (196 / 682 - 812)، ملحة
 الكهانة Un nouveau fragment de l'histoire de l'Occident musulman, l'épopée
 d'al- Kàhina في كراسات تونس C.T. ، 1971 ، عدد 73.

الله معاوية وقال قد عرفت مكان مسلة، إن نجد من لآلام الظلم وتقليده
أداء وإقامة بدمه ومثل بهجده وقد ردتك على علفك.

وقال ابن معاوية ليس من الذي ردة عن بن داود ولكنه قدم على يزيد
ابن معاوية بعد موت أبيه فزده بالآ على أرفقة وذلك أمح لأن معاوية
لوي سنة شتى. حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير عن الثوري عن سعد
قال يروي معاوية بن أبي سفيان سنة ستين.

فقال عنه بن داود. — ثم رجع إلى حديث عثمان بن عمرو بن معمر بن
عبد بن داود. — بعد نسخة على أبي المهاجر بن فهد أرفقة فلقب أبا
المهاجر في رفاق خديج وأساءه فزده بالآ على أرفقة وذلك أمح لأن معاوية
السوس من البربر يقال لهم أمة (أ) فعول في بلادهم لا يعرف له أحد
ولا يباله وأضرب إلى أرفقة فلما دنا من نعوا أمر أصحابه بالفرار منه وأخذ
لهم حتى نفي في طاء.

فأخذ على مكان يقال له نهضة دعوى له كسيلة (أ) بن لوم في جمع كثير
من الروم والبربر وكان بلد أرفقة السوس من عقبه فاقبلوا مالا جديدا
فعل عليه ومن كان معه وقبل المهاجر ومن في الكوفة ثم سار كسيلة
ومن معه حتى أتوا الموضع الذي كان عليه أعطاه فأقام به ولهم من قرب منه
باب دينس وبأجليه وجعل يبعث أصحابه في كل وجه.

كسيلة (B) 8444 — p. 107، نسخة B : نسخة A : (1)

كُسَيْلَة

[القرن الاول هـ / السابع م]

كُسَيْلَة بن لَمْزَم أو كُسَيْلَة، هو على آثار مسينيسا ويوغرطة، أحد
مشاهير وجوه صراع البربر من أجل استقلالهم. من المؤكد أن كسيلة كان،
سنة 55 هـ 674 م، حين قدم المولى أبو المهاجر دينار من مصر لتعويض عقبة بن
نافع، حاكما على ولاية المغرب التي وقع غزوها حديثا، ملك الأوربة، وهو
حلف واسع لقبائل البرانس التي كان أغلبها حضرا. وكان لأرض أوربة
آنذاك مركز هو جهة تلمسان، بوماريا Pomaria القديمة، وكان يمتد
دون شك من غرب الأوراس إلى ويلة (= فولبيليس Volubilis) إلى شمال
فاس. ولنذكر بأن إدريس الأول قد رفعه إلى الحكم أوربة ويلة. ولأريب
أنه حين تمّ الفتح، كان هؤلاء قد مُسَّحُوا بصفة واسعة. وفعلا، فإن
عاصمتهم تلمسان قد حافظت، حسب شهادة البكري، إلى القرن الخامس
/ الحادي عشر، مع ملامح حضارتها العتيقة، على سگان كثيرين من
المسيحيين. وفي تلمسان، اصطدم أبو المهاجر بكسيلة. وعرف الحكم
الجديد الذي عوّض سياسة القوّة بسياسة المصالحة، كيف يجد حليفا في
ملك الأوربة. واعتنق كُسَيْلَة الإسلام، واستقرّ من ذلك الحين مع أبي
المهاجر في تَكروان، معوّضة العاصمة التي أسسها عقبة بن نافع، والتي
يمثل اسمها، بسابقتها، برنامجا كاملا للحلف العربي البربري.

وانجرّ عن موت مؤسس الدولة الأموية معاوية تغيير في السياسة. فسلك
عقبة، سنة 62 هـ / 681 م، من جديد طريق إفريقية. ولم يكن يحلم إلاّ بالتأثر
والجهاد الكبير. وفي عهده، عادت سياسة إخضاع البربر بالقوّة، بأعنف

مما كانت عليه. وكان أول أعماله أن ألقى بأبي المهاجر في الأغلال، وسجن كُسَيْلَةَ، وأعاد إلى العاصمة، مع اسمها القديم، المكانة التي اختارها لها في المنطلق، خلال فترة حكمه الأولى. وشرع، وهو يجرّ في إثره أبا المهاجر وكُسَيْلَةَ، في زحفه الكبير الذي سيوصله - ولا سبب جدياً للشك في ذلك - إلى المحيط الأطلسي. وفي الطريق، وعلى الرغم من تحذير أبي المهاجر، تفنّن بصفة خاصة في إهانة « الملك » البربري. ونعلم المشهد الأنموذجي الذي وصفته كل المصادر، حيث يجعل عقبة كُسَيْلَةَ، للإمعان في إهانته، يسلم كبشا في حضرته .

وفي مرحلة أولى، يبدو أن الحملة الخاطفة التي قادها بصفة غير متوقّعة للغاية، بما أنها عقت سياسة سلفه في السلم والمصالحة، قد استفادت من مفعول المفاجأة، مما يفسّر على الأقل جزئياً، انتصاراته الأولى الخاطفة. لكن سرعان ما نظمت المقاومة. وبالفعل، فإن عقبة لم ينتزع أي حصن كبير. وتحالف البرانس، أكثر البربر رُومَنَّة، مع البيزنطيين. واتصل الأوربة سرّاً بزعيمهم كسيلة. وفرّ كُسَيْلَةَ، ولا ندري في أي موضع، من عقبة، وتزعّم المقاومة. فهل ارتكب عقبة عملاً متهوراً، وقد وثق بصفة مفرطة في انتصاراته، مثلما تؤكّد جميع المصادر، حين أعاد أكثر قواته إلى القيروان، ولم يحتفظ معه إلاّ بكمشة من الرجال تبلغ ثلاثمائة فارس، حسب ما يروى ؟ أم أنه كان من اللازم إنجاز العاصمة بصفة عاجلة وقد هددها البيزنطيون ؟ أم أنّ الأمر يتعلق بأكثر بساطة بتصرف غير منضبط من الجنود المرهقين بحملة طويلة شاقة ؟ ومهما كان الأمر، فقد وجد عقبة نفسه جنوبي بسكرة، بتهودا (= تابوديوس Thau-deos) في مواجهة كسيلة وكان على رأس جيوش عديدة من البرانس والبيزنطيين، ولقي بها مع جميع رجاله، ومن ضمنهم أبو المهاجر، الميته المحمية العظيمة التي كان يحلم بها، والتي جعلت أسطورتها تخلد. وتمّ تشييد ضريح على موقع المعركة، وهو ضريح سيدي عقبة الذي تحول إلى محجّ مازال إلى اليوم مقدساً .

وفي القيروان، كان الفرع، ممّا يدلّ على أهمية انتصار كسيلة، وخاصة على كثرة قواته. وتغلّبت في نهاية الأمر، فكرة التخليّ عن البلاد، وهي فكرة دافع عنها حنش الصنعاني على فكرة المقاومة التي دعمها زهير بن قيس البلوي. فانسحب الجيش إذن. لكن القيروان لم تفقد كامل سكّانها العرب والمسلمين. فإنها لم تعد بعد مجرد معسكر للجيش، وهذا الحدث

يستحق الملاحظة. ومن سنة 64 إلى 69 هـ / 683 - 688 م، أصبحت عاصمة مملكة بربرية واسعة، يحكمها كسيلة. ويلاحظ ابن عذاري (البيان ، I ، 31) « أمّن كسيلة من بقي بالقيروان من المسلمين، وأقام بالقيروان أميرا على سائر إفريقية والمغرب، وعلى من فيه من المسلمين » فلا كراهية للأجنبي إذن، ولا اضطهاد، ولا تعصّب دينيا. ولنلح على هذا الحدث الذي نقله شهود لم يكن لهم أي سبب للرفق بخصومهم. فقد أكدوا لنا أن كسيلة نفسه حرص على ألا يرتد بعد انتصاره. ومن البديهي أن هذه الاجراءات تتم، عن برنامج سياسي كامل يهدف بالتأكيد، إلى أن ينتزع من العرب كل تعلقة دينية لغزو المغرب من جديد .

لكن موجة الغزوات لم تكن بعد قد انحسرت. فلما هدأت الإزمة التي اندلعت في المشرق بثورة ابن الزبير، اتجه زهير بن قيس البلوي من جديد مع جيش قوي إلى إفريقية. واختار كُسَيْلَةَ، الذي لم يكن واثقا من مؤخرته بالقيروان، أن يذهب لانتظار خصمه في ممّس، على بعد 50 كلم غربي العاصمة، أي في منطقة يمكن للجبل أن يكون ملجأ في حالة الهزيمة. وكانت الموقعة، التي قتل فيها، في غير صالحه. لكن ينبغي أن نعتقد أنها لم تكن حاسمة بالقدر الذي تزعمه المصادر. وفعلًا، فعلى الرغم من أن زهيرا كان منتصرا، فقد فضّل أن يغادر البلاد من جديد، حتى لا ينهار أمام ملاذّ الدنيا، حسب ما قيل. وذهب بدوره ليلقى حتفه، على طريق العودة، ببرقة حيث كان البيزنطيون هجموا من البحر. فهل كان الأمر يتعلق بعملية مدبرة تهدف إلى إيقاع العرب في الفخّ الإفريقي؟ وهي عملية لم تنجح لأنها كانت سيئة التنسيق فلو كانت محاولة كُسَيْلَةَ لتكوين امبراطورية كبرى تحكم من المدينة التي أسّسها عقبة بن نافع نجحت، لكان تاريخ المغرب قد أخذ اتجاها آخر بالتأكيد. لكن هل كان البربر ناضجين لتحقيق مثل هذا الهدف؟ ومع الكاهنة (انظر الفصل المخصص لها في « دامت ») سينتقل مشعل المقاومة إلى البتر، ولكن بلا نجاح دائم أيضا .

الببليوغرافيا : المصادر (مرتبة زمنيا) : ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، نشر وترجمة إلى الفرنسية بصفة جزئية، أ. غاتو A. Gateau الجزائر 1947، 70 - 77؛

- الرقيق (منحول)، تاريخ تحد. م. الكعبي، تونس، 1968، 46 - 52؛
 المالكي، رياض، تحد. ح. مؤنس، القاهرة، 195، 21 - 31
 البكري، المسالك نشر وترجمة فرنسية دي سلان
 De Slane، باريس، 108/50، 23/7 1511497/731965؛ ابن الأثير،
 الكامل، ط. بيروت، 1965، III، 467، IV، 107 - 110، 370 - 372؛ عبيد الله
 بن صالح بن عبد الحليم، نص جديد عن فتح العرب
 للمغرب، تحد. أ. ليفي بروفنسال E.Lévi Provençal، في مجلة
 معهد مصر بمديرية Revue de l'Institut d'Egypte à Madrid، 1954، 220
 (الترجمة الفرنسية في أرابيكا. Arabica، I، 39 - 40)؛
 ابن عذاري، البيان، تحد. ج. س. كولان G.S.Colin وأ. ليفي
 بروفنسال E.Lévi Provençal، ليدن Leyde، 1948، I، 28 - 29؛ النويري، نهاية،
 نشر وترجمة إسبانية بصفة جزئية غاسبار ريميرو Gaspar Remiro
 في مجلة مركز دراسات تاريخ غرناطة ومملكتها Revista del Centro de
 Estudios Historicos de Grenada y su reino، VI، (1916)، 19 - 21؛ ابن خلدون،
 العبر، بيروت، 1959، VI، 216 - 218، 297 - 300؛ ابن تغري بردي، النجوم
 القاهرة، 1963، I، 158 - 160؛ ابن أبي دينار، المؤنس، 1967، 31 - 33
 الدراسات (مرتبة ألفبائيا) : أ. ف. غوتيي E.F.Gautier، ماضي إفريقيا
 الشمالية Le passé de l'Afrique du Nord، باريس، 1952، 237، 266، 267 - 270؛
 ش. أ. جوليان Ch A Julien تاريخ إفريقيا الشمالية Histoire de
 l'Afrique du Nord، باريس، 1956، I، 16 - 20؛ أ. العروي، تاريخ المغرب
 Histoire du Maghreb، باريس، 1970، 78، 81؛ ج. مرسى G.Marçais
 سيدي عقبة وأبو المهاجر وكسيلة Sidi Uqba, Abû-l Muhâjir et Kusayla، في كراسات تونس I، C.T، (1953)، 11 - 17؛ سعد زغلول عبد
 الحميد، تاريخ المغرب العربي، القاهرة، 1965، 152، 166 - 175، م.
 الطالبي، قطعة جديدة من تاريخ المغرب الإسلامي، Un nouveau
 fragment de l'histoire de l'occident musulman، في كراسات تونس C.T، العددان



المعزّ بن باديس

[407 - 454 هـ / 1016 - 1062 م]

المعزّ بن باديس، هو أبو تميم شرف الدولة رابع ملوك دولة بني زيري الصنهاجية التي حكمت إفريقية [راجع هذا الاسم في «دامت»] من سنة 362 هـ / 972 م. إلى سنة 543 هـ / 1148 م. ولم تكن مدّة حكمه تمثل أوج ازدهار هذه الدولة كما ذهب إلى ذلك الأستاذ هـ. ر. إدريس. فإذا ما سلّمنا بوجود فترة تمثل قمة هذا الازدهار فإنه ينبغي أن نجعلها في زمن متقدّم، قبل نزول الطاعون بالبلاد وحدث المجاعة المهولة في سنة 395 هـ. / 1004 - 1005 م، وقد كانا سببا في هلاك خلق كثير من أهالي البلاد. ومنذ ذلك التاريخ، وطوال عهد حكم المعزّ، توالى المصائب والكوارث على إفريقية بدون هوادة، كاشفة عن نقائص نظام اقتصادي غلب عليه الاضطراب وأنهكه الإجهاد. وقد كانت أعوام 409 هـ / 1018 - 1019 م. و 442 هـ / 1022 - 1023 م. و 425 هـ / 1033 - 1034 م. و 432 هـ / 1040 - 1041 م. و 447 هـ / 1055 - 1056 م. جميعها من السنوات الموسومة بعلامة سوداء. (راجع هـ. ر. إدريس، بلاد البربر الشرقية في عهد بني زيري [النصّ الفرنسي] [ج I ص 149، 161، 227، 274، 293])

وقد عمد الرّواة ومدوّنو التاريخ من أهل السنة إلى إدخال كثير من الغموض ومن التزويق على ملامح المعزّ، وجعلوا منه، في عصر متأخّر عن زمانه، رجلا من السّنة كان منذ نعومة أظفاره أسيرا في قبضة

الشيعة. فبقي المعزّ يمثل في تاريخ إفريقية الرجل الذي حُقّق ردّ الاعتبار إلى المذهب المالكي القويم وأقام صرحه من جديد بهذه الرّبوع ، ممّا أدّى مباشرة إلى حصول « كارثة » زحف بني هلال على البلاد. وقد مات أبوه باديس [راجع هذا الاسم] فجأة ليلة الهجوم النهائي على القلعة التي كان عمّه حمّاد قد ابتناها في سنة 398 هـ / 1007-1008 م. وقد أدّى موته المباغت(في 30 ذي القعدة سنة 406 هـ / 1010-5-1016م) إلى تكريس تقسيم مملكة بني زيري نهائيا لصالح فرع الحمّاديّين (405-547 هـ / 1015-1152م) .

وكان الأمير الشاب - الذي لم يكن قد بلغ بعد التاسعة من عمره عند موت أبيه - يقيم بالمهدية [راجع هذا الاسم في « دامت »]. وقد تسبّب ذلك في وضعية دقيقة لم يتمّ التغلّب عليها إلّا بجهد جهيد وباللجوء إلى الحيلة والمخادعة. (راجع هـ. ر. إدريس، بلاد البربر الشرقية في عهد بني زيري، ج 1، ص 128 - 130). على أنّ تنصيبه قد تمّ مع ذلك يوم 21 أو 23 من شهر ذي الحجة سنة 406 هـ / 31 ماي أو 2 جوان سنة 1016 م. بدون حصول منازعة. ويقال إنّه كان أسمر أسفع اللّون. ويجمع الرواة على اتصافه بذكاء حادّ و بثقافة جيّدة لا يمكن أن يكون قد اكتسبهما إلّا فيما بعد. وفي الشهر الموالي غادر المعزّ مدينة المهديّة وحلّ في أواسط المحرم من سنة 407 هـ / 24 - 6 - 1016 م. بعاصمته المنصورية [راجع المقال في « دامت »] التي كان أسّسها الخليفة الفاطمي المنصور حوالي سنة 336 - 337 هـ / 947-949 م. على مسافة نصف ميل من القيروان قلعة المذهب السنّي المشاغبة التي كان ينبغي للأمير الجديد ، من باب حسن السياسة والتدبير، أن يؤدي إليها زيارة. وقد آلت هذه الزيارة، في ظروف لا يزال يكتنفها الغموض والإبهام، إلى نشوب حركة تمرّد شديدة ضدّ الشيعة .

ففي يوم 16 من شهر محرم سنة 407 هـ / 25 - 6 - 1016 م. كان ركب الأمير في بادئ الأمر يلقي ما تفرضه المناسبة من ترحيب وهتافات عند اختراقه شوارع المدينة المباركة. وفجأة اندلعت ثورة الجماهير تبعا بالتأكيد لصدور إشارة معلومة أو انطلاق إذن خفيّ متفق عليه لم ينفذ رواة الخبر إلى معناه الحقيقي ، وقد كان الهدف من ذلك القضاء على حياة الأمير الشاب بالذات، ومن خلال شخصه، الإطاحة بالنظام الذي كان أهل السّنة يسعون إلى التخلّص منه نهائيا في كامل أرجاء المغرب الاسلامي،

محاولين اغتنام ذلك الظرف الذي كان يبدو مؤاتياً جداً في نظرهم. أفلم يسبق لحماة الذي أنقذته معجزة موت باديس المفاجيء أن ينكر مقولات الشيعة منذ سنة 405 هـ / 1015 م. وأن يعقد الصلوة من جديد بالخلفاء العباسيين ببغداد ؟ هذا وليس من المستبعد أن يكون متواطئاً سرّاً مع المتمردين، حتّى ولو لم يكن هدفه من ذلك سوى تلهية حكام القيروان عن مهاجمة القلعة من جديد. ويبدو من الثابت أيضاً أن أتباع المذهب السنّي كانوا يحظون بمساعدة بعض المتواطئين معهم سرّاً حتّى داخل صفوف الجيش الرسمي الذي اتّسم موقفه في بادئ الأمر بفتور غريب يدعو إلى التساؤل. أمّا ما أبداه عامل القيروان من خمول وتقاعس بمقدار فإنّه يُعزى ، بطبيعة الحال ، إلى ما قد يكون استروحه من أنباء تتعلق بقرب عزله عن خطّته .

ومهما يكن من أمر فقد تمّ تجاوز طاقة الحرس الأميري والطغيان عليه بسرعة. وبمجرّد نشوب حركة العصيان الجماهيرية عمد المتمرّدون إلى تقتيل الناس عن حق أو عن باطل، تدفعهم إلى ذلك غريزة التّهب والسّلب أكثر ممّا يحفزهم استفظاعهم البدعة والضلال. « وانبسطت أيدي العامة على الشيعة وانتهبت دورهم وأموالهم . وتفاقم الأمر، وانتهى إلى البلدان، فقُتل منهم خلقٌ كثير. وقُتل من لم يُعرف مذهبه بالشّبهة لهم » - (راجع ابن عذاري، البيان ...، ط. ج. س. كولان و أ. ليفي بروفنسال، ليدن، 1948 ، ج I ، ص 268). وقد ذهب بعض الشيوخ الأفاضل الوقوريين من أهل القيروان إلى حدّ العامة على استعجال أمر القتل « فإذا ما كان القتل من أهل السنّة، عجلّ ذلك بدخوله الجنّة » (راجع عياض المدارك، ط. بيروت، 1967، ج IV، ص 625). ولم ينج أبو البهار بن خلوف - الذي كان موضع حقّد الجماهير، والذي سوف يرتقي إلى الوزارة بعد بضعة سنوات - من غضب العامة إلّا بفضل جند ابن أخيه الذي تمّ قتله والتمثيل به بدل عمّه. ثم زحف العامة بعد ذلك على المنصورية فهدموها وانتهبوها بدورها. وشهدت عدة مدن أخرى بإفريقية مذابح لاستئصال الشيعة وقطع دابرهم .

ولم. تحتفظ لنا المصادر التّي بين أيدينا - وجميعها سنّية النّزعة - عن هذه الأحداث إلّا بصورة انتصار عظيم باهر على حركة الشيعة. على أنّ هذه الانتفاضة، مهما كان اتساع مداها، لم يكتب لها النجاح والدوام ولم يكن

لها أثر يذكر. فقد ظلَّ حكم الشيعة قائماً مع الاتّسام فيما يبدو بمزيد من التسامح . ومن البديهي أنّ المعزّ بن باديس - نظراً لصغر سنّه على الأقلّ - لم يكن بإمكانه إبّان هذه الأحداث انتهاج أيّة سياسة شخصية خاصّة به. وقد قام رجال والده الذين احتفظوا بمناصبهم، بتسيير العمليات بدون شكّ. وبعد مرور قُرابة شهر على انطلاق حركة التمرد والعصيان، تمّ في يوم 19 صفر سنة 407 هـ / 28 - 7 - 1016 م. تعيين وزير جديد، وهو أبو عبد الله محمد بن الحسن عامل طرابلس سابقاً. فهل كان في هذا التغيير تنازل من أجل إعادة الاطمئنان إلى النفوس ؟ لكنّ حركة أهل السنّة التي وجدت في تسامح السلطة ماشجّعها بدون شكّ على الاقدام والتّماذي، لم تقلع عن المشاغبة والمقاومة. وكاد المعزّ أن يذهب ضحية مؤامرة جديدة بعد بضعة أشهر وهو في طريقه إلى مصلّى القيروان بمناسبة عيد الفطر في غرة شوّال من سنة 407 هـ . / 3 - 3 - 1017 م. وفي هذه المرّة عازمت الدّولة على تسديد ضربة قاضية تستهدف رأس الحركة. وقد ذكر عياض (في المدارك، ج IV، ص 626) أنّ المعزّ داخله فرعٌ شديد من أهل السنّة و أنّه عزم على كسر شوكتهم من سنة 407 هـ / 14 - 3 - 1017 م، جرت مداهمة أبي علي بن خلدون « شيخ الدعوة » في مسجده حيث كان بدون شكّ يدبّر سير العمليات، وتم قتله. وسرعان ما اندلّع الشغب بالقيروان ، لكنّ السلطة كانت قد أعدّت العدة لذلك ، فلم تُباغتها الأحداث . وقد ذكر عياض (في المدارك، ج IV، ص 626) أنّ جنّد المنصورية من راجلة وحرس سُود ساروا نحو القيروان وعمدوا إلى نهب كلّ دكاكينها حتى لم يسلم من ذلك دكان. وأُحرقت شوارع الأسواق وسُلّبت أموال التجّار وأرزاقهم. وبذلك كسرت شوكة حركة السنّة نهائياً وتخلّصت الدّولة من ذلك السيف المسلول فوق رأسها. وسوف لن يبقى بعد ذلك أثرٌ يُذكر لأيّة حركة شغب مناهضة للشيعة طوال عهد حكم المعزّ كلّّه. وما كاد يمضي على ذلك ثلاثة أشهر حتّى بعث إليه الخليفة الفاطميّ الحاكم من القاهرة بخلع سنّية معبراً له بذلك عن عرفانه، ومنحه لقب « شرف الدّولة » بخطاب مرسوم. واستأنف المعزّ بن باديس من توهّ، ضدّ حمّاد عمّ أبيه تلك الحملة التي انقطعت من جرّاء هلاك أبيه المباغت. وبالرغم عن تحقيق انتصار سالت فيه الدّماء إلى حدّ مهول (في 30 ربيع الأوّل من سنة 408 هـ / 26 - 8 - 1017 م) فقد كانت الحملة ذات تكاليف بشرية باهظة ، وأبرم

اتفاق سلام بين الطرفين المتحاربين - سوف لن ينقضه خليفة حمّاد الملقّب بالقائد إلّا في سنة 432 هـ / 1040-1041 م . وهو يترك كامل القلعة بأيدي الحمّاديين مؤكّداً بذلك إفلات المغرب الأوسط من سلطان دولة بني زيري المرتكزة بالقيروان .

وفي الأثناء استمرت العلاقات على أحسن ما يكون مع الفاطميين . ففي أوائل سنة 411 هـ . (آخر أفريل 1020 م) جدّد الخليفة الحاكم بأمر الله ثقته للمعزّ بن باديس وحباه جزيل النعم وأرسل إليه فيما أرسل من هدايا، سيفاً مرصّعا بنقائس الفصوص. أمّا الخليفة الظاهر (411-427 هـ / 1021-1036 م) الذي آل إليه الحكم اسمياً تحت وصاية عمّته ستّ الملك (المتوفّاة سنة 415 هـ / 1024-1025 م) وهو في سنّ السادسة عشرة، فقد رفع فـي لقبه الشرفيّ وزاده فخامة إذ سمّاه « شرف الدولة وعضدها » مغدقاً عليه العطايا بطبيعة الحال. وقد كان يحكم كلا من مصر وإفريقية عندئذ شابان مراهقان يخضع كلّ واحد منهما لضرب متفاوت من الوصاية .

وقد سبق المعزّ إلى التحرّر من وصاية وزيره أبي عبد الله محمّد بن الحسن الغالب على أمره والقليل التورّع عن ركوب المآثم والشبهات فيما يقال عنه. وإن لم يوفّق في اقناعه بالحسنى وعن طريق الوسائط بالتخلّي عن السلطة، فقد عمّد إلى عزله و أمر بقتله في السابع من شهر ربيع الثاني سنة 413 هـ / 11-7-1022 م. فاتحاً بذلك ، وهو في سنّ الخامسة عشرة تقريباً من عمره ، عهد حكمه الشخصي. واتخذ كوزير جديد أبا البهار بن خلف ، وهو عدوّ لاتباع مذهب السنّة ، وقد كادوا أن يقتلوه أثناء الانتفاضة التي حدثت في سنة 407 هـ / 1016 م. وقد كان في تسمية هذا الرجل دلالة سياسية مزدوجة إذ كان فيها إنذارٌ موجّه إلى حركة السنّة وعربون وفاء نحو الدولة الفاطمية بالقاهرة. وفي نفس السنّة أقام المعزّ مراسم زواجه في احتفالات فخمة .

واستمرّ حكمه هادئاً في الجملة طيلة أكثر من 35 سنة ، أي إلى حدود زحفة بني هلال، بالرغم عن حدوث بعض الثورات التي لم تكن تكتسي خطورة، خصوصاً في جنوب البلاد. وقد كان البناء يبدو شامخاً متيناً. لكنّ تلك القوة كانت مجرد مظهر خارجي. ذلك أنّ أبهة البلاط التي كانت تزداد ضخامة بمدايح ممتلئة التملّق المأجورين، كانت تخفي من ورائها انهيار

الهيكل الاقتصادية التي كانت تشكو تناقص اليد العاملة من العبيد، مع ما ينجرّ عن ذلك التدهور من قحط ومجاعات متكرّرة — وقد أشار رواة الأخبار إلى ما لا يقلّ عن الخمس منها — وما يواكبها من اضطرابات وأوبئة وانهيار في عدد السكان، ولا سيما في الأرياف التي كان يهجّرها أهلها إلى المدن. وعندما أصيبت البلاد في الصميم بغارات زحفة بني هلال فقد كانت بعدُ مُسْتَنْزَفة القوى إلى حدّ بعيد حتّى أضحت عاجزة عن تحمّل الصّدمة أو التقلّب عليها واحتواء أثارها. هذا وأنّ المصاعب الدّاخلية، الدّينية منها والاقتصادية، هي التي دفعت بالمعزّ شيئاً فشيئاً إلى قلب ظهر المجنّ للفاطميّين، مستبدلاً ولاءه لهم — الذي لم يكن يكلفه في الحقيقة سوى واجبات وأعباء ضرورية لا تستحقّ الذكر — بولاء للخلفاء العباسيّين الأبعد لم يكن أكثر كلفة ولا أثقل مؤونة من الأوّل. وقد كان يسعى بذلك إلى استمالة نفوس الحشود الغفيرة من العامة الذين غلب عليهم الفقر، والذين ظلّوا في جمهرتهم أوفياء لمذهب السنّة المالكية. وقد ساعد على هذه القطيعة مع القاهرة، خصوصاً بعد موت الوزير الجرّجرائي (436هـ / 1045 م)، ما كانت تشهده الدّولة الفاطميّة من تفهقر وتراجع. وحصلت القطيعة فيما يبدو على دفعات متوالية وبحسب تطوّر الظروف وتقلّب الأمزجة والنّفوس. وهذا ما يفسّر اختلافاً الرّواة في تحديد تاريخها على مدّة تتراوح في حدود العشر سنوات بين عام 433 هـ وعام 443 هـ / أي عام 1041 وعام 1051 م. هذا وإنّ دراسة النقود تسمح لنا بالتأكيد أنّ هذه القطيعة كانت كاملة ونهائية في سنة 441 هـ. (راجع هـ.ر. إدريس بلاد البربر الشرقية في عد بني زيري، ج 1، ص 190).

وقد تمّ الصّدام الحاسم مع المغيرين الذين رمى بهم إفريقية الخليفة الفاطميّ المنصور بإشارة من وزيره اليـازوري عقاباً على خروج تابعه السّابق عن طاعته وولائه له، بحيدران من منطقة قابس في يوم 1 ذي الحجة من سنة 443 هـ / 14 - 4 - 1052 م. وبالرغم عن شجاعة الأمير الصنهاجي وعمّا كان يميّز به الأفارقة من تفوّق في العدد، فقد تمّ تشتيت شمل هذا الجيش الذي لم يكن يمتلك خطّة قتالية ولا انسجاماً في صفوفه، والذي كان بمثابة جبار قوائمه من طين، تنخر كيانه الصراعات العرقية وغضب الكتائب البربرية على فريق الحرس السّودان الذين كان يبلغ عددهم فيما

يقالُ الثلاثين ألفاً من العبيد. وسرعان ما انهار صرح الدولة الصنهاجية الذي كان قد نخرها السوس من الأعماق تحت ستار المظهر الخارجي الخادع. وقد كان من المفروض أن خسارة معركة واحدة لا تعني خسارة الحرب كلها. ولئن شهدت البلاد مثل هذا الانهيار المفزع الذي لم تجد بعده إلى النهوض سبيلاً فذلك يعني أنها قد كانت فقدت كل مورد مادي وكل محرّك معنوي.

وانتشر بنو هلال بعد ذلك في كل مكان مخربين وناهبين كل ما اعترض سبيلهم ، وهم كأسراب الجراد ، حسب عبارة ابن خلدون. واستقلت أهم مدن البلاد كل برأسها. أما القيروان التي تخلّى عنها المعز في آخر الأمر ولجأ إلى المهديّة (في 27 شعبان من سنة 449 هـ / 29 - 10 - 1057 م) ، فقد كانت بعد يومين من هروب الأمير منها فريسة للنهب والتخريب الشاملين في اليوم الأوّل من شهر رمضان / 1 نوفمبر، إلى حدّ أوحى بنغمات حزين تمزّق القلب لشاعريّن شهيرين من أبنائها وهما ابن رشيق [راجع هذا الاسم في « دامت »] (المتوفى سنة 456 هـ / 1063 - 1064 م . أو سنة 463 هـ / 1070-1071 م) . وبوجهه أخصّ ابن شرف [راجع هذا الاسم] (المتوفى سنة 460 هـ / 1067 م) . ويوجد خلاف حول أهمية هذه « الكارثة » ومداهها . فهذا جان بونسي Jean PONCET يذهب إلى حدّ إنكارها تماماً . على أننا لا نرى داعياً إلى الشكّ بصورة تلقائية ومطرّدة في عديد الشهادات المتطابقة جميعها والتي هي اليوم بأيدينا. هذا وحتى إذا ما سلّمنا بوجود شيء من المبالغة الشعرية فإنه ليس بإمكاننا أن نعدّ من قبيل الاعتبار شهادة ابن شرف الذي ترك لنا وصفا يحزّ في النفس عن مصائب المشرّدين كما عاينها بنفسه، وهم مشتّتون في كلّ مذهب وقد فقدوا كلّ شيء - وهذا في حالة ظفرهم بالنّجاة بأرواحهم . (راجع ابن بسّام ، الذخيرة، ط . القاهرة، 1945، ج IV، كراس I، ص 177 - 184) . على أنه من الممكن عادة النهوض من أية عملية غزو كهذه مهما كانت شديدة. وإنّ قد تعذّر ذلك ، فإنّ الكارثة الحقيقية والدائمة كانت تكمن إذن في جانب آخر. وهي تتمثل في الضربة القاضية التي أصيب بها اقتصاد البلاد. فقد كان هذا الاقتصاد يشكو قبل ذلك شيئاً من السّقم المزمن ، لكنّه كان لا يزال قابلاً للعلاج. وقد قام الهلاليون بتحويل هذا الاقتصاد الذي كان يمرّ فعلاً بفترة أزمة - وهو يكتسي غالباً صبغة فلاحية وصناعية وحضرية - إلى اقتصاد بدويّ ورعويّ إلى أبعد الحدود،

مع كل ما يمثله ذلك التحول من ضروب التعطل والتوقف في الحياة السياسية والاقتصادية. وقد تسببوا على نطاق واسع في تفقهير الحياة الحضرية المظمنة لتحل محلها حياة البدو المليئة بالمجازفات والمغامرات مع ما يشككه نزوعها إلى العنف والحرب من تهديد مستمر لكل نشاط ريفي فلاحي أو حضري تجاري، وهي حياة البداوة التي أناحت بكلكلها بعد ذلك على مصير البلاد السياسي طيلة قرون من الزمن .

وقد ضاقت الحال بالمعز واشتبهت عليه سبل الخلاص، فانتهى به الأمر إلى التماس النجاة في المصاهرات مع الغزاة الغلاظ الشداد والمحالفات المنافية لطبيعة الأشياء والتي لم تكن لتجديه فتيلًا.

ثم عاد المعز - ضمن تصوّرات أمه الخادع في تحاشي الكارثة - إلى ولائه للشيعية الفاطميين. وقد يكون ذلك حصل منذ أواخر سنة 446 هـ / أوائل سنة 1055 م. لكن الأمر أصبح ثابتا لدينا ابتداء من سنة 449 هـ / 1057 م. كما تشهد بذلك الدنانير المضروبة بالمهدية انطلاقا من هذا التاريخ. وقد تمت هذه العودة إلى الولاء الشيعي، الذي بقي المعز وفيّاله إلى آخر حياته، وسط جوّ من اللامبالاة الكاملة التي كانت تشمل البلد الغارق في غمار الفوضى والمشغول عن قضايا البدع والانحرافات الدينية بشؤون يتوقف عليها وجوده المباشر.

وقد كانت سياسة المعز المتوسطة وريثة سياسة الأغلبة والفاطميين في هذا المجال، إلا أن بني زيري لم يعودوا في موقف قوة مثل أسلافهم. هذا وإنّ ضروبا من الخلط في تواريخ الأحداث ومن السهو ومن التناقض تمنعنا من تتبّع هذه السياسة بدقة وثبات. ولنذكر أنّ حملة على إيطاليا الوسطى سنة 1020 م. (411 هـ) آلت في نهاية الأمر إلى الفشل إذ أنّ أهالي كلّ من بيزة وجنوة استطاعوا أن يجردوا الأسطول الصنهاجي من غنائه وهو في طريق العودة. وفي سنة 416 هـ / 1025-1026 م. دمرت العواصف في عرض جزيرة قوصرة أسطولا صنهاجيا عتيذا متّجها نحو صقلية قبل بلوغه هدفه. وفي سنة 426 هـ / 1034-1035 م. استولى رجال بيزة مؤقتا على مدينة عنابة. وفي سنة 427 هـ / 1035-1036 م. قام جيش صنهاجي يقوده عبد الله بن المعز وهو لا يزال مراهقا في سن الثالثة عشرة، بالتدخل في جزيرة صقلية التي كانت الفوضى تعمها وهي على وشك السقوط بأيدي النورمان ، وذلك لمحاربة الأكل الذي استأثر هناك بالحكم في محرّم من

سنة 410 هـ / 9 ماي - 7 جوان سنة 1019 م. وبعد أن فتح عبد الله مدينة بالرمّة وبعث برأس الأكلح إلى أبيه، اضطرّ في آخر الأمر إلى التراجع وترك الجزيرة خائباً. وكان المعزّ قد استقبل سنة 426 هـ / 1034 - 1035 م. ومباشرة قبل هذه الحملة ، وفدا قدم عليه من بيزنطة محملاً بهدايا فاخرة. فهل ينبغي أن نجعل علاقة بين هذين الحدثين رغم قلّة ماورد في هذا الشأن بالمصادر ؟

وقد كان المعزّ يعيش حتّى زحفة بني هلال حياة بذخ كبير وينفق الأموال بغير حساب حرصاً منه على ذبوع صيته كأمر نيرّ الفكر يرعى أهل العلم والأدب. وقد عُهد بتأديبه في صغره إلى واحد من ألمع رجال الأدب والكتاب بإفريقية، وهو ابن أبي الرّجال [راجع المقال] الشاعر والفلكي الشهير الذي تمت ترجمته كتابه البارع - زيادة عن اللاتينية والعبرية - إلى العديد من اللّغات الأوروبية. وأصبح ابن أبي الرّجال فيما بعد ذلك منجم المعزّ وكبير وزرائه. وقد تألّقت المدرسة الأدبية القيروانية في عهد هذا الأمير تألقاً خاصاً بفضل رجال أفذاذ من أمثال القزّاز والحصريّين ، إبراهيم (المتوفّى سنة 413 هـ / 1022 م) وقريبه عليّ الذي فرّ من القيروان بعد غزوة بني هلال وطاف بكامل بلاد الأندلس قبل أن يموت بها سنة 488 هـ / 1095 م. لكنّ أفضل من كان يزين بلاط المعزّ همّا بدون منازع الشاعران المتنافسان القديران ابن رشيق وابن شرف [راجع الاسمين]. وقد كان يطلو للمعزّ أن يثير بينهما مساجلات ونقائض شعرية بقيت مشهورة عبر التاريخ. أمّا ابن الرقيق [راجع هذا الاسم] أو الرّقيق (المتوفّى بعد سنة 418 هـ / 1027-1028 م) والمشهور خصوصاً بتدوين التاريخ والأخبار ، فقد اشتغل أيضاً ككاتب ديوان وسفير وكان شاعراً مجيداً. وفي مجال الفقه المالكي كانت هنالك جماعة من مشاهير الفقهاء ، تبرز من بينهم ، وتمتاز عليهم ، شخصيّة أبي عمران الفاسي [راجع هذا الاسم] (المتوفّى سنة 430 هـ / 1039 م) ، الذي « كان له دور عظيم في تمخّض حركة المرابطين ونشأتها » (راجع هـ. ر. إدريس، المرجع المذكور سابقاً، ج II، ص 727) .

ولقد ورث المعزّ بن باديس وهو لا يزال طفلاً مملكة اتّسمت في المجال الاقتصادي بتفكّك هياكلها ووهن قواها، وفي المجال السياسي بفقدان الجانب الغربيّ منها. وفشل في سعيه إلى توحيد

أجزاء هذه المملكة من جديد جرياعلى سنة أبيه من قبله. وعندما توفي في يوم 24 شعبان سنة 454 هـ / 2 - 9 - 1062 م . عن سنّ تناهز 56 أو 58 عاما قضى منها في الحكم فترة طويلة دامت سبعة و أربعين عاما، فإنّه ترك هذه المملكة لخلفه تميم وهي تشكو الإفلاس الاقتصادي و الانقسام السياسي وتتخبّط في فوضى كاملة .

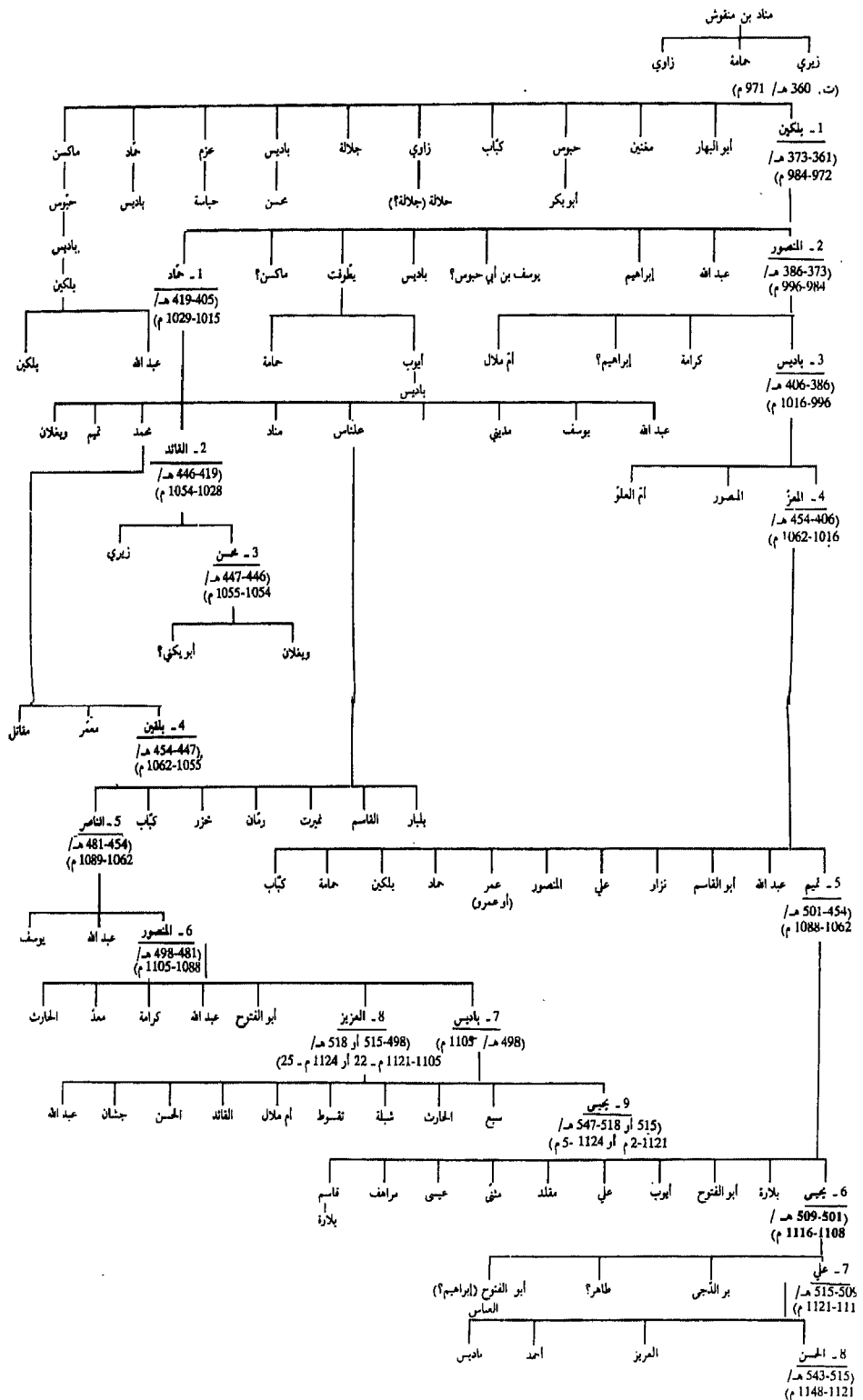
المراجع : لا يزال المرجع الأساسي هو أطروحة الأستاذ هادي روجي إدريس، بلاد البربر الشرقية في عهد دولة بني زيري . القرن X الى XII، ط . أدريان ميزونوف A. Maisonneuve باريس، 1962* وعلاوة على قائمة المراجع التي يحيل عليها هذا الكتاب، ينبغي إضافة المراجع التالية :

أ : ليزين A.Lézine ، المهدية، بحوث في الآثار الإسلامية، نشر كلينكزيك Klincksieck ، باريس، 1965؛ عربي إسماعيل ، عواصم بني زيري ملوك أشير والقلعة وبجايه والمهدية. نشر دار الرائد العربي، بيروت 1984؛ عبد الحكيم شوقي، سيرة بني هلال، نشر دار التنوير ، بيروت ، 1983؛ س . د. غويتاين S.D.Goitein ، مجتمع متوسطي، ج I ، الأسس الاقتصادية A.Mediterranean Society Vol. I.Economic Foundations ، نشر مطابع جامعة كاليفورنيا، 1967، ص 32، 310، 328، 331 ؛ جان بونسي Jean Poncet أسطورة الكارثة الهلالية ، ضمن حوليات E.S.C. ، باريس، 1967 ، العدد 6 ص 1099-1120. ترجمة عربية للمقال لمنصف الشنوفي نشر في حوليات الجامعة التونسية، 1968 ، العدد 5 ، ص 133 - 141، بعنوان أسطورة الكارثة الهلالية ؛ هـ. ر. إدريس ، في حقيقة الكارثة الهلالية، ضمن حوليات E.S.C.، 1968، ص 390 - 396؛ نفس المؤلف، زحف بني هلال ونتائجها ضمن كراسات الحضارة في العصور الوسطى، بواتي، 1968، العدد 3، ص 353-371؛ إييف لاکوست Yves Lacoste ، ابن خلدون، مولد التاريخ وماضي العالم الثالث ، نشر فرانسوا ماسبيرو F.Maspero ، باريس، 1966، الباب 4 أسطورة « الزحف العربي » ، ص 87-105؛ كلود كاهن Cl. Cahen ؛ كلمات عن الهلاليين والبداءة ضمن مجلة JESHO، مارس، 1968، ص 130-132؛ م. برات M.Brett، إفريقية سوق

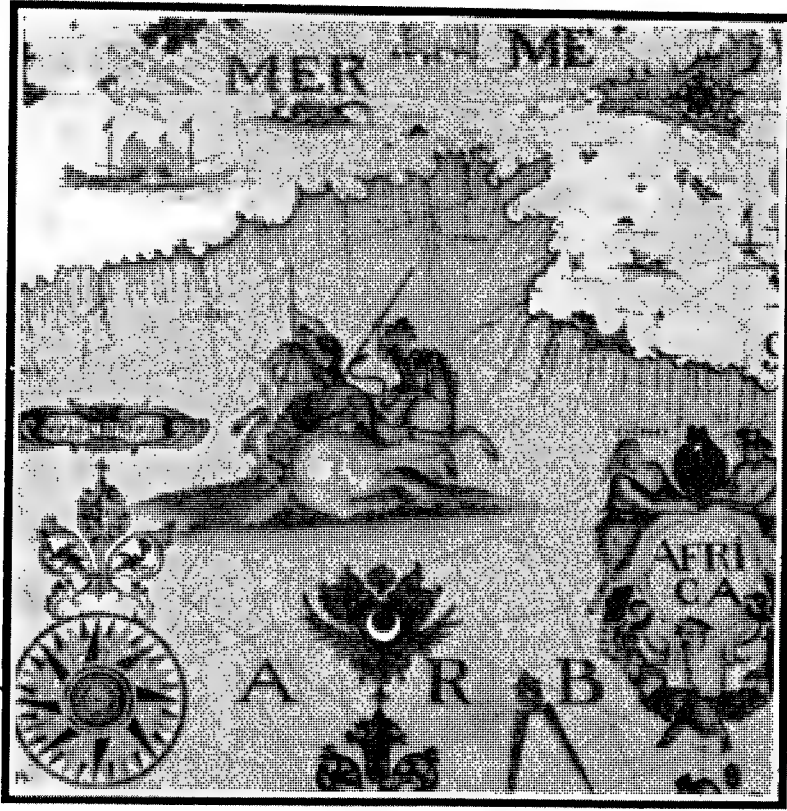
التجارة الصحراوية Ifriqiya as a market for saharian trade ضمن مجلة التاريخ الإفريقي Journal of African History، 13، ص. 347-364 ؛ جاك بارك، J.Berque توبة بني هلال أو الجزائر الزراعية في القرن XV حسب مخطوط خاص بفقهاء القضاء Les Hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe S. d'après un manuscrit jurisprudentiel ، ضمن حواريات E.S.C. ، باريس ، 1970 ، العدد 5 ، ص 1325 - 1353 : نفس المؤلف ، الجديد حول بني هلال، ضمن مجلة S.I. ، باريس ، 1972 ، ج XXXVI ، ص 99-113 ح.ج. عبد الوهاب، ورقات، القسم الثالث، طبعة بعد موت المؤلف، تونس، 1972 ، ص 56-58 ، 445 ، 474 ؛ ر. دغفوس، العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم من مصر إلى إفريقية، ضمن مجلة المؤرخ العربي، 1981 ، العدد 20 ، ص 13-46 ؛ ممدوح حسين، العرب الهلالية في إفريقية ودورهم في الحروب الصليبية، ضمن كراسات تونس C.T. ، 1981 ، العدد 117 - 118 ، ص 73 - 90 ؛ ج كيوك J.Cuoq الكنيسة في شمال إفريقيا من القرن الثاني إلى القرن الثاني عشر، نشر لوستنتوريون Le Centurion ، 1984 ، ص 164 ؛ محمد الطالببي، القانون والاقتصاد بإفريقية في القرن الثالث هـ / الحادي عشر م. الملامح الزراعية ودور العبيد في اقتصاد البلاد، ضمن دراسات في تاريخ إفريقية، تونس 1982 ، ص 204-207. ترجمة أنكليزية (The Islamic Middle East. 700 - 1900) نشر A. L. Udovitch ، برينستن 1981 ص 222-224 ؛ نفس المؤلف، على ذكر ابن الرقيق (ضمن مجلة ARABICA ، 1972 ، ج XXX ، ص 86-96 .

* صدرت الترجمة العربية لأطروحة هـ. ر. إدريس عن دار الغرب الإسلامي سنة 1992 ترجمة حمادي الساحلي، جزآن : 492-514 ص.

جرة نسب الأمراء الصنهاجيين



مواقع



إفريقية

إفريقية هي الجزء الشرقي من المغرب العربي الاسلامي، لذلك أطلق عليها عدد من المؤرخين المعاصرين اسم بلاد البربر الشرقية .

ومما لا مجال للشك فيه — مهما كان مذهب المؤلفين العرب في هذا الموضوع — أن لفظة افريقية مقتسبة من الكلمة اللاتينية أفريكا Africa. وإذن، فالكشف عن أصل الكلمة العربية يرجع في نهاية الامر إلى فك أسرار اشتقاق اللفظ اللاتيني التي لا تزال تتحدى فطنة الباحثين منذ أقدم العصور إلى يومنا الحاضر. وإنه من الثابت أن لفظة أفريكا وغيرها من الصيغ الأخرى المشتقة من الجذر اللغوي آفر (ج. أفري) (Afer, pl. Afri) قد وردت في المصادر اللاتينية القديمة قبل سقوط قرطاج بوقت طويل، ونعلم بالخصوص أن شيبون الأكبر (235 - 183 ق. م) قد

نح بعد انتصاره على حنبعل في واقعة زاما (سنة 202) لقب الافريقي Africani، وقد ورد ذكر صيغة الصفة « افريقي » Africus مرات عديدة في هـد سابق لسقوط قرطاج (سنة 146 ق. م)، وقد ألحقت رومة بعد لك أراضي قرطاج بأراضيها وسمتها « المقاطعة الافريقية » Provincia Afri أو « الافريقية » Africa بإضممار الاسم الموصوف (انظر غزال Gsell، تاريخ القديم : ج VII ، ص 2) . وهذه المقاطعة الافريقية Provincia Africa انت موطن الأفارقة Afri وهي التسمية التي كانت مقصورة في أول الأمر لى السكان الأصليين الموجودين على أراضي قرطاج — بل وقد حصل عيانا الفصل والمقابلة بين هذه التسمية وبين تسمية البونيين Poeni أو قرطاجيين (Carthaginienses) قبل أن تشمل أيضا في خاتمة الأمر هؤلاء قرطاجيين أنفسهم كما نستنتج ذلك من اللقب الممنوح لقاهر حنبعل. هذه هي المعطيات الثابتة التي نملكها بخصوص هذا الموضوع .

ابتداء من هذه النقطة تصبح خطواتنا أقل ثباتا وأرضيتنا ثـر اهتزازا. فما هو على وجه التدقيق أصل كلمة أفريكا Africa؟ إننا نملك بهذا الخصوص أية معلومات ثابتة بصورة يقينية مسلم بها بإجماع الباحثين. وقد كان فورنال Fournel سنة 1875 بلن فـي غير موارد : « لا اتردد في التأكيد أننا نجهل ذلك تماما » (انظر مؤلفه: البربر Berbers، ج I ، ص 1)، وبعد مرور بضعة عقود من السنين يأتي غزال Gsell فيقول صيغة الاعتراف : « من الأفضل الإقرار بجهلنا بخصوص أصل هذه كلمة » (انظر التاريخ القديم ، ج II ص 5)، هذا وإننا لسنا اليوم بأوفر ظا أو أكثر تقدما في هذا الباب مما كنا عليه في الماضي. على أن العديد من نظريات والتفسيرات المتفاوتة من حيث البراعة والقدرة على الاقناع قد ت المجازفة بتقديمها طوال الفترة الممتدة من العصور القديمة إلى عصرنا لحاضر. ويمكن تصنيف هذه النظريات في قسمين كبيرين :

— الاشتقاق الاسطورية : لقد تم منذ أقدم العصور اقتراح العديد ن النظريات القائمة كلها على أساس أسطورة الانتساب إلى أصل وهر إلهي أو بطولي خرافي من نوع ما كان سائدا لدى أقدمين. وعلى هذا الأساس فإن أفريكا تكون موطن أولاد أفر Afer، هو ابن « الاميرة » ليبيا Libye التي كانت أصيلة البلاد، أو إحدى

بنات الإله « جوبيتار » أو الإله « نبتون » أو « إيبافوس Epaphu » (انظر دافزاك d'Avezac، إفريقيا، ج IV) أو هو ابن هرقل لليبيا، أو ابن كرونوس وفيليرا Cronos et Philyra، أو ابن إبراهيم وستورة، أو حفيد إبراهيم وقائد حملة حربية، بليبيا، الخ (انظر المراجع في كتاب غزال Gsell، التاريخ القديم: ج II ص 4) .

أما العرب الذين كانوا بالتأكيد لا يجهلون تماما هذه الأساطير التي كانت شائعة فيما يبدو بالبلاد التي فتحوها ، فانهم لم يكونوا أقل إغراقا في الخيال. لذلك نراهم يتبنون في الغالب نوعا من التفسير متأثرا من ناحية بالأساطير القديمة ومنقولا من ناحية أخرى عن الأنموذج الذي اعتمدوه في تفسير وجود الجنس العربي، أي بالرجوع إلى جد أول يطلق اسمه على بنيهم، وهم يدعونه عادة إفريقيس Africus أو إفريقيش في بعض الأحيان. وقد يكون هو الذي تسمى باسمه الإفريقيون وبـلادهم إفريقية. وهذا التفسير الذي تبناه فيما بعد، مع بعض الفروق في الرواية، غالب رواة الأخبار والجغرافيين العرب يمثل في الواقع رواية واحدة، وهي التي نقلها ونشرها هشام بن محمد الكلبي (المتوفى فيما بين سنتي 204 و 206 هـ / 819 و 821 م) .

ولا بد مع ذلك من أن نسجل أن ابن عبد الحكم (187-257 هـ / 803-871م) . الذي ينتمي إلى أسرة من الفقهاء والمحدثين الثقات والذي ندين له بأقدم مصدر مكتوب عن تاريخ فتح إفريقيا قد تعمد فيما يبدو إغفال ذكر هذا التفسير في كتابه . ذلك أن ابن الكلبي لا يعد من أهل الثقة عند كبار الرواة والمحدثين . (انظر ياقوت، الأدباء، XIX، ص 287-288). أما ابن خلدون المشهور بروحه النقدية فهو لا ينقل لنا هذا التفسير في مقدمته (ص 16) إلا كمثال «للأخبار الواهية» التي كانت كتب سابقه محشوة بها. وعندما يعود ابن خلدون إلى ذكر هذه الرواية (انظر كتاب العبر، ج II، ص 95، 100، 107) فهو يكتفي بنقلها دون تحمل مسؤوليتها، أو يبدي بشأنها احترازا واضحا (كتاب العبر ج II، ص 170).

ولا حاجة بنا إلى التأكيد أن إفريقيس أو إفريقيش هذا يقدم إلينا دوما من قبل الإخباريين العرب باعتباره بطلا عربيا محضا. وهم يربطون دائما من قريب أو بعيد تاريخ هذا البطل بجذور البربر وما يحيط بأصلهم من غموض. والعرب في الغالب يعتبرون البربر مشارقة كنعانيين أو حميريين

في الأصل. وهم يذكرون لنا النسب الكامل لإفريقييس مع بعض الفروق في الروايات. ويؤكدون أنه كان من كبار ملوك اليمن في عهد سليمان الحكيم وأنه قام فيما يبدو بفتح بلاد المغرب وأطلق عليها اسمه وركز فيها بعض قبائل جنوب الجزيرة العربية فاستقرت بها. ويذكر البلاذري (المتوفى حوالي سنة 279 هـ / 892 م) نقلا عن هشام بن محمد الكلبي أن اسمه إفريقييس بن قيس بن صيفي الحميري، ونجد نفس النسب عند ابن خلدون. لكننا نجد له أيضا عدة أنساب أخرى ونرى من بين ذلك من يسميه أحيانا إفريقييس بن أبرهة بن الرائش (انظر المسعودي، مروج الذهب، الفهارس؛ البكري، المسالك، ص 21؛ ياقوت، ج I، ص 228) .

ويورد الاخباريون العرب رواية أخرى من النوع الأسطوري أيضا يصبح فيها البطل الذي أطلق اسمه على إفريقية ينحدر من سلالة الأنبياء المذكورين في أسفار التوراة. وتفيد هذه الرواية التي نجد فيها صدى للأسطورة اليونانية اليهودية التي ينقلها جوزاف Josphc (انظر تيسو Tissot استكشاف علمي للبلاد التونسية، ج I، ص 389 تعليق 5) أن هذا البطل هو فيما يبدو أفريق Aphaera ابن ابراهيم الخليل من زوجة الثانية فاتوراء Cethura (انظر البكري، المسالك ص 21) أو انه فاروق بن بيسر بن حام بن نوح (ياقوت، ج I، ص 228) ويذكر ابن أبي دينار (انظر المؤنس : ص 19) أنسابا أخرى لهذا البطل تعتمد أيضا على سلاطات التوراة .

2 - الاشتقاق اللغوية : أورد كل من البيروني (المتوفى سنة 442 هـ / 1050 م) فيما نقل عنه ياقوت (ج I ص 228)، والزبيدي (تاج العروس ج VII ص 46)، وابن أبي دينار (المؤنس، ص 19) تفسيرات أخرى بالرجوع إلى الجذر اللغوي العربي (ف رق بمعنى فصل) الموجود في لفظة إفريقية. وقد ذكروا لنا أن إفريقية سميت كذلك لأنها « فرقت بين مصر والمغرب » أما بالنسبة إلى الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الافريقي (Léon l'Africain) فقد سميت كذلك لأنها مفصولة عن أوروبا وجزء من آسيا بالبحر المتوسط .

وقد وضعت كثير من الاشتقاقات الأخرى بالرجوع دائما إلى الجذر اللغوي، أورد بعضها المؤلفون القدامى. واقترح بعضها الباحثون المعاصرون، وهي مستمدة من أصل لاتيني أو يوناني أو سامي . فقد

رجعوا بأصل اسم أفريقيا Africa إلى اللفظ اللاتيني aprica (بمعنى الساخنة) وهو الاشتقاق الذي ذكره ايزيدور Isidore:

" Africam quidam inde nominatam existimant, quasi apricam, quod sit aperta vel soli et sine horrore frigoris". (Sarviys)، (انظر تيسو (Tissot) استكشاف علمي للبلاد التونسية ج 1، 289، تعليق 2؛ غزال (Gsell)، إفريقيا ج VII، ص 3، تعليق 8. كما أشار إلى ذلك الاشتقاق أيضا المؤرخ ابن أبي دينار الذي اعتبر اللفظ اللاتيني بمثابة جذر لغوي عربي فكتب يقول: « قال ابن الشباط ناقلا عن بعض المصادر إن افريقية كانت تسمى ابريقية Aprica، وهي كلمة مشتقة من البريق، لصفاء سمائها من السحب». [انظر المؤنس، ص 19]. كما رجعوا بأصل الاسم إلى الكلمة اليونانية (a-phrike) أي بدون برد [انظر دافزاك d'Avezac إفريقيا، ص 4]، وأبالخصوص إلى الجذر اللغوي السامي (ف ر ق). فالباحث الأول وهو م. دافزاك M.d'Avezac بدأ بالإشارة إلى أن بعضهم قد سعى إلى أن يجد في كلمة إفريقية معنى «الأرض الخصبة بالسناجب، أو بلاد النخيل، أو المنطقة المغيرة، أو الإقليم المتفرق المشتت. أو أرض برقة». ثم أضاف يقول: « لكن كم تبدو هذه الافتراضات متكلفة متصنعة بالقياس إلى ما كان أكد سويداس Suidas بكل بساطة عندما أعلن أن إفريقيا هي الاسم القديم لقرطاج نفسها...» أما معنى الاشتقاق الجذري لهذه التسمية القديمة، فهذه لغة قرطاج نفسها تمدنا به بكل بساطة وطبيعية إذ تشير في كلمة افريقية Afryqah إلى مركز منفصل أو مستعمرة لقاعدة صور. وجاء العرب فاستعملوا اشتقاقا قياسيا و سمو الأرض التي تنتسب إلى افريقه العتيقة «إفريقية».

وهذا التأويل الذي تبناه دي سلان deSlane ورفضه كل من فورنال Fournel وتيسو Tissot وغزال Gsell، يصطدم بعقبتين رئيسيتين:

أ - فإنه ليس من الثابت مطلقا أن قرطاج قد كانت تسمت باسم «افريقية» في العصور القديمة. فالشهادة المنفردة التي قدمها سويداس في هذا الباب عندما قال Carthago, quae Africa et Byrsa dicta fuit إنما هي شهادة كاتب متأخر (من القرن التاسع والعاشر) لا يثق به العديد من الباحثين. فكلامه إذن لا يمثل دليلا حاسما. [انظر فورنال، البربر ج I، ص 24 تعليق 2؛ غزال، إفريقيا، ج VII، ص 3 تعليق 2].

- ب - ومن ناحية أخرى، وبالإضافة إلى عقبات الاشتقاق، فإن كلمة أفر Afer ومشتقاتها - وهي ألفاظ غير لاتينية بدون شك - لم يقع العثور عليها في أي نقش كتابي بوني، لا في عهد غزال [انظر افريقيا، ج VII، ص 4]، ولا حتى في أيامنا الحاضرة .

حينئذ تم اللجوء بطبيعة الحال إلى التفكير في اشتقاقات أخرى بالاعتماد على اللغة البربرية : انطلاقا من كلمة افري (= مغارة) أو من إفران أو بالخصوص من اسم قبيلة أوريفة. وقد تقدم بفكرة هذا الاشتقاق لأول مرة الباحث كارات Caratte مستوحيا إياه من اشتقاق كلمة ليبيا المتداولة عند اليونان والتي أطلقت في بادئ الأمر على بلاد قبائل ليبو Lebou أو اللواتي. وقد كتب بخصوص أصل كلمة أفريكا، ناسجا في تفكيره على منوال المثال السابق فقال : « كانت هذه الكلمة بالنسبة إلى المعمرين الفينيقيين بقرطاج مثلما كانت كلمة ليبيا عند المعمرين اليونان بقريني Cy-rène ... أي تسمية مقتسبة من الشعب الذي حصل أول اتصال به، وهي تسمية يكون قد تم بعد تكريسها في نطاق تقاليد البلاد. بل أن تسمية أفريكا قد سبقت تسمية ليبيا مثلما كان انتصاب القرطاجيين سابقا لارتكاز القرينيين [انظر بحوث ... ص 309-310]. وبعد أن أضاف كارات أن « هذا الاشتقاق في تسمية افريقيا لا يقوم على أساس وثائق » وأنه يعتبره مع ذلك اشتقاقا « محتملا » حاول أن يثبت، بواسطة تحميل بعض الدلائل الضعيفة أكثر مما تحمل، أن قبائل أوريفة كانت تسكن حسب المفروض في أقدم العصور، البلاد التي أصبحت تحتلها دولة قرطاج. وفي عهد حكم هذه الدولة « تم القضاء ، فيما يبدو على قبيلة أوريفة هذه (= أوريفة) وتشتيتها، باستثناء الهوارة وهم بطن منها ... » (انظر بحوث ... ص 311) .

وقد رجع إلى القول بهذا التفسير وإلى تبنيّه كل من فيفيان دي سان مارتان Vivien de Saint Martin و تيسو Tissot اللذين يريان أن الاوريفة هم نفس الأفارقة الذين ذكرهم الجغرافيون العرب، ونفس « الايفوراكس » ifuraces الذين يتحدث عنهم كورييوس Corippus ونحن نعلم اليوم أن الجمع بين كل هذه المسميات في هوية واحدة هو من قبيل المجازفة. هذا وإن تأويلات كارات (Caratte) ليس لها من أساس سوى بعض الافتراضات الواهية البناء. وإذا لم نظفر بأي تفسير ثابت

يقيني في هذا الباب، وإذا ما أبينا النسج على منوال فورنال Fournel أو غزال Gsell في التزام جانب الحكمة والإقرار بجهلنا، فقد يكون الافتراض الأبعد عن المجازفة والخطأ هو القول بأن لفظ أفريكا (= إفريقية) مشتق من الجذر اللغوي السامي (ف ر ق). وفعلًا فيما أنه لا يمكن أن يكون الرومان قد وجدوا هذا اللفظ في لغتهم ذاتها ولا أن يكونوا اقتبسوه عن اليونان - الذين كانوا يطلقون على إفريقيا اسم ليبيا - فلا يبقى إذن من احتمال آخر سوى أنهم تلقوه من أسلافهم البونيين الذين أورثوهم البلاد بعد أن دارت عليهم دائرة الحرب والسلاح. وفعلًا فإن عبارة البلاد الإفريقية Terra Africa أو المقاطعة الإفريقية Provincia Africa - وهي ما عرف عند العرب بإفريقية - أطلقت في أول الأمر على الأرض التي وقع انتزاعها من قرطاج وإدخالها في حكم رومة. هذه هي الحقيقة الوحيدة التي تم إثباتها بصورة لا تدع مجالاً للشك أو النزاع.

ويوجد بعض التردد في النطق بكلمة إفريقية. وهو ناشئ عن عدم ضبط الحركات في الكتابة العربية. فبعض أصحاب المعاجم يوردون اللفظة بدون حركات ولا يضبطون طريقة نطقها للقارئ [انظر القاموس III، ص 275، الصحاح، ج IV، ص 1543]. أما عند ابن دريد [انظر الجوهري، ج I، ص 126] فإن الكلمة قد ضبطت بصيغة: «إفريقية» بتشديد الياء. ولا ندري هل أن القائم ب ضبط حركات هذه الصيغة هو مؤلف الكتاب أو ناشره. ويؤكد ابن منظور (انظر لسان العرب، ج X، ص 307) أنه ينبغي أن ننطقها «مخفة الياء»، ويذهب الزبيدي (انظر تاج العروس، ج VII، ص 46) نفس المذهب فيذكر لنا أنه يجب قراءتها «بالكسر... وهي مخفة». ويضيف هذان المؤلفان أن جمع إفريقية هو أفاريق ويستهديان ببيتين للشاعر الأحوص لا نرى فيهما دليلًا قاطعًا. أما ابن أبي دینار فهو يرسم الكلمة بصيغة إفريقيا تارة (كما ورد في العنوان مثلاً) وبصيغة إفريقية طورًا. (انظر المؤنس، ص 19).

أما اليوم فإن الاستعمال الغالب شيئًا فشيئًا هو أن يطلق اسم إفريقيا على القارة بأكملها، وتخصص صيغة إفريقية لتسمية المنطقة الترابية العربية الإسلامية التي كانت تحمل هذا الاسم في العصر الوسيط.

حدود إفريقية : يكتنف حدود هذه المنطقة الترابية غموض كبير.

فالمعطيات التي يوردها مختلف الجغرافيين والمؤرخين العرب المسلمين ليست دائماً متطابقة، ومن المؤكد أن الحدود الثابتة لإفريقية لم تكن في أذهانهم واضحة تمام الوضوح. وبوجه عام فإن إفريقية كانت بالنسبة إلى مؤرخي الفتح الأول تطابق المنطقة التي كان يحكمها البطريق غريغوريوس (أو جرجير) وكانت سلطته تمتد من طرابلس إلى طنجة (انظر ابن عبد الحكم (المتوفى سنة 257 هـ / 871 م)، فتوح إفريقية ... ص 42-43، البلاذري (المتوفى سنة 279 هـ / 892 م)، فتوح البلدان، ج 1 ص 267 على أننا نرى نفس البلاذري، قبل ذلك بصفحة ينقل قول عمرو بن العاص من كتاب له موجه إلى عمر بن الخطاب : « بلغنا طرابلس وهي مدينة بينها وبين إفريقية مسيرة عشرة أيام». أما في رأي الوراق (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) وهو أحد مصادر البكري (انظر المسالك، ص 21) فإن « حدود إفريقية تمتد طولا من برقة في الشرق إلى طنجة الخضراء المسماة أيضا موريتانيا في الغرب. أما عرضا فإن هذه الحدود تمتد من البحر إلى الرمال التي هي أول بلاد السودان. » (انظر أيضا ياقوت ج 1، ص 228؛ الحميري، الروض، الورقة 75؛ ابن أبي دينار، المؤنس ص 20). وهكذا فإن إفريقية كانت في نظر كل هؤلاء المؤلفين تشمل كامل المغرب الاسلامي تقريبا. وقد طرأ على هذا المفهوم تدريجيا شيء من التعديل والدقة عند بعض المؤرخين الآخرين بصورة مواكبة للتقلبات السياسية التي شهدتها البلاد على وجه الخصوص .

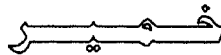
فالجغرافي ابن خرداذبه (المتوفى سنة 272 هـ / 885 م) الذي يقسم العالم المعمور إلى أربعة اقسام، يختار استعمال الاسم الذي اصطلح عليه اليونان في تسمية القارة الافريقية فيسميها لوبية (= ليبيا) ويدخل في نطاقها مصر والحبشة وبلاد البربر وغيرها (انظر المسالك، ص 24-25). وهو يخصص لفظ افريقية ليطلقها على إمارة الأغالبة ويذكر أهم المدن فيها (المسالك، ص 6-7). وإنا لنشاهد هذه النزعة في حصر إفريقية ذاتها، على أقصى ما بلغته من اتساع، في المملكة التي حكمها الأغالبة، عند معظم الجغرافيين الآخرين (ابن الفقيه (المتوفى حوالي سنة 290 هـ / 903 م)؛ البلدان ص 30-31؛ الاصطخري (المتوفى حوالي سنة 350 هـ / 961 م)، المسالك، ص 33؛ ياقوت (المتوفى سنة 626 هـ /

(1229 م)، ج I ، ص 228 : المراكشي (المتوفى حوالي سنة 647 هـ / 1249 م)
المعجب، ص 273 ، 433 ، 442). وقد كانت هذه المملكة تبدأ من شرقي بجاية
وتمتد حتى تقف على بعض فراسخ من برقة . (انظر اليعقوبي، البلدان،
ص 215) .

هذا في حين يرى سحنون (المتوفى سنة 240 هـ / 855 م) أن حدود إفريقية
كانت تمتد من طرابلس إلى تبنة » (حسب الداودي، الاموال، ضمن
مزائج Mélanges ليفي بروغنصال، جII ص 409) . أما بالنسبة إلى المقدسي
(المتوفى سنة 375 هـ / 985 م) فإن « أول ما يعترضك عند خروجك من مصر
كورة برقة، تليها إفريقية، ثم كورتاهرت وسجلماصة وفاس، ثم السوس
الأقصى » (انظر أحسن التقاسيم : ص 4-5) . وهو يذكر من بين مدن
إفريقية جزيرة بنسي زغناية (أو بني مزغناي أي الجزائر) وما تيجة
أي (المتيجة) وأشير، وهذه مناطق لم تكن في أي يوم من الأيام خاضعة
لسلطان الأغلبية . ولنذكر في آخر هذا الاستعراض أن ياقوت يحدّها غربا -
حسب ما يراه البعض - ببجاية أو بمليانة، في حين يذكر ابن أبي دينار أن
كلمة إفريقية لم تعد تطلق في عصره (أي في أواخر القرن السابع عشر) إلا
على سهل مجردة حتى مدينة باجة (المؤنس ص 20) . ولا يزال هذا المعنى
مستعملا إلى اليوم في لغة أهل البادية بالبلاد التونسية .

وجملة القول أنه قد تم التوسع أحيانا بمعنى إفريقية حتى شملت كامل
بلاد المغرب كما جرى اعتبارها في بعض الأحيان الأخرى منطقة جغرافية
قائمة بذاتها. ويمكن أن نقول إن الرقعة الجغرافية لإفريقية كانت تشمل
أساسا رقعتي البروقنصلية والمزاق Byzacène اللتين تكونان النواة الأصلية
فيها. وتضاف إليهما عرضا واستطرادا مقاطعات طرابلس، ونوميديا
الأوراس بل وجزء من نوميديا السطيفية أحيانا. وقد كان يركّب على هذا
المفهوم الجغرافي مفهوم آخر إداري. وبهذا الوجه فإن الاخباريين كانوا
يذهبون في كتاباتهم إلى إطلاق اسم إفريقية على الرقعة الترابية التي كان
مرجع حكمها في العصر الوسيط مركزا بالتداول وفي قاعدة القيروان ثم
المهدية ثم تونس، وقد كانت هذه الرقعة تتسع وتضيق بحسب ظروف
التاريخ وتقلباته. لذلك كان استعمال لفظ إفريقية محاطا في غالب الأحيان
بقدر كبير من الغموض، فلم يكن معناه يتضح ويستقيم إلا في ضوء
السياق المقصود والفترة التاريخية المعنية .

- المؤرخون والجغرافيون العرب : ابن عبد الحكم، الفتوح، تح. مع ترجمة جزئية لـ أ. غاطو A.Gateau، الجزائر 1948، ص 34 - 35 ، 40 - 42 ؛
اليقوبي - فيات Wiet، ص 215 الطبري، التاريخ، القاهرة 1939، ج III، ص 254
ابن خرداذبه، المسالك، تح. مع ترجمة جزئية لحاج صادق، الجزائر 1949، ص 30 - 38، 31 - 39؛ البلاذري، الفتوح، تح. المنجد : القاهرة 1956، ج I.
ص 266 - 275 المسعودي، تح. وترجمة بلا Pellat، الفقرات 1002، 1027، 1086
الداودي، الاموال، تح. مع ترجمة جزئية لحسن حسني عبد الوهاب
وفرحات الدشراوي في دراسات في الاستشراق مهداة الى روح ليفي -
بروفنصال، باريس 1962، ج II، ص 409 - 428؛ المقدسي، أحسن التقاسيم،
تح. مع ترجمة جزئية لشارل بلا Ch.Pellat، الجزائر 1950، ص 4 - 5، 12 - 13؛
الاصطخري، المسالك، تح. حيني وغربال، القاهرة 1961، ص 33؛ ابن حزم،
الجمهرة، تح. ليفي - بروفنصال E.Lévi-Provençal، القاهرة 1948، ص 410 - 411؛ البكري، المسالك، تح. مع ترجمة لدي سلان de Slane، باريس 1965، ص 21؛ ياقوت، ط. بيروت 1955، ج I، ص 228 - 231؛ المراكشي، المعجب،
تح. محمد سعيد العريان القاهرة 1963، ص 273، 433 - 442؛ أبو الفداء،
التاريخ، ج I، ص 102؛ ابن عبد المنعم الحميري، الروض، مخطوط بمعهد
الدراسات الاسلامية بباريس، الورقة 75؛ ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت 1956، ج I ص 16 - 17، ج II، ص 95 - 96، 108 - 109، 170 - 171؛ ليون الافريقي Léon l'Africain، وصف افريقيا، ترجمة ايبولار A.Epaulard، باريس 1956، ج I، ص 19 - 21.
3- ابن ابي دينار، المؤنس تح. م. شمام، تونس 1967، ص 19 - 21.
الدراسات الحديثة (هذه القائمة تستعرض (بصورة تقارب الشمول)
المصادر اليونانية واللاتينية، بصرف النظر عن المصادر العربية :
M.d'Avezac، Afrique, esquisse générale de l'Afrique et Afrique Ancienne, Paris 1844, 4-5 ; E.Carette، Recherches sur l'origine et les migrations des principales tribus de l'Afrique Septentrionale, Paris 1853, 306 - 12 ; M.G.de Slane, Histoire des Berbères, Alger 1956, IV, 564 - 5, 571 - 2 ; M. Vivien de Saint-Martin، le Nord de l'Afrique..., Paris 1863, 149 - 152 ; H.Foumel, les Berbères, Paris 1875 - 81, I, 23 - 32 ; Ch.Tissot، Exploration scientifique de la Tunisie, Paris 1981, I, 388 - 91 ; St.Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Paris 1930, VII, 2 - 8 (exposé le plus clair sur la question) . E.F.Gautier, le passé de l'Afrique du Nord, Paris 1952, 125 - 6. M.Talbi, L'Emirat Aghlabide, Paris 1966, 122 - 9; H.Djaït, la Wilaya d'Ifriqiya au II / VIIIe siècle) dans S.I. 1967, XXVII, 88-94; voir aussi: Algérie, Berbères, Libye, Maroc, Tunisie (in E.I).



90

فروق محسوسة رغم وحدة هذه المجموعة . فمنطقة خمير الغربية يبلغ أقصى ارتفاعها بجبل الغرة علو 1202م من الأمطار. أمّا المنطقة الشرقية وهي عسيرة المدخل وعرة المسلك رغم تواضع ارتفاعها فإنها تبلغ 1014 مترا في أعلى جبالها ، وهو جبل البير الذي يشرف على مدينة عين دراهم. وإنك لترى حيثما توجّهت جبالا عميقة الأخاديد ووهادا وعرة المنحدرات تضفي مظهرا بريّا على كامل هذه الجهة المكسوّة بغابة تمسح 47000 هكتار، سبعة أعشارها من شجر بلوط الفلين، وعُشُرُان منها من شجر الزّان، والعُشُرُ الأخير أشجار متنوعة منها الزيتون البرّي. وأمّا نبت الحراج تحت الأشجار فيتكون غالبا من السرخس. وقد وقع منذ عهد قريب إدخال أنواع أخرى من الأشجار إلى المنطقة مثل شجر صنوبر البندق. ومعدّل نزول الأمطار بمنطقة جبل خمير هو أعلى معدّل بالبلاد التونسية (إذ يبلغ مترا كاملا في السنة، مع حد أقصى بعين دراهم في مستوى 1,575 مترا) .

ورغم وفرة الأمطار و أهمية نزول الثلوج نسبيا فإنّ هذه المنطقة الجبلية تشكو نقصا في المياه. فالعيون كثيرة لامحالة لكنّها شديدة التشتت وقليلة الغزارة في الغالب، بل أنّ بعض العيون يغور ماؤها تماما في فصل الصيف .

وفي العهود القديمة لم تبق منطقة جبل خمير بمعزل عن توغل الرومان ونفوذهم. وكانت تشقّها ثلاث طرق. ففي اتجاه الطول الطريق الرابطة بين قرطاج وهييورجيوس Hippo Regius التي أصبحت تسمّى بونة ثم عنّابة حاليا، مرورا بهيود ياريتوس Hippo Diarhytus وهي بنزرت حاليا. وفي اتجاه العرض الطريق التي تصل بين سيميتو Simittu، وهي شمتو الحالية وطبرقة Thabraca أو طبرقة وقد اكتشفت عدّة بقايا من هذه الطريق. ثم الطريق التي تخرج من فاجة Vaga أو باجة الحالية لتواقي نفس مدينة طبرقة عبر تريسيبه. وقد كانت طبرقة في أول عهدها مصرفا تجاريا ساحليا للقرطاجيين ثم أصبحت ابتداء من القرن الرابع واحدة من أغنى أسقفيات إفريقيا وكانت تزود رومة بمنتجات المنطقة مثل خشب البناء والوحوش وكذلك الزيت والقمح والمواد المنجمية. كانت « مدينة ترف للفن فيها منزلته إلى جانب الأعمال التجارية » (كما يقول عنها ب، غوكلار في كتابه فسيفساء، ص 155 P.Gaukler, Mosaïque) وقد قدّمت إلينا لوحات فسيفساء زاخرة بالفن والجمال .

ومن الغريب أن منطقة جبال خمير لم يكن لها ذكر في أحداث التاريخ ولم تلفت الانتباه طوال العصر الوسيط كله، إذ أن صمت مصادرها عنها كامل. وعلينا أن ننتظر العصور المتأخرة وخاصة منها العهد المعاصر لنرى هذه المنطقة تدخل في التاريخ، فتبرز لنا كموطن هروب واختباء ومركز مقاومة في نفس الوقت، خارج بصورة كاملة أو تكاد عن سلطة حكام تونس.

وكان لأهالي خمير علاقات ودّية ومثمرة مع الصيادين الجنوبيين المستقرّين منذ سنة 947 هـ / 1540 م. بجزيرة صغيرة مساحتها 40 هكتارا يفصلها عن طبرقة مضيق بحري عرضه 500 متر. لذلك تأثروا بشدّة عندما قام علي باشا سنة 1153 هـ / 1740 م. باسترجاع هذه الجزيرة عنوة (انظر ابن أبي الضياف، الإتحاف، ج 2، ص 124)، وفي سنة 1183 هـ / 1770-1769 م. التفت أهالي خمير حول الدعي عثمان الحداد، الذي وقعت بعد ذلك مباغتته وأسرّه ثم قتله (انظر نفس المصدر، ج 2، ص 165) وفي سنة 1260 هـ / 1844 م. ساندوا دعيا آخر كان يزعم أنّه من ذريّة عثمان باي. وقد وقع هو الآخر في الأسر بالحيلة وضربت عنقه، (نفس المصدر، ج 4، ص 78-79 نشر أحمد عبد السلام، ص 116-117) . وفي سنة 1282 هـ / 1865 م، قام علي باي، على رأس «المحلّة» المكلفة بجمع الجبايات، باستنزاف كلّ ما يملكه أهالي منطقة باجة، لكنّه لم يجرؤ على الإقدام على دخول منطقة جبل خمير التي لم يدفع أهاليها « المجبى » إلّا في حدود ما ارتضوه ووافقوا عليه (انظر ابن أبي الضياف، المصدر المذكور، ج 4، ص 65، 55) لكنّ جبل خمير لم يشارك في انتفاضة سنة 1864 - إذ لم تشعر المنطقة أنّها معنيّة بهذا الأمر- ولا في اضطرابات سنة 1867-1868

ولم تحتلّ المنطقة فجأة مقدّمة الأحداث إلّا في سنة 1881. فقد كان من عادة أبناء خمير نهب أملاك أجوارهم بما في ذلك أهالي الجزائر. ونظرا إلى أنّ عامل طبرقة - الراجع إليه أمرهم مبدئيا - لم يكن له عليهم أي نفوذ حقيقي، فقد قررت السلطات الفرنسية، في نطاق سياسة شديدة التشعّب كانت تشهد تنافس العديد من الدول الكبرى، أن تقوم بردّ الفعل. وشرع الفرنسيون في شنّ العملية التي آلت إلى انتصاب حمايتهم على البلاد التونسية. ففي 24 أفريل 1881 اقتحمت الجيوش الفرنسية التراب التونسي، وبعد يومين احتلت هذه الجيوش مدينة الكاف

بدون قتال، وفي 13 ماي جاء دور عين دراهم، ثم قام الجيش الفرنسي في اليوم الموالي بتشتيت جموع بني خمير بموقع ابن مطير إثر معارك شديدة.

أمّا عن أصل سكّان جبل خمير فإنّنا لا نملك أية معلومات دقيقة أو ثابتة. وإنّنا لا نعثر على لفظة خمير في أيّ نصّ من كتابات العصر الوسيط، وفي العهد الذي أُلّف فيه ابن خلدون أي القرن الثامن هـ / الرابع عشر م - كانت المنطقة الممتدة بين باجة والبحر أهلة بالبربر من قبيلة هوارّة، وقد تعرّبوا تماما، وبمن اختلط بهم من العناصر العربية الأصلية، ولاسيما بعض بني هذيل (انظر كتاب العبر 6، 288-289، ترجمة دي سلان ، البربر، ج 1 ص 279).

وبنو خمير يشكّون بالنسبة للمؤرخ لغزا مبهما يتعذّر حلّه، فهم لا يظهرون إلّا في القرن التاسع عشر، ولا نكاد نجد عنهم مع ذلك في الوثائق الرسمية سوى بعض الإشارات العابرة بمناسبة قيامهم بنهب أجوارهم في السهول أو عند محاولة « محال » الجيش إرغامهم على دفع الجبايات، لكن بدون جدوى . فمن هم هؤلاء الناس ؟ أمّا هم أنفسهم فينتسبون إلى العرب . وإنّه يوجد فعلا باليمن منبع ماء يسمّى خميرا (انظر ياقوت ، البلدان ، ج 2، ص 390، ج 3، ص 406) كما توجد قبيلة قحطانية تدعى بني خمر (انظر القلقشندي، النهاية ص 247) وقد يكون خمير تصغيرا لها. وتقول الأسطورة أيضا إنهم ينحدرون من رجل يدعى خميرا بن عمر ، وهو أحد مشاهير أصحاب عقبة بن نافع فاتح المغرب، ويقال إنّ أحد أولاد خمير هذا، وهو سيدي عبد الله أبو الجمال، قد أنهكه الجهاد في سبيل الله فاعتزل بقلب منطقة الجبال فوق نجد عال يبعد حوالي 5 كيلومترات في اتجاه الجنوب الغربي من عين دراهم، وانتظر حتى أدركه الموت هناك. وقد أقيمت « زاوية » بذلك المكان مازالت تخلّد تلك الأسطورة وتقوّي اللّحمة بين بني خمير في إكبارهم وإجلالهم شبه الكامل لوليّهم الصالح وجدّهم المفترض. وفي رواية أخرى يكون بنو خمير قد أقاموا أول الأمر بجنوب البلاد التونسية حيث كانوا أتباعا لشابيّة القيروان، وأثناء القرن الثامن عشر اضطروا للهجرة إلى الشمال والنزول بالمنطقة الجبلية التي أصبحت تتسمّى باسمهم .

وينقسم بنو خمير إلى عدة عروش وبطون أهمّها بالجهة الشرقيّة من

منطقة جبل خمير : أولاد عمر والحوامدية وأولاد بن سعيد والسعدية والوراهنية والطواجنية بجهة طبرقة. وسلول وهذيل وأولاد مسلم والخرافصية والجدايدية والجوابلية والملايكية وأولاد موسى وأولاد هلال والحرمان والدبابسة وخصوصا العطايفة بجهة عين دراهم. والقوادية والتباينية والشحيحة بجهة فرنانة. أما بالجهة الغربية من المنطقة فيوجد من البطون بنومازن و أولاد علي والخزارة والمراسن و وشتاتة. ومن العيث أن نحاول التمييز بين العرب والبربر في هذه القبائل. وفعلا فإن سكان هذه المنطقة الجبلية هم خلاصة تمازج طويل وعميق بين أجناس وعناصر مختلفة، يرجع إلى أول العهد الوسيط أو إلى ما قبل ذلك. وقد عجل في حصول هذا التمازج بدون شك زحف بني هلال في أواسط القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. ثم بني سليم في أوائل القرن السابع هـ / الثالث عشر م. وتجدر الإشارة إلى أن لهجة التخاطب العربية الحالية لا تشتمل على أي أثر من اللغة البربرية و إنما نعثر أحيانا على خيمة من خيام الرّحل منصوبة في قلب الجبال، وفي ذلك ما فيه من الغرابة .

أما الرحّالون والمهتمّون بوصف البلدان والأقاليم من كتاب العصور الوسطى فإنهم لو يولوا جبل خمير في حد ذاته كبير اهتمام، وإنما تحدّثوا خصوصا عن الطرقات والمسالك. أمّا الأول، وهو ابن حوقل، وقد زار المغرب في آخر النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، فهو يذكر أن « الجادة » بين تونس وطبرقة تمرّ بباجة (انظر كتاب صورة الأرض. ص 76) ويذكر البكري، الذي كان يكتب في أواسط القرن الخامس هـ / الحادي عشر م، أن الطريق بين باجة وطبرقة مقسّمة على ثلاث مراحل مرورا بباسلي ودرنة (انظر المسالك 86 — 87 / 120 — 121). ويشير الإدريسي (أواسط القرن السادس هـ / الثاني عشر م) إلى وجود طريقين بين تونس وطبرقة، الأولى تمر ببنزرت والثانية تنفرع عند باجة (انظر النزهة 84-85). ومن البديهي أن هذه الشبكة تتبع من قريب الطرقات والمسالك الموروثة عن العصور القديمة .

ونحن لا نملك أية معلومات مدققة عن المدن أو القرى بجبل خمير طوال العصر الوسيط بأكمله. وأقصى ما هو بالإمكان متابعة تطور مدينة طبرقة. وقد سبق أن رأينا أنها شهدت ازدهارا كبيرا في العصور القديمة. وفي القرن الرابع هـ / العاشر م. لم تعد طبرقة - حسب ما يرويه ابن حوقل -

سوى « قرية وبيئة » تعيش فيها العقارب، ليس لها من أهمية سوى ما تجلبه لها حركة السفن بينها وبين الأندلس ووظيفتها كمركز جمركي (انظر المصدر المذكور، ص 76). وفي القرن الخامس هـ. / الحادي عشر م. يشير البكري إلى وجود آثار ضخمة من معالم تعود إلى العصور القديمة مازالت ماثلة بالمدينة التي احتفظت ببعض الازدهار الناتج عن نشاط مينائها. أمّا في القرن السادس هـ. / الثاني عشر م. فإنّ الإدريسي يؤكد لنا أنها لم تعد سوى حصن قليل الساكن يحيط به أعراب لا عهد لهم ولا ذمة يعيشون على النهب والسلب. وفي خاتمة المطاف أصبحت المدينة في أوائل القرن السادس عشر مجرد « ميناء مقفر » (حسبما يذكره الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي في كتاب وصف إفريقيا ص 549، Jean-Léon l'Africain, Description de l'Afrique، 549 ص 549) أمّا اليوم فإنّ طبرقة (وعدد سكانها 4000 شخص) ** ميناء متواضع يصدر بالخصوص إنتاج منطقة جبل خمير من الفلين (من 3 إلى 4000 طن سنويا). وتعيش المدينة كذلك من الصيد البحري ومن استغلال المرجان - ولو بصورة محدودة - كما أنّها استفادت، في حدود أكثر تواضعا من بعض الجهات الأخرى، من النهضة السياحية التي شهدتها البلاد التونسية .

وأهمّ التجمّعات السكّنيّة بمنطقة جبال خمير هي مدينة عين دراهم على ارتفاع 800 متر، وهي محطة اصطياف ومركز لصيد الخنزير الوحشي. أمّا فرنانة وارتفاعها 275 مترا - فهي بالخصوص مركز لسوق أسبوعيّة. وبيوش ليست سوى قرية حدوديّة على طريق المرور إلى البلاد الجزائرية. أمّا ابن مطير فهي قرية صغيرة متواضعة وقع بالقرب منها بناء سدّ على وادي اللّيل سنة 1955 طاقتة 73 مليون متر مكعب لتوليد الطاقة الكهربائيّة وتزويد مدينة تونس بالماء. ويوجد سدّ آخر بصدد البناء على مجرى الوادي الكبير. (***)

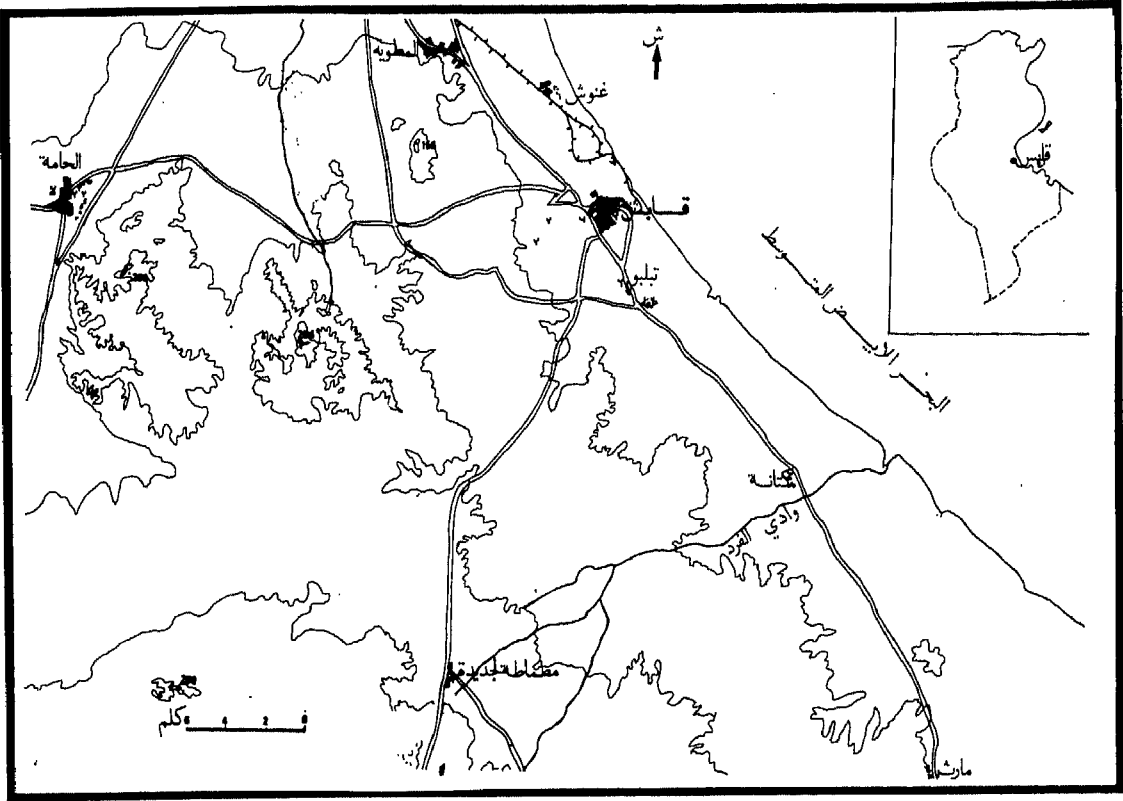
وبالرغم عن الجهود المبذولة في سبيل التجميع فإنّ السكن بقي في الغالب متّسما بالتشتّت بحسب عيون المياه ومواقع الضيعات الزراعية الصغيرة. ولم يقع القضاء تماما على الاكواخ المطيّنة أو المتّخذة من أغصان الشجر ونبت الحراج .

وفي الحقيقة فإنّ منطقة جبال خمير منطقة فقيرة تقتصر على تعاطي اقتصاد أساسه الغابات والمراعي. ومستوى العيش بهذه المنطقة هو من

أشدّ المستويات انخفاضا بالبلاد التونسية. وأهمّ مورد لهذه الجهة ناتج عن تسويق الفلين. كما توفّر زراعة التبغ أيضا موارد لا بأس بها. أمّا تربية الماشية (من بقر وغنم وماعز) فهي لم تشهد أي تطور، ولا توفّر سوى دخل ضعيف. هذا وإنّ الجهود المبذولة لتحسين غراسة الأشجار المثمرة بجعل أشجار التفاح والإجاص والكرز تتأقلم مع مناخ المنطقة لم تؤدّ إلاّ إلى نتائج محدودة جدًا. أمّا إنتاج الصناعات التقليدية المحلية - مثل زربية خمير ذات اللون الأبيض والأسود والرملي، وبعض الأدوات من الخشب لوضع الأطعمة وتناولها، والتطريز الخاص بالمنطقة - فإنه غير مرغوب فيه خارج الجهة ولا يشغل إلاّ يدا عاملة قليلة. ولا بدّ من الإشارة أخيرا إلى أنّ المياه المعدنية الساخنة الكبريتية النابعة ببرج الحمام والمشهورة منذ العصور القديمة بخصائصها العلاجية الطبية، قد كانت منطلقا إلى إقامة محطة معدنية عصرية بجانب آثار (حمامات ؟) عتيقة، أطلق عليها اسم حمام بورقيبة. وهذه المحطة التي وقع توسيعها سنة 1973 أصبحت تجلب عددا متزايدا من الزوّار والروّاد التونسيين .

المصادر (مرتّبة حسب التسلسل الزمني) : ابن حوقل، صورة الأرض، بدون تاريخ، ص 76؛ البكري، المسالك، تح. وترجمة . دي سلان de Slane بباريس ، 1965، ص 55 / 58 118 / 123 83 / 169 ؛ الإدريسي، النزهة تح. جزئي لهنري بيريس (H.Perès) ، ص 84 9186 ؛ ياقوت، ط ، بيروت، 1956، ج 2 ص 390 ج 3 ، ص 406؛ ابن خلدون، العبر، ط ، بيروت، 1959، ج 6 ص 288 - 289 ؛ (ترجمة دي سلان de Slane ، البربر، ط، باريس، 1925، ج 1، ص 279)؛ القلقشندي. النهاية ، ط. القاهرة، ص 247؛ محمد بن الحسن الفاسي، وصف إفريقيا - Jean -Léon l'Africain , De- scription de l'Afrique ترجمة فرنسية، أ. إيبولارد A.Epaulard ، ط. باريس، 1956، ص 549 محمد الصغير بن يوسف، المشرع الملكي. ترجمة ف. سار V.Serres وم. الأصرم، ط. تونس؛ ابن أبي الضياف، الإتحاف، ط. تونس، 1963، ج 2، ص 124، ج 6 ص 55، 65 (نشر أحمد عبد السلام، الباب السادس، تونس، 1971 ، ص 116 - 117) .

الدراسات : ح. عطية : التوزيع الجغرافي لسكان البلاد التونسية انطلاقاً من إحصاء سنة 1966، بالمجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، العدد 17 - 18 ص 505 - 524 : أ. دي لابرغ (A. de la Berge)، قصة الحملة الفرنسية بالبلاد التونسية، ط. باريس، 1881؛ ف. بونيارد F.Bonniard تونس الشمالية، ط. باريس، 1934، ص 101 - 112 ر. برانشفيك، الدولة الحفصية، ج 1 ص 299، ج 2، ص 229، ج. ديبوا J.Despois إفريقيا البيضاء، ج 1، إفريقيا الشمالية، ط. باريس، 1958، ص 16، 51، 275 - 278 : ج. ديبواو ر. راينال R.Raynal جغرافيا إفريقيا الشمالية الغربية، ط. باريس، 1967، ص 16، 237 : ج. غانياج J.Ganiage أصول الحماية الفرنسية بتونس، ط. باريس، 1959، ص 175 : ب. غوكلار P.Gaukler سيفساء قبور بمصلى شهداء بطبرقة، طبعة معادة بمجلة C.T العدد 77-78 (سنة 1972)، ص 153 - 201 : ش. غوطيس ور. سترول Ch. Gottis et R. Strohl السدود الكبرى بالبلاد التونسية، ط. تونس 1952 : م. ن. الأجرى الإحصاء العام للسكان (ماي 1966)، في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، العدد 17 - 18 (1969)، ص 127 - 170 : أ. مارتال A.Martel التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية، ط. باريس، 1965، ص 413-414، 226، 228، 432 : ب. مارتلو P.MartheLOT الانجراف في جبل خمير، في مجلة جغرافية جبال الألب R.G.A، سنة 1957، ص 273 - 287 : نفس المؤلف، مشاكل غابية بالبلاد التونسية، في مجلة كرايس الإعلام الجغرافي ط. باريس، 1954، ج 2 ص 35 - 47 : أ. بليسي دي رينو E.Pélissier de Reynaud وصف الإيالة التونسية، ط. باريس، 1853 : ج. بنشون Th.G.Penchoen اللغة البربرية بالبلاد التونسية وتعليم الأولاد الناطقين بالبربرية، في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، العدد 13 (سنة 1966) ص 173 - 195 : ع. السعيد، تعمير المنطقة العليا من مجرى وادي مجردة في نفس المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، العدد 40 - 43 (سنة 1975) ص 185 - 233 : ب. سلامة P.Salama المسالك الرومانية بإفريقيا الشمالية، ط. الجزائر 1951؛ الكتابة العامة للحكومة التونسية، أسماء القبائل التونسية وتوزيعها، ط. شالون سيرصون، 1900. ص 214 - 224 : م. صولينياك M.Solignac دراسة جيولوجية لشمال البلاد التونسية، ط. تونس 1927 : ل. فالنسي L.Valensi الفلاحون التونسيون، ط. ليل، 1975، ص 282 : أ. فيولارد E.Violard تونس الشمالية، ط. تونس 1906، ص 5 - 79، (ز*** / Z***) تقييدات عن قبائل الإيالة التونسية في المجلة التونسية : R.T. العدد 9 (السنة 1902) ص 5.



قَابِس

قابس مدينة بالبلاد التونسية تقع على ساحل الخليج المسمّى بنفس الاسم (وهو المعروف في العصور القديمة بسيرتا الصغرى)، على مسافة 404 كلم جنوبي مدينة تونس، وعلى بعد 150 كلم من مدينة قفصة. وهي تعدّ 40 ألف ساكن، منهم 1200 من الأوروبيين، وتمثل القاعدة الإدارية لولاية تضم 204 آلاف نسمة - حسب إحصاء سنة 1966). (٣) وتتكون قابس المدينة - التي تم تقسيمها منذ سنة 1957 إلى أربع دوائر - من البلديتين القديمتين المعروفتين بـ « المنزل » في عالية وادي قابس، و«جارة» بسافلة هذا الوادي. وقد كانت توجد بين هذين الربضين عداوات قديمة وأحقاد متأصلة ومنازعات ضاربة في أعماق التاريخ، وقد انضاف إلى

هذين التجمّعين، منذ انتصاب الحماية الفرنسية، حيّ عصري جديد أطلق عليه اسم باب البحر أو قابس الميناء، ويقع في أدنى المدينة، ومبان أخرى أحدث عهدا تمتد في اتجاه الجنوب. وقد حلّ الدمار بكلّ من المنزل وجارة في سنتي 1959 و 1962 من جراء الفيضانات الجارفة بوادي قابس. وقد تم اليوم كبح جماح هذا الوادي بواسطة قناة تحويلية متفرعة عن مجراه تجرف مازاد عن الحدّ الطبيعي من مياهه وتصبّها مباشرة في البحر، ذلك أن مدينة قابس تقع بأسفل منخفض يحدق به شمالا أحد منعطفات الوادي وتحده جنوبا مرتفعات سيدي أبي لبابة - حيث يوجد مقام الرجل الصالح شفيع المدينة وحاميه، الذي يقال إنّهُ من صحابة الرسول -، ومشارف «المنارة» ذات المشهد الشامل البديع، حيث كان ينتصب في العصر الوسيط برج بأعلاه منارة، وحيث أقيم بعد سنة 1962 حيّ شعبي يؤوي المتضرّرين من الفيضانات السابقة.

ويوجد بواحة قابس، حسب ما يؤكده ع. البشراوي الذي خصّها بدراسة حديثة العهد، عدد من الأشجار يساوي 1.400.000 أصل، منها 650.000 من النخيل (وهي ذات تمور غير جيدة)، أي ما يعادل نسبة 47% من المجموع. وتأتي بعد ذلك 107.000 من أصول الرمان من النوع الممتاز تحتلّ بها قابس المرتبة الثانية في الانتاج التونسي، ثم أشجار الخوخ وكروم العنب وأشجار المشمش، ولا يصلح الزيتون ولا تكون زراعته ناجحة إلاّ بجهات كثّانة وطلبو ووذرف والمطوية. وتبلغ أشجار الموز مرحلة الإثمار والنضج، لكنّ عددها قليل. أمّا الزراعات على وجه الأرض فهي تتمثل في الحبوب، بمقدار قليل، والأعلاف وخاصة البرسيم، ثم التبغ والحناء والخضر والبقول، ومنها « السكّوم » أو الهليون، الذي دخل المنطقة حديثا. وأما الماشية فعددها قليل إذ أنّ تربية الحيوان تكتسي في الغالب طابعا عائليا وصبغة تكميلية من حيث القيمة. والبحر على سواحل قابس - على قلة عمقه وكثرة أسماكه - يكاد يكون غير مستغلّ. هذا وقد بلغ توسّع الواحة أقصى حدوده بحكم ارتباطه بطاقة الرّي، ذلك أن الطبقة المائية الجوفية المستغلة فوق طاقتها وإمكاناتها (قراية 60 بئرا عميقة من 1890 إلى اليوم، قد قاربت حدّ النّفاد).

وقد تمّ منذ مدة اختيار مدينة قابس لتكون مركزا لتنمية الجنوب التونسي، فوقع في هذا الاطار بناء ميناء يتسع لايواء سفن تبلغ

حمولتها 50.000 طن، وتركيز معامل الصناعات الكيماوية المغربية I.C.M، وهي شركة مختصة في صناعة الأسمدة الأزوتية، وينقل إليها الغاز أنبوب يربط بينها وبين حقل البرمة ويزود بالطاقة معمل الآجر والمولد الكهربائي المركزي. هذا وتوفر الصناعات التقليدية والسياحة لمدينة قابس نشاطا إضافيا قابلا لأن يزداد توسعا ونمواً .

التاريخ : قابس هي التسمية العربية للمدينة التي كان يطلق عليها في العصور القديمة اسم تاكاب Tacap أو تاكابا Tacapa أو تاكابا Tacapae بصيغة الجمع. واللفظة العربية مستمدة من الصيغة المتداولة للكلمة في حالة المفعولية، وهي تاكابس Tacapas، مع إسقاط أداة التعريف اللوبية البربرية (تا) . وقد كان موقع قابس معمورا بالتأكيد منذ العهد الحجري الجديد، كما نتبين ذلك من الآثار المتعددة. وبعد ذلك كان الفينيقيون، على أقرب الظن، هم أول من أسس بذلك الموقع وكالة تجارية مختصة في المبادلات مع بلاد نوميديا وفي التجارة عبر الصحراء. وقد تحول هذا المصرف التجاري إلى مرفأ قرطاجي ثم أصبح فيما بعد مستعمرة رومانية. وقد توفرت لدينا منذ ذلك الحين بعض المعلومات المدققة عن المدينة.

ومنذ عهد الامبراطور الروماني تيربوس (14-37 للميلاد) بدأت أشغال إحياء المنطقة بصورة شاملة ومنظمة كما تشهد بذلك عملية التقسيم المئوي. وقد تم ربط تاكابس بقرطاج بواسطة الدرب الساحلي الكبير. وفي سنة 14 فتحت طريق استراتيجية جديدة تصلها — عن طريق قفصة — بتلابت وحيدرة حيث كان يربط الفيلق الثالث « أوغسطا » . وبفضل ما كان البونيون قد بذلوه من جهود تمهيدية، ولكن أيضا بفضل هذه الشبكة من الطرقات التي نشطت حركة الميناء، وأخيرا بفضل مياه وادي قابس الغزيرة ومحاسن السلم الرومانية الشاملة، شهدت المدينة ازدهارا كبيرا يختلف الباحثون في تقدير مداه الحقيقي. وكان محورها يوجد بدون شك فوق الهضبة التي يحتلها اليوم مقام سيدي أبي لبابة. ثم أصبحت خلال الفترة المسيحية مركزا لأسقفية. لكنه لم يتم تخصيصها إلا في زمن متأخر جداً. ويقول ش. ديل Ch.Diehl في كتابه إفريقيا البيزنطية، ج I، ص 229، ما يلي: « كانت قابس إلى أواسط القرن السادس على الأقل لا تزال بدون أسوار ». وقد كانت حمايتها تقتصر على وجود

قلعة Castellum تسد الطريق في وجه الزحف والهجوم عليها ، وهي طريق البرنخ أو المعبر الذي يربط ليبيا بالمزاق ويمرّ بين ساحل البحر وشط الفجاج. وفي هذا الموقع بالذات أصيبت الجيوش البيزنطية بهزيمة مرّة سنة 547 م في مجابهة مع قبيلة الأشتريكس Astrices . ولا شك أنّ مدينة قابس القديمة Tacapas قد تمّ تحصينها على إثر هذه الهزيمة بسور بقي قائما إلى القرن السادس عشر على أقلّ تقدير. هذا ولا تحتفظ قابس اليوم بأيّ معلّم من معالم ماضيها القديم ... وقصارى ما يمكن ذكره في هذا الباب بقايا «السدّ الروماني» على وادي قابس، وبعض الاساطين والتيجان المعاد استعمالها في جامع سيدي إدريس أو في مقام سيدي أبي لبابة، وبعض مواد أخرى أقلّ أهمية من ذلك استعملت في عدد من مباني الأحياء القديمة .

أما الظروف التي تم فيها دخول قابس في حظيرة الاسلام فهي محفوفة بالغموض. لكنه من الثابت مع ذلك، ورغم تأكيدات الوزير السراج المتأخرة العهد (انظر الحل ج I ، ص 344)، ان عبد الله بن سعد لم يحاصرها أثناء غزوته ببلاد المزاق سنة 27 هـ 648/647 م... فلم يتم فتحها إلا بعد ذلك بزمان، خلال الحملات التي قادها معاوية بن حديج أو خلفه عقبة بن نافع بين سنتي 34 و 50 هـ 650/ و 670 م. ثم تمّ الجلاء عنها بعد انهزام عقبة وموته بتهودة (حوالي سنة 64 هـ/ 684 م) فاستقر كسيلة القائد البربري المنتصر بالقيروان. ومن هناك بسط نفوذه، حسبما يذكره ابن عبد الحكم (انظر الفتوح، ص 71/70) على المناطق المجاورة ومنها منطقة « باب قابس »، ومن هذا الباب قامت جيوش الكاهنة حوالي سنة 74 هـ / 693 - 694 م بطرد حسان بن النّعمان خارج البلاد التي جاء بنية استرجاعها. لكنّه عاد فدخل هذه البلاد من نفس الباب بعد مرور بضع سنوات .

ومنذ ذلك الوقت دخلت قابس نهائيا في نطاق الاسلام وأصبحت حياتها جزءا لا يتجزأ من حياته. ولم تسلم بالخصوص من الزوبعة الخارجية العنيفة التي هزّت أركان افريقية بأكملها بين سنتي 122 و 155 هـ 740/772 م. ففي سنة 123 هـ 741 م. قام عكاشة بن أيوب الفزاري، وهو من قبيلة زناتة ومن أتباع مذهب الصفرية، بالاستيلاء على قابس، وأصبح خطره يهدّد القيروان حتى هزم وقُتل (سنة 125 هـ 743 م). وبعد ذلك ببعض سنوات، وفي ولاية

عبدالرحمان بن حبيب، سقطت المدينة من جديد في قبضة الخوارج، من أتباع الإباضية في هذه المرة. وقد جرى استرجاعها مرة أخرى وتم التغلب على الثائر اسماعيل بن زياد النفوسي وقتله حوالي سنة 131هـ/748م وكان اغتيال عبد الرحمان بن حبيب (سنة 137هـ / 755 م) مؤذنا باندلاع قلاقل أخرى واشتعال نار ثورة خارجية جديدة بقيت المدينة خلالها في أخذ ورد بين ممثلي الاتجاهات والمذاهب المتقابلة المتصارعة. فقد استولى عليها أبو الخطاب الاباضي في أوائل سنة 141هـ / وسط سنة 758 م. وقام ابن الأشعث بتخليصها سنة 144هـ/761م. قبل أن تفلت من يده مرة أخرى. وفي خاتمة المطاف دخل المدينة يوم 20 جمادى الأولى من سنة 155هـ / 28 أبريل 772م. يزيد بن حاتم المهلبى مؤسس الدولة المهلبية واضعاً بذلك حداً، طيلة ربع قرن، للاضطرابات الدامية التي عمّت المنطقة على امتداد عشرات السنين .

وفي عهد الدولة الأغلبية أصبحت قابس مركزاً لمقاطعة كاملة ومقرّاً لواليها، وقد ذهب الظنّ ببعضهم - بناء على قول الشماخي (في السّير، ص 203) الذي يشير إلى أنه كان يوجد بالمدينة «عامل» للإمام عبد الوهاب (168 - 208 هـ / 784 - 823 م) - أن قابس كانت تابعة للدولة الرستمية. وفي حقيقة الأمر فإن هذا « العامل » لم يكن إلا جابياً كان يجمع الصدقات من الإباضيين المستقرين بمنطقة تلك «العمالة» ويوجّهها بطريقة تغلب عليها السرية والكتمان إلى تاهرت. ذلك لأننا نعلم بصورة قطعية أن المدينة لم تخرج قطّ طوال القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، عن سلطة القيروان السياسية. وقد كانت تلك الفترة بالنسبة إلى قابس عهد سلام شامل لم يكدره سوى المعركة التي قام أثناءها الأمير ابراهيم الثاني في سنة 283هـ / 896 م - غير بعيد عن أسوار المدينة - بسحق ثورة الإباضيين من قبيلة نفوسة الذين تفاقم خطرهم على الدولة. وفي القرن الرابع هـ / العاشر م. انتقلت المدينة إلى سلطة الفاطميين الذين ولّوا عليها بني لقمان من قبيلة كتامة، وقد خلد الشعراء ما كانوا يمتازون به من جود وكرم .

أمّا في عهد الدولة الصنهاجية فقد كانت قابس أقلّ سكينه وهدوءاً وأفتتح هذا العهد بثورة قام بها الخوارج اكتسحت فيها المدينة وألحقت بأرباضها وضواحيها أضراراً جسيمة. وسعى الخليفة

الفاطمي الحاكم (386-411 هـ / 996-1021 م) بعد ذلك إلى فصلها، بمعية طرابلس، عن الدولة الصنهاجية، لكنه لـم ينجح في ذلك في نهاية الأمر. وقد حكم المدينة باسم الصنهاجيين بنو عامر، ثم ابراهيم أحد أشقاء باديس (386-406 هـ / 996-1016 م)، وخلفه عليهما منصور بن مواس. وآخر من حكمها من ولاة المعز الصنهاجي (407-454 هـ / 1016-1062 م) كان ابن وليّة، ثم أفلتت المدينة من حكم الصنهاجيين .

وفعلا، ففي منطقة قابس وبموقع حيدران مُني الصنهاجيون بالهزيمة الكبرى التي ألقت بقيادة إفريقية بأسرها في قبضة بني هلال. وينبغي الاعتراف بأن الهلاليين لم يلحقوا أي ضرر بالمدينة- التي كانت محاطة بأسوار حصينة - ولا بواحاتها ، رغم فقدانها كلّ حماية. وقد تمّ بدون شك الاهتمام إلى نوع من الاتفاق على التعايش بين الغزاة ووالي المدينة مقابل دفع مبلغ من المال في شكل جزية، بطبيعة الحال . ومنذ سنة 445 هـ / 1053-1054 م. أصبحنا نلاحظ لجوء عدد من أفراد الأسرة المالكة الصنهاجية إلى قابس وقد جاءوا يطلبون لانفسهم النجاة في تلك المدينة التي أصبحت بمثابة واحة أمن واطمئنان. ولم تبادر قابس إلى قطع صلتها فورا بعاصمة المهديّة. ذلك أنّ واليها المعزّ بن محمد بن وليّة لم يتخاصم مع الأمير الصنهاجي، الذي أغضبه سوء معاملته لأخويه ابراهيم وقاضي، ولم يعلن استقلاله بأمر المدينة تحت حماية مؤنس بن يحيى، إلا حوالي سنة 454 هـ / 1062-1063 م. وقد كان ذلك - فيما يذكر التجاني (انظر الرحلة، ص 96) - «أول عهد المدينة باحتلال الأعراب من بني هلال». وقد خلف إبراهيم أخاه، ثم جاء دور قاضي الذي ضج أهل قابس بظلمه وطغيانه فانفضوا عليه وقتلوه (سنة 489 هـ / 1096 م). وقد أدّى هذا الاغتيال ببني جامع - المنتسبين إلى قبيلة رياح الهلالية عن طريق بني دهمان - إلى الارتقاء إلى الحكم. أجل، إن بعض المؤرخين يؤكد لنا أنّ الخليفة الفاطمي المستنصر (427-487 هـ / 1036-1094 م)، حين رمى إفريقية بجموع بني هلال، قد كان جعل كلا من طرابلس وقابس من نصيب بطن « زغبة ». لكن هؤلاء الزغبين اكتفوا في الواقع بطرابلس فحسب، في حين قام رجل دهماني من رياح يدعى مكّي بن كامل بن جامع (انظر التجاني الرحلة، من ص 71، 97) بتأسيس دولة بقابس، بعد القضاء على أحد أشقاء الأمير الصنهاجي تميم (454-501 هـ / 1062-1108 م)، وهو

عمر بن المعزّ الذي كان أهل قابس المتمردون قد عهدوا إليه بمقاليد الحكم في بادئ الأمر. وقد خلف مكّيّا هذا ابنه رافع، وخلف رافعا عمّه رشيد بن كامل بن جامع، (حوالي 541-551هـ / 1147-1121 م) ثم خلف رشيدا - بعد فترة خاطفة من حكم المولى المغتصب يوسف - ابنه محمد بن رشيد، ثم مدافع بن رشيد.

ومنذ منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. إلى منتصف القرن السادس هـ / الثاني عشر م. - وسواء تعلّق الأمر بعهد الولاة المستقلين تحت إشراف بني رياح، أو بفترة الحكم المباشر للأمراء من بني جامع - كان تاريخ قابس متميّا بالاضطراب الشديد. وقد اتسم في الداخل بسلسلة الاجهاضات والخيبات المتمثلة في حلقات الصراع العقيم من أجل الاستئثار بالحكم، كما غلبت عليه في الخارج السياسة التوسعية التي سلكها ملوك النورمان الحاكمين بصقلية، وقد كانوا يسعون إلى السيطرة على سواحل إفريقيا. وبالرغم من عمليات حصار متعددة وغير مثمرة (في سنوات 474هـ / 1081-1082م، 479هـ / 1086-1087م، و 486هـ / 1093-1094 م . وحوالي سنة 511هـ / 1117 - 1118 م) فإنه لم يتم استرجاع المدينة من قبل اخلاف المعزّ (سنة 489هـ / 1096 م، ثم سنة 542هـ / 1147 م) إلا بشكل عابر وقصير جدا. وقد توخّت قابس في مواجهة هؤلاء الحكام الصنهاجيين سياسة تتسم بالعداوة الصريحة، ففتحت أبوابها لإيواء أعدائهم، ودفعت بجيوشها المنفردة أو المتكتلة مع غيرها من الحلفاء، في مهاجمة عاصمتهم (سنة 476هـ / 1083-1084م. وسنة 493هـ / 1099-1100م. وحوالي سنة 511هـ / 1117-1118م)، ولم تكتف بالتحالف ضدهم مع بني هلال بل وتحالفت أيضا مع نصارى النورمان من رعايا روجار الثاني الذي وجّه إلى الدعيّ المغتصب يوسف - بطلب منه - رسما بالتولية مطابقا للتراتب الجارية بمملكته وعددا من الأوسمة النصرانية، ثم سمى محمد بن رشيد خلفا له بعد أن تمّ احتلال المهديّة (سنة 543هـ / 1148 م) وكامل منطقة الساحل. ورغم كل هذه الصراعات فإن المدينة لم تتعرض إلى أضرار كبيرة فيما يبدو، بل إنها ازدانت بقصر فخم هو قصر العروسين الذي شرع في إقامته، على أقرب تقدير، الوالي ابن وليّة، وأتمّ بناءه رافع بن جامع الذي استأثر

بشرف تشييده، ولنذكر أيضا أن رشيدا قد قام في قابس بضرب السكة باسمه إمعانا منه في تأكيد استقلاله .

ثم جاء الموحدون فوضعوا حدا لذلك الاستقلال. هذا وكانت قابس قد فقدت بعد حرقتها عمليا منذ سنة 541 هـ / 1146-1147 م، بدخولها تحت حكم النورمان بما فيه من سيطرة فعلية رغم ما كان يتسم به في الظاهر من السعة والتسامح. وقد ثارت المدينة على النورمان في سنة 553 هـ / 1158 - 1159 م. ثم افتتحها أبو محمد عبد الله بن عبد المؤمن بن علي سنة 554 هـ / 1160 م. ولم تدم فترة السلام التي شهدتها إلا بضعة عقود من السنين. فسرعان ما نازع الموحدون عليها خصمان كانا يتحالفان تارة ويتعاديان طورا، وهما قراقوش صاحب طرابلس آنذاك وبنو غانية. وقد اضطر المنصور (580-596 هـ / 1184-1199 م) إلى القدوم بنفسه إلى إفريقية التي كانت على وشك الإفلات منه، فانتصر على أعدائه بالحامة (سنة 583 هـ / 1187-1188 م). وتمكن من استرجاع مدينة قابس التي كان قراقوش حليف بني غانية قد اتخذ منها قاعدة محصنة. ولم يلبث قراقوش أن عاد إلى الانتصاب بها، لكنه دخل إثر ذلك في نزاع مع حلفائه السابقين فأضاع المدينة من جديد، فعاد إليها الموحدون الذين اغتتموا تلك الفرصة السانحة. ثم عمد يحيى بن غانية - الذي قد كان خلف في الأثناء أخاه عليا - إلى محاصرة قابس (سنة 591 هـ / 1195 م) بعد أن تمكن من القضاء على قراقوش واغتصب طرابلس من يده. وقام يحيى بإتلاف واحة قابس لحمل أهلها على الخضوع، فلم يترك بها - فيما ذكر لنا - سوى نخلة وحيدة قائمة، بقيت بمثابة الشاهد. وغلب عليها يحيى فاتخذها عاصمة لملكه وبسط نفوذه على كامل إفريقية بما في ذلك مدينة تونس التي تم له الاستيلاء عليها عنوة سنة 600 هـ / 1203 م. واضطر الناصر (596-609 هـ / 1199-1213 م) إلى افتتاح كامل الجزء الشرقي من مملكته من جديد، وأنزل بيحيى بن غانية هزيمة قاضية بالقرب من قابس (في ربيع الأول من سنة 602 هـ / أكتوبر 1205 م)، واسترجع المدينة التي بقيت منذ ذلك العهد على وفائها لدولة الموحدين .

لكن عهد هذه الدولة بافريقية كان قد أشرف على النهاية. فقد كان أبو زكريا يحيى (625-647 هـ / 1228-1249 م) مؤسس الدولة الحفصية واليا على قابس عندما سمّاها الخليفة الموحد المأمون (624-629 هـ / 1227 -

(1232) أميرا على كامل إفريقيا. وقد نجح في افتتاح مدينة تونس من يد أخيه المخلوع، بمساعدة عبد الملك بن مكي، وهو صاحب ضياع وأراض وأكبر أعيان مدينة قابس تأثرا وتفوذا. ومنذ ذلك الحين بدأ نجم مكي في الصعود. وقد أصبحوا من سنة 681 إلى 796 هـ / 1282 - 1394 م. يمثلون دويلة باتم معنى الكلمة بتلك الجهة، كانت تتمتع بحكم ذاتي واسع، بل وباستقلال كامل وحقيقي. وقد كان أبعد رجال هذه الأسرة الحاكمة صيتا وأقواهم شخصية وأثرا عبد الملك بن مكي وأخوه أحمد الذي حكم بالخصوص جزيرة جربة بل واستطاع أن يبسط نفوذه مدة من الزمن على طرابلس. وقد كان هذان الرجلان الشقيقان، المنتسبان إلى قبيلة لواتة، على جانب من العلم والثقافة، فكانا يحبان تكاف هيئة الفقهاء وتصنع سلوكهم. وكانا أيضا من ذوي الفطنة والحكمة في التصرف، فاستطاعا في كثير من الأحيان أن يوجها سياسة الحفصيين إلى ما يخدم مصالحهم وأغراضهم الذاتية، وكان لهما في تحديد هذه السياسة مساهمة نشيطة ودور فعال.

وفي شهر رجب من سنة 681 هـ / أكتوبر 1282 م، فتح عبد الملك أبواب مدينة قابس للدعي المغتصب ابن أبي عمارة. (1282 - 1284)، وأعانه على الاستيلاء على الحكم بتونس. ومن باب ردّ الجميل أهدى إليه ابن أبي عمارة « جميع الجواني الموجودات في قصر السلطان الهالك » (راجع برنشفيك، الدولة الحفصية، [النص الفرنسي] ج II ص 106) واتخذ وزيراً وخوّل بالخصوص سلطات مالية واسعة. لكن حكم ابن أبي عمارة لم يدم طويلا، فرجع عبد الملك إلى منطقة نفوذه بقابس. وفي سنة 1286 م قام الأمير أبو زكرياء بمحاصرة المدينة وبإتلاف واحتها ونخيلها. ولم يبق عبد الملك قاعدا مكتوف الأيدي خلال الاضطرابات التي تلت ذلك - فساند سنة 1287 - 1288 م. لكن بدون جدوى في هذه المرة - الدعي ابن أبي دبّوس القائم ضدّ الأمير إبي حفص (683 - 692 هـ / 1284 - 1293 م). وفي سنة 693 هـ / 1294 م. أعلن الخروج عن طاعة حكام تونس والولاء لحكم بجاية، حيث عمد أحد أحفاد أبي زكرياء الأول الذي كان حاصر قابس سنة 1286 م، إلى المطالبة بميراث جده في الحكم. وفي سنة 732 هـ / 1332 م. وجد لديه عبد الواحد اللحياني، وهو أحد المطالبين بالحكم أيضا، العون والمؤازرة ضدّ الأمير أبي بكر (718 - 747 هـ / 1318 - 1346 م). وقد شهدت السنوات التالية بلوغ بني مكي أوج قوتهم. وقد نجحوا انطلاقا

من سنة 751 هـ / 1350 م.، بما كانوا يتميزون به من مناهضة للحاجب ابن تفرجين المشهور بقوّته وبشدّة مكره ودهائه، في توسيع منطقة نفوذهم وترسيخ دعائم سلطانهم وقد بلغوا من المكانة وبُعد الصيت حدّا دفع بدولة البندقية حوالي سنة 1355 م إلى إبرام معاهدة منفصلة معهم كان لهم فيها غُنى كبير. وفي نطاق عدائهم المتواصل لحكام تونس قام بنو مكي بمؤازرة بني مرين في زحفهم الثانية على البلاد (سنوات 752 - 757 هـ / 1352 - 1356 م) بقيادة السلطان أبي عنان .

وبعد بضع عقود من السنين كان طول عهد حكم الأمير أبي العباس (772 - 796 هـ / 1371 - 1394 م) مؤذنا بالنسبة إلى كل مدن الجنوب بنهاية استقلالها. ولم يتيسر مع ذلك استرجاع مدينة قابس بصورة هيّنة. وفي شهر ذي القعدة من سنة 781 هـ / فيفري - مارس 1380 م. تم الاستيلاء على المدينة وسمّي يوسف بن الأبار واليا عليها لبني حفص. وبمجرد حلول السنة الموالية استولى أحد أحفاد عبد الملك بن مكي - ويدعى عبد الوهاب - على كامل المدينة وقتل واليها. فاضطر أبو العباس إلى محاصرتها بنفسه سنة 789 هـ / 1387 م. وقام بقطع نخيلها لحملها على الاستسلام ، مما أدّى - حسب قول ابن خلدون - الى تطهير مناخها وصحة هوائها » بعد أن كانوا يستوخمونه لاختفائه بين الشجر وفي متكاتف الظلال وما يلحقه بذلك من التعفن». عند ذلك أعلن عبد الوهاب الطاعة وقدم أحد أبنائه رهينة في يد السلطان الحفصي ودفع إليه غرامة كبرى. لكن عبد الوهاب قُتل في سنة 792 هـ / 1390 م. على يد عمه يحيى بن عبد الملك ابن مكي الذي استبد بأمر قابس. وفي سنة 796 هـ / 1393 - 1394 م، ظفر الأمير عمر ابن السلطان أبي حفص بيحيى ف ضرب عُنقه. وانقرض أمر بني مكي وانتهت فترة استقلال قابس وانفرادها بأمرها .

ومنذ ذلك العهد لم تلفت المدينة الانتباه إليها إلا نادرا. وقد أفلتت من جديد ، مثل كامل جنوب البلاد ، من يد آخر ملوك بني حفص الذين دخلوا في حماية الإسبان، قبل أن تنضوي مع كامل البلاد التونسية - التي منحت نظام ولاية «باشاليك» (سنة 1574) - تحت حكم الأتراك. وقام عثمان داي، الذي بذل جهودا كبرى من أجل إعادة السلم إلى ربوع البلاد، بتركيز جالية من «الكوغلّية» - أي من الخلاسيين المولّدين من آباء أتراك وأمّهات من أهل البلد - بناحية «جارة» من مدينة قابس .

هذا وبحكم عمران المدينة بالحضر من السكان مع وجودها على مشارف الصحراء ، فقد تضررت أكثر من غيرها من المدن الأخرى من جراء حالة الفوضى التي سادت البلاد قبيل الاحتلال الفرنسي. وكان يتلاقى على استنزافها كل من أعراب البادية- الذين كانوا يغورون في رمال الصحراء أو يلوذون بالأراضي الليبية عند اقتراب العساكر النظامية - والأعوان التابعين لسلطة البايات . لذلك لم تسلم المدينة من ويلات ثورة علي بن غزايم (1864 م)، رغم أنها لم تكن في قلب ذلك الصراع. وفي سنة 1870 م. قام الخازندار بنهب المدينة بأتم معنى الكلمة .

وإبان انتصاب الحماية الفرنسية حدث نزاع بين البلديتين المتنافستين اللتين تتألف منهما المدينة بخصوص الموقف الذي ينبغي اتخاذه. فاختار ربض « جارة » الخضوع، ومال ربض « المنزل » إلى المقاومة، مما جعل احتلاله يستوجب شيئا من المشقة، إذ بدأ يوم 24 جويلية 1881 م ولم يقع استكماله إلا في آخر شهر نوفمبر وبعد تدمير التحصينات تدميرا كاملا .

وأثناء الحرب العالمية الثانية تمت إقامة خطّ دفاعي بمارث (جنوبي مدينة قابس)، مما عرّض المدينة إلى القذف العنيف بالقنابل وألحق بها جسيم الأضرار، دون أن يجنبها كلّ ذلك السقوط في قبضة المحتلين الألمان (19 نوفمبر 1942). ثم استرجعتها القوات البريطانية والفرنسية يوم 29 مارس 1943.

الجغرافيا التاريخية : عرّفت قابس بأنها «واحة بحرية» ، وهو تعريف صادق. وقد اقترن ازدهارها على اختلاف العهود بخصب زراعاتها الغزيرة النموّ وبنشاط مرفئها كمنفذ طبيعي للتجارة الصحراوية. وقد كان المؤرخ سترابن Strabon (الذي عاش من حوالي سنة 58 ق، م، إلى حوالي سنة 25 بعد الميلاد) يصفها بعد بأنها « سوق عظيمة » يتبادل الناس فيها البضائع الواردة من المناطق الصحراوية والسلع الموجهة نحو نوميديا. ويتحدث المؤرخ بلين الأكبر Plin l'Ancien (23 - 79 بعد الميلاد) عن اقتسام مياه الرّيّ بالعدل بين السكان على أساس نسبة محددة - وهو نظام مازال قائما إلى اليوم - وعن ازدهار الزراعات المصنفة إلى ثلاث درجات من الارتفاع : أشجار النخيل ، ثم أشجار الزيتون والتين والرمان وكروم العنب، ثم زراعة الحبوب والبقول والخضر.

ويجب بعد ذلك انتظار حلول القرن الثالث هـ / التاسع م. للحصول على

معلومات جغرافية أخرى مدققة عن مدينة قابس بعد أن دخلت الإسلام. فهذا ابن خرداذبه (المتوفى سنة 272 هـ / 885-886 م) يكتفي بالإشارة إلى أنها «مدينة الأفارقة الاعاجم» (انظر المسالك، ص 6 / 7). وفي هذه العبارة ما يوحي بأن «الأفارقة» - أي الأعقاب المنحدرين من اليونان والرومان وكذلك من البربر، غلب عليهم الطابع اللاتيني والعقيدة المسيحية - كانوا يشكلون العنصر الأساسي الغالب من سكان المدينة. وهؤلاء «الأفارقة» هم بالتأكيد أولئك الذين يطلق عليهم اليعقوبي (المتوفى حوالي سنة 282-292 هـ / 895-905 م). اسم «العجم»، مضيفاً أن سكان المدينة كانوا «كثيري الاختلاط» وأنه قد كان فيهم أيضاً العرب والبربر. ويذكر اليعقوبي أيضاً أن قابس كانت «مدينة ذات شأن وازدهار» وأنها «كثيرة الأشجار والثمار».

وفي منتصف القرن الرابع هـ / العاشر م. يذكر ابن حوقل أن أكثرية أهلها من البربر ويشير إلى وجود جالية من اليهود بها كانوا يخضعون لضريبة خاصة، ويلاحظ ابن حوقل أن الطبيعة لم تميز سكان المدينة بقدر كبير من الجمال والنظافة (راجع صورة الأرض، ص 72 ترجمة كرامرز - فيات Kramers-Wiet، ص 66). كما يذكر لنا بالخصوص، من بين منتجاتها الكثيرة المتنوعة، الزيت والصوف، وكميات كبيرة من الحرير الجيد الممتاز، والجلود الناعمة للمس الزكية الرائحة التي تصدر إلى كافة أنحاء المغرب. لكن المناطق الخلفية للمدينة كانت - مع الأسف - تعج باللصوص من الخوارج الذين عمدوا إلى نهب الرطب وإحراقه، مركزين هجوماتهم بشكل خاص على ممتلكات الباعة وأهل الذمة.

وفي نهاية القرن السادس هـ / العاشر م. يقول عنها المقدسي إنها مدينة «أصغر من طرابلس»، وإنها «مبنية بالحجارة واللبن، كثيرة النخيل والعنب والتفاح» (راجع أحسن التقاسيم، 12 / 13). وإن «أراضيها الخلفية أهلة بالبربر» وإن بسورها «ثلاثة أبواب».

أما الوصف الذي يقدمه لنا البكري عن المدينة - وقد أخذه عنه الجغرافيون اللاحقون في الغالب - فهو الأكثر تفصيلاً. وهو يعود إلى وسط القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. أي إلى العهد الذي كان يحكمها فيه ابن ولية بحماية مؤنس بن يحيى من شيوخ بني هلال. كانت المدينة آنذاك لا تزال قائمة داخل سورها العتيق المبني بالحجر

المنحوت والذي يحرق به خندق تتدفق فيه المياه عند الإنذار بالخطر. لكن المدينة قد شهدت تطورا كبيرا منذ عهد ابن حوقل. فقد أحاط بها بالخصوص عدة أرباض بالجنوب والشرق — بدل الربض الوحيد — وعدد من الأسواق والفنادق ، مما يدل على نشاط تجاري واسع. وقد ازدادت بجامع فخم وأصبح بها عديد الحمامات .

أما النقص الوحيد الذي كان بها، فهو الفساد الذي طرأ على مناخها — وهو فساد حادث لم يعهد فيها من قبل — بسبب إتلاف طلسم تم العثور عليه أثناء التنقيب عن بعض الكنوز. وأسطورة الطلسم هذه تشير بالتأكيد إلى تهديم معالم قديمة عتيقة كانت تقع داخل المدينة على مرتفعات سيدي أبي لبابة المشهورة بطيب هوائها وسلامة مناخها، ثم إلى بناء الأرباض ابتداء من منتصف القرن الرابع هـ / العاشر م في المنخفض الذي يحرق به منعطف الوادي. وفي نهاية القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. كان أبعد الأرباض عن السور القديم — وهو الذي كان يحتل موقع حي «جارية» الحالي — قد تم تمصيره وتمدينه تماما كما تشهد بذلك مساجد سيدي ادريس وسيدي الحاج عمر وسيدي ابن عيسى، التي ينسب ج. مارسى G.Marçais بناءها إلى أسرة بني جامع (انظر الهندسة المعمارية، ص 77 — 78)، والتي نجدها متجمعة كلها في هذا الحي. وقد لاحظنا إعادة استعمال بقايا من معالم الماضي في بناء هذه المساجد وغيرها من المباني القديمة. وهكذا فمنذ منتصف القرن الخامس هـ / العاشر م. بدأت المدينة العتيقة تخلو من السكان لتزول نهائيا فيما بعد، تاركة المجال للأرباض. وقد أدى ذلك إلى فساد الهواء ورداءة مناخ حياة السكان ، وهو الأمر الذي شمر به كل الرحالة والجغرافيين انطلاقا من البكري في حين لم يذكره أحد من قبل .

وكان سكان المدينة — فيما يذكره البكري — ينقسمون إذ ذاك إلى عرب و«أفارقة». مما يشير إلى أن عملية امتزاج الأجناس والعناصر لم تبلغ بعد حدّها النهائي. وقد كان هؤلاء السكان موضع تلميحات ساخرة. ينقلها لنا مؤلف المسالك في شيء من مجارة أصحابها وتزكية أقوالهم — بسبب خلو مساكن المدينة من المراحض واستعمال أهلها السمار البشري لإخصاب الحقول والأجنة، وهي عادات لا تزال كلّها قائمة إلى اليوم (انظر ع. البشراوي، الحياة الريفية في واحات قابس، ص 317). وقد

كان البربر يسكنون الأخصاص ويقيمون في الأكثر بالمناطق الخلفية من ضواحي المدينة. وهم يتكونون أساساً من قبائل لواته ولماية ونفوسه ومزاتة وزواغة وزوارة وبعض مجموعات أخرى أقل أهمية وشهرة. وكانت واحة قابس تنتج كميات كبيرة من الموز ومن قصب السكر وكل أصناف الثمار التي كانت تزود بها مدينة القيروان. وكانت تنفرد في بلاد إفريقية بغابة واسعة من شجر التوت تسمح لها بإنتاج كميات وافرة من الحرير الجيد الممتاز. ولندكر في هذا الصدد أن وثائق « الجنيزة » Geniza تثبت أن إفريقية كانت في القرن الخامس هـ. / الحادي عشر م. من أكبر مصدري الحرير. لكن س. د. غويتاين S.D. Goitein لم يعثر بها على أية إشارة واضحة محددة إلى مدينة قابس. ويشير البكري في خاتمة كلامه إلى أن مرسى المدينة كان معلماً عليه بمنارة طالما تغنى الشعراء بروعتها - وهي منارة لم يبق منها اليوم سوى الموقع فوق مرتفع لا يزال يُطلق عليه اسم المنارة - وأن هذا المرسى يستقبل السفن والمراكب « من كل أنحاء الدنيا » .

وفي منتصف القرن السادس هـ. / الثاني عشر م. يتحدث الإدريسي كذلك عن « الأفارقة »، لكن بصورة عارضة. وليس هناك من شك في أن أولئك الأفارقة لم يعودوا يشكلون في ذلك العهد مجموعة هامة فعلاً ومتميزة عن بقية سكان المدينة. ويضيف الإدريسي أن أهل المدينة « ينقصهم اللطف والرقّة لكن لباسهم مقبول ونظيف » (راجع الفزّهة، ص 77). وقد كانت المدينة لا تزال آنذاك في أوج ازدهارها ونهضتها. ويمدح الإدريسي بالخصوص إنتاجها من الرطب، وهو ضرب من التمر المعسلة يتم ادخاره في جرار ضخمة. وكانت لا تزال تنتج الزيت « وتُصدره بوفرة في كلّ صوب ». إلا أنها قد كانت شهدت بعض التغيير: فقد أصبح ميناؤها صعب الإرساء بسبب ارتفاع الرواسب وقلة عمق المياه وشدة الرياح بعد أن كان من قبل، حسب ما يرويه البكري، مزدحماً بالمراكب. ولم نجد نجد ذكراً للمنارة البحرية. أما صناعة الحرير المتدهورة فقد لجأت إلى قرية « قصر سجة » بمنبع الوادي. وعلى عكس ذلك فقد احتلت صناعة الجلد المكانة الأولى. وقد كان ابن حوقل نوّه بها من قبل في حين سكت البكري عن ذكرها .

أما ياقوت، الذي كان يؤلف في أوائل القرن السابع هـ. / الثالث عشر م.

فهو لا يفيدنا بجديد، مكتفيا بنقل ما كتبه البكري حرفياً. ويصف ابن الشباط (618 - 681 هـ / 1221 - 1282 م) قابس - فيما نقله عنه الوزير السراج - بأنها «مدينة كبيرة» ويؤكد أنه يمكن تصنيف أهلها إلى ثلاثة عناصر : عرب وبربر و«عجم» أي «أفارقة». وهذه آخر مرة نجد فيها إشارة إلى انقسام سكانها إلى هذه العناصر الثلاثة. وفي أواخر القرن السابع هـ / الثالث عشر م. خرج العبدري من عبوره المدينة في طريقه إلى الحجّ بارتسام سيء جداً، فقال عنها انها مدينة قذرة كريهة الروائح، وإن غرور أهلها على قدر جهلهم وفجورهم .

أما ما يذكره عنها التجاني - الذي أقام بها أربعة أيام في أواسط جمادى الأولى من سنة 706 هـ / أواخر نوفمبر 1306 م. فهو من طراز مغاير تماماً. فهو ينادي بإعجابه قائلاً : « هي مدينة جميلة بحرية وصحراوية ، وهي جنة على الأرض، وهي بعبارة أوجز دمشق الصغرى » إلا أن تحولاً عميقاً كان يصعد الحدث. فقد كان السور القديم لا يزال قائماً بدون شك، لكن محور النشاط انتقل نحو «الأرباض الواسعة التي كانت تُؤوي أكثر الأسواق» (راجع الرحلة، ص 86-87). وفي قلب المدينة كانت مئذنة المسجد الجامع قد فقدت توازنها ومالت ميلاً منذراً بالخطر. أما قصبة المدينة وقصر بني جامع وهو « قصر العروسيين العجيب الذي لا مثيل له في الدنيا» فقد أصبح خراباً (الرحلة، ص 94-95). وكان هواء المدينة أَوْخَم ما يكون، ووجوه الناس مصفرة، والأوبئة متفشية متواترة بسبب نباتات الدفلة التي يلوّث المياه - فيما يذكره التجاني - باستثناء منبعي « عين الأمير» و « عين سلام » .

ثم يجب بعد ذلك انتظار أول القرن السادس عشر - أي ما ذكره الحسن بن محمد الفاسي (المعروف بليون الافريقي : Jean-Léon l'Africain - الذي زار البلاد التونسية في سنة 1517 (الوصف، ج II، ص 398) للاستفادة بتفاصيل أخرى حول تطور مدينة قابس. فقد كانت لا تزال، فيما يبدو، «مدينة عظيمة»، وكانت « الأسوار العالية القديمة » لا تزال تحيط بالمدينة العتيقة. لكنّ «إقدام الأعراب على نهبها وإتلاف ما فيها قد أدى إلى نزولها وانحطاطها» . فتشتت سكانها في أنحاء الواحة. «وكانوا سود البشرة، بائسين فقراء، يشتغلون بفلاحة الأرض أو بصيد السمك. وقد تلاقى على استنزاف ما بيدهم من النّزر القليل كلّ من أعراب البادية وملك مدينة

تونس » (راجع الوصف، ج II ، ص 398). وبعبارة أوجز فقد بلغت المدينة إذ ذاك حدّ الانهيار الكامل والافلاس التام ، فلم نعد نسمع شيئا عن ثمارها الوفيرة ولا عن صناعاتها وصادراتها نحو كلّ الجهات. ولم نعد نأثس كلمة عن نشاط مرفئها ولا عن حركة أسواقها. فقد قضى اختلال الأمن وانعدامه على حركة البيع والشراء والمبادلات بما في ذلك التجارة عبر الصحراء التي كان لها ذلك الأثر العميق - عن طريق التزاوج مع الجوّاري السود من الرقيق - في لون بشرة سكان المدينة الذين أصبحوا يشكلون في آخر الأمر مجموعة منسجمة من العناصر وحد صفوفها الشقاء والبؤس .

وفي منتصف القرن التاسع عشر لم يتمكن ف. غيران V.Guérin من العثور على أي أثر للسور العتيق، ولم تبق سوى تلك المساكن المتداعية بمنطقتي «المنزل» و « جارة » والتي لا تكاد تستحق اسم البيوت، حسب رأي لافيت وسرفوني F.Laffite et I. Servonnct وكانت « المنزل » تعدّ عندئذ 3,500 ساكن في حين تعدّ « جارة » 4,000 ساكن، وذلك من عدد جملي لكامل سكان الواحة كان يقدر بـ 10,000 نسمة تقريبا. وفي سنة 1873 خطرت ببال القبطان رودار Roudaire فكرة إيجاد بحر داخلي بإغراق منطقة «الشطوط» بواسطة قنال يربط بينها وبين خليج قابس. لكن الدراسات كشفت عن استحالة تطبيق هذا المشروع بصورة عملية .

ثبت المراجع

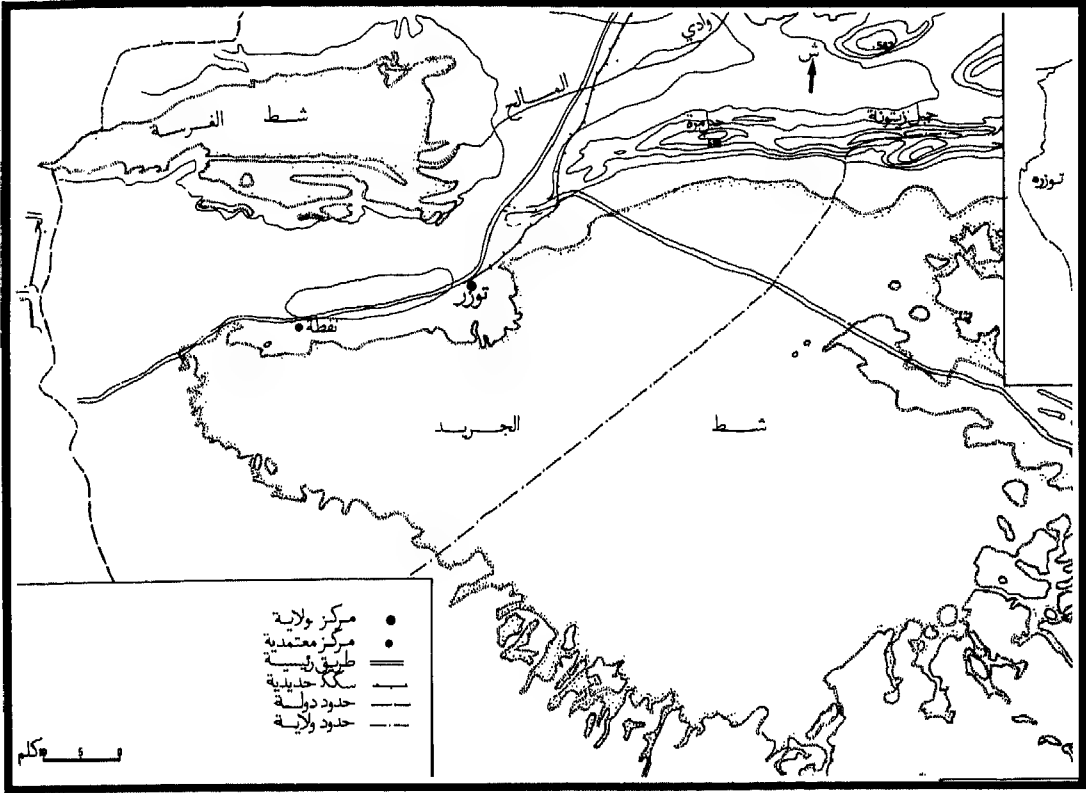
- المصادر الجغرافية (مرتبة حسب التسلسل الزمني) : ابن خرداذبه المسالك، وابن الفقيه، البلدان ، تحقيق وترجمة جزئية لحاج صادق بعنوان وصف المغرب ... Description du Maghreb ، الجزائر 1949 ، ص 6 / 7
- مع التعليق 57 ص 30 / 31 ؛ اليعقوبي، البلدان، ترجمة ج فيات G. Wiet ، القاهرة 1937 ، ص 208 ؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ط. بيروت، بدون تاريخ
- ص 72 - 73 ترجمة كرامرز - فيات Kramers - Wiet ، ص 66 - 67 ؛ المقدسي أحسن التقاسيم، تحقيق وترجمة جزئية لشارل بيلا Ch. Pellat بعنوان وصف المغرب Description de l'Occident ، الجزائر 1950 ، ص 4 / 5 ، 12 / 13 / 64
- 65 و 66 / 67 ؛ البكري، المسالك، تحقيق وترجمة دي سلان de Slane
- باريس 1965 ، ص 7 / 22 ، 17 - 19 / 41 - 44 ، 19 / 45 ، 102 / 85 ، 172 ؛ الادريسي،
- النزهة تحقيق جزئي لهنري بيراس H. Pérès ، الجزائر 1957 ، ص 76 - 77 - 89 - 94

ياقوت، البلدان، بيروت 1957، ج IV، ص 289-290؛ العبدري، الرحلة، تحقيق ابن جدو، قسنطينة بدون تاريخ، ص 68-69: التجاني، الرحلة، ط. تونس 1958، ص 58، 68، 71، 86-117؛ صفي الدين البغدادي، المراسم تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة 1954، ج III ص 1054؛ ليون الافريقي Jean Léon l'Africain وصف افريقيا Description de l'Afrique، ترجمة عن اللاتينية لإيبولار A. Epaulard، باريس 1956، ج II، ص 398، 549 الوزير السراج، الحل، تحقيق م.ح. الهيلة، تونس 1970 ج I ص 342-373، 847-848، 962؛ ف.غيران V.Guérin رحلة أثرية في الإيالة التونسية Voyage archéologique dans la Régence de Tunis، باريس 1862 ج I ص 190-197؛ زاكون Zaccone تقييدات عن الإيالة التونسية Notes sur la Régence de Tunis، باريس 1875 ص 152-162؛ ريبيلي Rebillat، جنوب البلاد التونسية Le Sud de la Tunisie، ط. سوسة 1886، ص 15-101؛ ف. لافيت و ج. سرفوني J. Laffite et J. Servonnet خليج قابس في سنة 1888 (Le golfe Gabes en 1888) (ط. باريس 1888، ص 216-240، 315-332 مونوار Maunoir، يوميات الطريق Journal de route، باريس 1905، ص 67-71.

- الدراسات :ع. البشرابي، الحياة الريفية في واحات قابس La vie rurale dans les Oasis de Gabès (أطروحة دكتوراه مرحلة ثالثة قدمت سنة 1970)؛ ر.برنشفيك R. Brunschvig الدولة الحفصية Hafside، الفهارس؛ ل.كارطون L.Carton) رسالة في أشغال الري الرومانية بجنوب الإيالة التونسية Essai sur les travaux hydrauliques des Romains dans le Sud de la Régence de Tunis في مجلة Bull-Arch، تونس 1888، ص 438-465؛ ج ديبوا J.Despois افريقيا الشمالية، باريس 1958، الفهارس؛ ش. ديل Ch. Diehl افريقيا البيزنطية، باريس 1896، ج I، ص 228-233؛ ج II، ص 414-535؛ ل. فوشي L.Foucher حضر موت Hadrumetum، باريس 1964، ص 322-321 ج. غانياج J.Ganiage أصول الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية (1861-1881) باريس 1959، ص 36، 138، 145، 219، 236، 467 س.د. غويتاين S.D.Goitein، مجتمع متوسطي A.Mediterranean لوس انجلس 1967، ج I، ص 102، 278، 279، 469؛ س. غزال S.Gsell التاريخ القديم لافريقيا الشمالية، باريس 1913-1928، ج I، ص 64، 65، 203-204 ج II، ص 125-126، ج V، ص 247 ج. هيلار J.Hilaire خلاصة عن

الحفريات التي تمت سنة 1898 بموقع قابس القديمة، مجلة Bull.Arch،
 تونس 1900، ص 115 - 125؛ هـ. ر. إدريس H.R Idris الدولة الصنهاجية -
 ridcs الفهارس؛ ش. أ. جوليان ch.A.Julien، تاريخ افريقيا الشمالية، باريس
 1956، الفهارس؛ ع. العروي، تاريخ المغرب العربي، باريس 1970، الفهارس؛
 ج. مارسى G.Marçais المعمار الاسلامي بالمغرب العربي، باريس 1954، ص
 77 - 87؛ أ.مارتال A.Martel التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد
 التونسية (1881 - 1911)، باريس 1965، الفهارس؛ المرزوقي، قابس جنة
 الدنيا، تونس 1962، 310 صفحات؛ ج. ف. موليزان J.F.Molezum آثار
 تاكابس، مجلة Bull.Arch، تونس 1885، ص 126 - 131؛ ب. روماني P.Romanelli
 تاريخ المقاطعات بافريقيا الرومانية بافريقية Storia delle province romane
 dell'Africa' (رومة 1959) (انظر الفهرس)؛ محمد الطالبى الدولة الأغلبية،
 باريس 1966، الفهارس؛ ش. تيسو "Ch.Tissot"، جغرافيا للمقاطعة
 الرومانية بافريقيا، باريس 1884، ج II، ص 31، 196؛ ب. التركي، التلخص
 من الصحراء نوويا، ارجاع البحر الداخلي بالمغرب الأوسط
 La dessaharation nucléaire = rétablissement de la mer intérieure au Maghreb central
 التقرير الفني رقم 23 (1968) بمندوبية الطاقة الذرية، تونس؛ أ.س.
 زغلول - تاريخ المغرب العربي، القاهرة 1965، الفهارس؛ ب. أورجلس
 B.Orgels واحة قابس، ضمن مراسلة الشرق Correspondance d'orient، 1968،
 ص. 3 - 89 .

(*) 92258 ساكن (حسب التعداد السكاني بقابس سنة 1984).



قَسْطِيبِيَّة

قسطيلية أو قسطيلية أو قسطيلية اسم لموقع بالبلاد التونسية، أطلق في العصر الوسيط تارة على مدينة (وهي تُوْزَر أو تُوْزَر)، أو في الأغلب على كامل المقاطعة التي كانت هذه المدينة قاعدتها ومركزها، وهي بلاد الجريد الحالية التي تكوّن اليوم جزءاً من ولاية قفصة (*) (321000 نسمة، 17,45 كلم مربع حسب إحصاء سنة 1966)، والتي تشمل منطقة الشطوط. والثروة الرئيسية لمنطقة الجريد لا تزال كما كانت في الماضي تتمثل في أشجار النخيل المثمرة، وعددها مليون شجرة تقريبا، منها نسبة 31٪ من صنف نخيل «الدقلة» التي يتهافت الناس على طلبها، (استطلاع سنة 1962). وتوفّر السياحة الصحراوية - المدعّمة بتجهيزات فندقية من الصنف

الممتاز جدا أحيانا - موارد تكميلية ذات قيمة بالنسبة إلى هذه الجهة التي تعتبر اليوم من المناطق المحرومة (**))

التاريخ : إن قسطنطينية التي سبق إخضاعها مرة أولى على يد عقبة بن نافع فيما يظهر، قد تم فتحها نهائيا للإسلام صلحا وبدون قتال على يد حسان بن النعمان. وهذا ما يفسر ما كان يلقاه سكان هذه المنطقة المسيحيون، نسبيا، من حسن معاملة وطيب عيش. ومنذ ذلك العهد لم يبق تاريخ هذه المنطقة بطبيعة الحال، بمعزل عن الاضطرابات والفتن التي هزت سائر أنحاء إفريقية ولا سيما تلك التي ترتبت عن ثورات الخوارج في أواسط القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وعن تمرّد الجند في عهد الدولة الأغلبية والحرب ضد داعي الفاطميين وثورة أبي يزيد النكاري. ووجد المذهب الإباضي في خضم هذه الفتن فرصة لكسب العديد من الأتباع بالمنطقة. كما لاقى المذهب الشيعي بعض النجاح لاسيما بنقطة. وقد ساعدت زحفة بني هلال في منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. هي الأخرى، على ظهور مملكة صغيرة بالمنطقة، سرعان ما احتوتها مملكة بني الرند بقفصة. وقد نازع الموحدون بعد ذلك على قسطنطينية أحد المغامرين، ويدعى قراقوش، ثم أمراء بني غانية. وفي عهد الدولة الحفصية، في أوائل القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م.، قامت بالمنطقة مملكة صغيرة أخرى يحكمها بنو يملول بمساعدة «مشيخة» أو مجلس أعيان. وعاشت هذه المملكة حياة شديدة الاضطراب حتى تم القضاء عليها - مع الدويلات المحلية الأخرى - على يد الأمير أبي فارس (سنة 802 هـ/ 1400 م). وفي آخر الأمر تفاقم البؤس بصورة خطيرة أثناء فترة الفوضى التي شهدتها البلاد في القرن التاسع عشر وأصبحت المنطقة عمليا بدون حماية ووقعت تحت ضربات البدو الناهبين المبتزين من جهة ، وتحت وطأة الجبايات والضرائب المرهقة التي كانت تفرضها السلطة المركزية من جهة أخرى .

الجغرافية التاريخية : إن لفظ قسطنطينية لا يقتصر استعماله كاسم موقع على البلاد التونسية فحسب. فهذا ياقوت (ج، IV، ص 347 - 348) يذكر قسطنطينية بالاندلس، وقسطنطينية بجهة البيرة. وهو يشير أيضا إلى القسطنطينية اسم موضع بين حلب ودمشق. وقد كانت قلعة «ميزارفلتا» العتيقة بين تبنة وبسكرة سُميت أيضا بقسطنطينية. ومما لا شك فيه أن هذا الاسم من أصل لاتيني، وهو مشتق من « كاستل » جمع « كاستلوم » (Castellum, Pl)

Castella) بمعنى القلعة. وقد أطلقه الفاتحون العرب أول الأمر على توزر(Thusuros) أهم قلاع المنطقة الحدودية المستندة إلى الواحات، ثم عمّموا هذا الاسم على كامل المنطقة الراجعة إليها بالنظر. ويقول اليعقوبي (المتوفى حوالي سنة 282 - 292 هـ / 895 - 905 م) إن هذه المنطقة تشمل أربع واحات « أولاهها وأهمّها تسمّى توزر، وبها مقرّ الولاية، والثانية هي الحامّة، والثالثة تقيوس، والرابعة نفطة » (انظر البلدان، ص 212). وقد زالت منهُما اليوم تقيوس (Thiges) التي حلّت محلّها دقاش. ونفس هذا التحديد للمنطقة يرد أيضا عند معظم الجغرافيين العرب اللاحقين، ولاسيما عند البكري وياقوت. أمّا ابن حوقل والمقدسي والإدريسي فإنهم يوردون وصفا للمدينة فقط دون ذكر لحدود المنطقة. لكننا قد نشاهد أحيانا بعض المؤلفين المتأخرين يتوسّعون كثيرا بحدود منطقة قسطلية - التي أصبحت تدعى بلاد الجريد - ويجعلونها تشمل قفصة شمالا وبلاد نفزاوة في جنوب الشطوط (انظر ابن خلدون، كتاب العبر، ج VI، 199)، بل ويقحمون فيها حتى بسكرة وقابس وجزيرة جربة (انظر الحسن بن محمد الفاسي وصف إفريقيا، ج II، ص 442-443). أمّا تسمية « بلاد الجريد » أو « الجريد » بعبارة أوجز، فقد ظهرت لأول مرة في منتصف القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م. في كتابات ابن خلدون الذي كان يستعملها بقدر ما يستعمل كلمة قسطلية - أو أكثر - للدلالة على نفس المنطقة. ثم زال اسم قسطلية القديم شيئا فشيئا حتى نسي اليوم تماما فلم يعد يعرفه من أحد سوى بعض أهل الاختصاص، حتى أنّ التجاني الذي كان يكتب في سنة 706 هـ/ 1306 م، وابن أبي دينار (حوالي 1110 هـ / 1698 م) والوزير السراج (1149 هـ / 1736 - 1737 م) قد أصبحوا بعدّ لا يستخدمون الاسم القديم إلّا في حال نقلهم عن مؤلفين سابقين. أمّا الحسن بن محمد الفاسي (= Jean-Léon l'Africain) الذي زار البلاد التونسية في سنة 1515 م. فإنه يجهل هذه التسمية تماما .

وحتى أواخر القرن الثالث هـ/ التاسع م. لم يكن العنصر العربي بعد ممثلا ببلاد قسطلية، أو لم يكن على الأقلّ موجودا بصورة محسوسة. وفعلا فقد كتب اليعقوبي يقول : « ...السكّان من غير العرب ينحدرون من الروم القدماء ومن البربر والأفارقة » (انظر البلدان، ص 212)، أي البربر الذين غلبت عليهم اللّغة اللاتينية والدين المسيحي. ويشير ابن خلدون من جهته، في معرض الحديث عن وقائع سنة 224 هـ/ 839 م، إلى وجود بربر

من قبائل زواغة ولواتة ومكناسة بتلك المنطقة (انظر كتاب العبر، ج. IV، ص 428). ولا نعتقد أن خارطة السكّان هناك قد تغيّرت كثيرا حتى منتصف القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م.، أي إلى زمن زحفة بني هلال التي أدخلت إلى الجهة عناصر قبائل بني سليم وخاصة منهم بطن كعوب. وقد تغيّرت ملامح المنطقة بدون شكّ تغيّرا عميقا منذ ذلك الحين، وأخذت العقيدة المسيحية التي ثبتت حتى ذلك الوقت تزول شيئا فشيئا. وقد أمكن التجاني في سنة 706 هـ / 1306 م. أن يشاهد عددا كبيرا من الكنائس المهجورة الخربة هناك (انظر الرحلة، ص 162). كما لاحظ أيضا باستنكار شديد تعاظم أهل الجهة أكل لحم الكلاب، وهي عادة عندهم مألوفة إلى اليوم .

ويجمع المؤلّفون العرب في العصر الوسيط على اعتبار قسطنطينية بلادا ذات ثراء وازدهار. ويقول البكري إن مجموع خراجها كان يبلغ في منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. 200,000 دينار مقابل 50,000 دينار فقط بالنسبة إلى قفصة. أمّا ابن خلدون فكان لا يملك دهشته وإعجابه في القرن الثامن هـ / الرابع عشر م. أمام كثافة سكّان هذه البلاد «المستبحرة العمران» (كتاب العبر، ج VI، ص 199) .

وقد كانت هذه البلاد، التي بهر نظام توزيع مياه الريّ بها كلّ الملاحظين تنتج كميات وفيرة من التمور. وفي القرن الثالث هـ/ التاسع م. يشير اليعقوبي إلى وجود حقول زيتون هامة بها، لم يبق منها بعد ذلك أثر. أمّا قصب السكّر الذي كان من أهمّ ثروات المنطقة في القرن الرابع هـ/ العاشر م. حسب قول ابن حوقل، فقد أصبح مردوده هزيبا في القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م. فيما يذكره البكري ، وكذلك الموز الذي كانت غروسه تجد صعوبة في الثبات والنموّ هناك. وعلى خلاف ذلك فإنّ الحوامض التي تنتج بالجهة - وخاصة منها الأترج - لم يكن لها مثيل. وكان أهل المنطقة يتعاطون أيضا زراعة الكتّان والحنّاء والكمّون والكروياء، ويصطادون بها الفئك الذي كان الناس يتهافتون على اقتناء فروته.

وكانت قسطنطينية أيضا في القرن الرابع هـ / العاشر م.، حسب ما يؤكده ابن حوقل، ملتقى هاما للطّرق التجارية يزدهم فيه التجار القادمون من كل بلاد. وكانت المنطقة تورّد على وجه الخصوص القمح التي كانت أثمانها

مرتفعة في العادة، وتصدّر التّمور (بثمان يساوي درهمين مقابل حمل جمل كامل كما يدقّقه لنا المقدّسي)، وكذلك الصوف (وهذا يقتضي وجود ماشية عديدة من الأغنام)، والمصنوعات الصوفيّة. وقد كانت التجارة عبر الصحراء مع بلاد السودان، بكلّ تأكيد، أحد أسرار ازدهار الجهة طوال العصور الوسيطة. ونحن نعلم أنّ والد أبي يزيد النكاري، الذي كان أصيل تقيّوس أو تـوزر، كان من المشتغلين بتعاطي هذه التجارة (انظر ابن خلدون، كتاب العبر، ج IV، ص 84).

ثبت المراجع

مصادر (مرتبة ترتيباً زمنياً) ابن عبد الحكم، الفتوح، تح. مع ترجمة جزئية ل: أ. غاطو A. Gateau بعنوان Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne، الجزائر، 1942، ص 64/65، والتعليق 66 ص 156؛ ابن خرداذبه، المسالك، وابن الفقيه، البلدان، تح. مع ترجمة جزئية لحاج صادق Description du Maghreb...، الجزائر، 1949، ص 6/7، 31؛ اليعقوبي، البلدان، ترجمة ج. فيات G. Wiet بعنوان Les pays، القاهرة، 1937، ص 212؛ ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت بدون تاريخ، ص 92؛ المقدّسي، أحسن التقاسيم، تح. مع ترجمة جزئية لشارل بلا Ch. Pellat بعنوان Description de l'Occident...، الجزائر، 1950، ص 4/5، 26/27، 60/61، 64/65؛ البكري، تح. مع ترجمة لدي سـلان (De slane) بعنوان Description de l'Afrique Septentrionale، باريس، 1965، ص 14/35، 48 - 49 / 102 - 105، 71 - 74، 146 / 75، 452 / 153، 148 / 284؛ الإدريسي، النزهة، تح. جزئي لهنري بيراس H. Pérès، الجزائر، 1957، ص. 75؛ ياقوت، البلدان، بيروت، 1957، ج II، ص 57 - 58، ج VI، ص 347 - 348؛ التجاني، الرحلة، تونس، 1958، الفهرس، مادة الجريد؛ ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت 1956 - 1959، فهارس المجلّدات IV و V و VI و VII تحت موادّ قسطنطينية وبلاد الجريد والجريد؛ جان ليون الإفريقي Jean-Léon l'Africain (= الحسن بن محمد الفاسي) وصف إفريقيا، ترجمة فرنسية عن اللاتينية لـ أ. إيبولار Epaulard، باريس، 1956، ج II، ص 442 - 443، 470؛ ابن أبي دينار، المؤنس، تح. م. شـمّام، تونس، 1967، الفهارس في مادة قسطنطينية والجريد؛ الوزير السراج، الحلل، تح. م. ح. الهيلة، تونس، 1970، الفهارس

في مادة الجريد؛ ف. غيران V. Guérin رحلة أثرية في الإيالة التونسية
250- Voyage archéologique dans la Régence de Tunis ، باريس، 1862، ج. I، ص
270: ف. مايي V. Mayet رحلة في جنوب البلاد التونسية Voyage dans le
Sud de la Tunisie ، باريس، 1887، ص 187-243 .

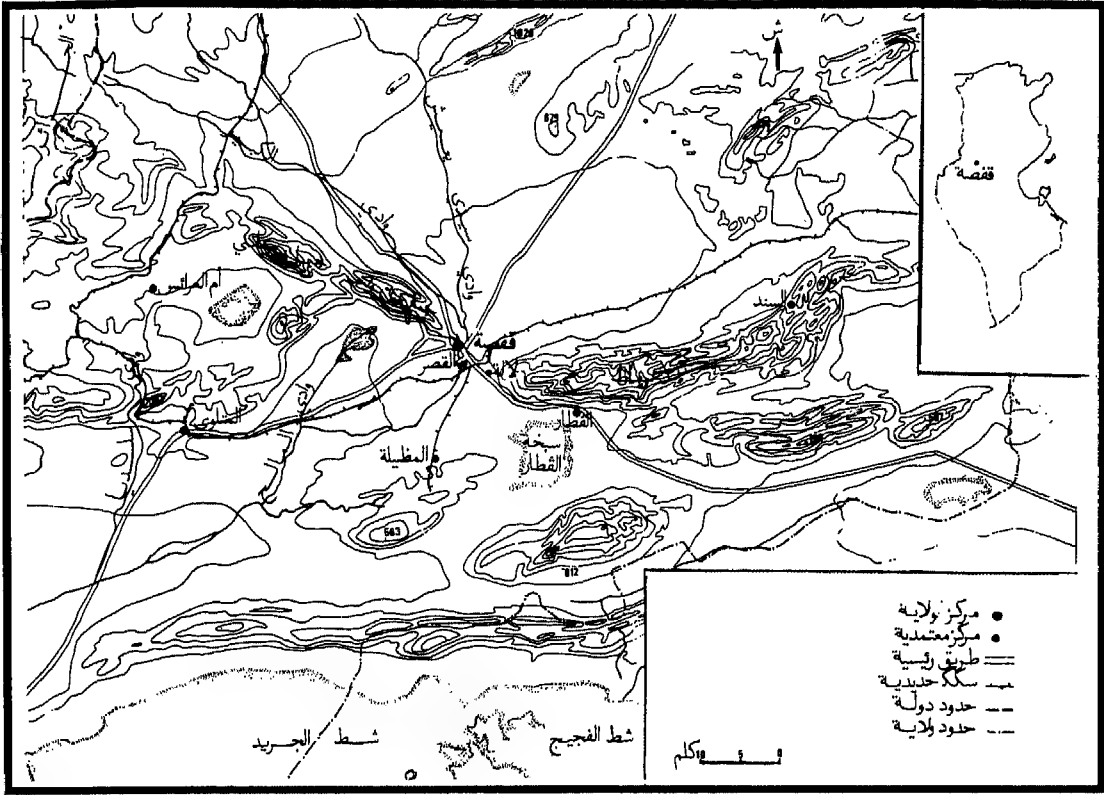
- دراسات : ح. عطية، التعصير الفلاحي والهياكل الاجتماعية : أمثلة
من واحات الجريد، في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، عدد
2 (فيفري 1965)، ص 59-93؛ ر. برانشفيك R. Brunschvig، الدولة
الحفصية. الفهارس فـ في مواد قسيلية والجريد وتوزر؛
ص. فرشيـو، التفريق الجنسي في التغذية بالجريد في
منشور L'homme 1968 : ج. غانياج J. Ganiage، أصول الحماية الفرنسية
بتونس (1861-1881). باريس، 1959، الفهارس في مادة الجريد؛ هـ.ر.
إدريس H.R. Idris، الدولة الصنهاجية، الفهارس، في مادة الجريد
وقسيلية؛ ع. العروي، تاريخ المغرب العربي، باريس، 1970، ص
125117، 136، 135، 216؛ م.ن. الأجرى، الإحصاء العام للسكان (ماي 1966)،
بالمجلة التونسية للعلوم الاجتماعية. العدد 17 و 18 (جوان 1969)، ص
127-171 أ، مارتال A. Martel، التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد
التونسية - 1881-1911، باريس 1965، الفـهارس في مادة الشطّ
والجريد؛ م. الرويسي، ظاهرة النزوح بالجريد في المجلة التونسية
للعلوم الاجتماعية. عدد 17-18 (جوان 1969). ص 567-586 م.
السكلاني، الحركة الداخلية بالجنوب التونسي بالمجلة التونسية للعلوم
الاجتماعية (ديسمبر 1970) ص 163-174؛ س.م. شتارن، ثلاث ملحوظات
موقعية شمال إفريقية Thre North African Topographical Notes في مجلة
ARABICA، ج I (1954)، ص 343-345؛ محمد الطالبي، الإمارة الأغلبية،
الفهارس؛ ش؛ تيسو Ch. Tissot، جغرافيا مقارنة للمقاطعة الرومانية
بإفريقيا، باريس، 1881، ج II، 30-68231-684.

(*) توزر ولاية منذ سنوات عديدة

(**) تطوّرت النّهضة العمرانية والاقتصادية والاجتماعية في ولاية توزر تطوّرا ملحوظا
منذ سنة 1966.

أما التعداد السكاني لمدينة توزر (حسب إحصاء سنة 1984) فهو : 21 604 ساكن

[المرجع : « هذه تونس ». نشر وزارة الإعلام - تونس 1990 - التّحرير -].



قفصة

قفصة مدينة بالبلاد التونسية تقع في الجنوب الغربي على بعد 360 كيلومتر من مدينة تونس، وعلى 200 كيلومتر من القيروان وعلى 100 كيلومتر من قابس، وتعدّ قفصة 30,000 ساكن. (*) وهي مركز ولاية تشمل 300,000 نسمة، (***) أهمّ ما يوجد داخل أرضها من الثروات مناجم الفسفاط بالمظيلة والمتلوي والرديف وأمّ العرائس، وقد تمّ اكتشاف مدّخراتها في سنة 1885. وتحتوي واحة قفصة على قرابة 100,000 شجرة من النخيل تمرورها ضعيفة الجودة، تضاف إليها بساتين البرتقال والليمون والمشمش والتين وكروم العنب، وما زرع حديثا من الزيتون وبعض غروس الفستق على سبيل التجربة. والريّ بها مضمون بفضل عيون المياه الغزيرة المتدفّقة داخل

المدينة نفسها وبفضل الآبار الأرتوازية الفوارة. هذا وإن قفصة - باعتبارها أولى الواحات على الطريق الرابطة بين القيروان ومنطقة الشطوط، وباشتمالها على آثار من العصور القديمة والغابرة من شأنها أن تشدّ إليها الزوّار - قد أنسّت في نفسها استعدادا لاقتحام مجال السياحة. وقد استطاعت بفضل هذه الميزة أن تستفيد ببعض الخدمات والمرافق الحديثة، مثل تحسين شبكة الطرقات والتجهيزات الفندقية، وإنشاء الحدائق العمومية، وترميم « المسابح الرومانية » وإصلاح قسبة المدينة وجامعها الكبير، وإعادة بناء جزء من الأسوار البيزنطية على الشكل القديم، وغير ذلك. كما شهدت الصناعات التقليدية بها شيئا من النهضة والانطلاق، وهي تتمثل بالخصوص في نسج الأغذية والبسط ذات الزخارف الساذجة والألوان الزاهية.

تاريخ المدينة : كلمة قفصة هي الصيغة العربية للتسمية القديمة وهي « كبصة » Capsa. وانطلاقا من هذا الاسم عمّد الباحث ج. مورغان J. Morgan منذ سنة 1909 إلى ابتكار لفظة « كبسي » Capsien لتسمية الحضارة المنتسبة إلى العهد الحجري القديم أو إلى العهد الحجري الأوسط، والتي كانت هذه المنطقة من أهم مراكزها، كما تشهد بذلك « حقول الحلزون » العديدة وغيرها من آثار الأنشطة التي ترجع إلى فترة ما قبل التاريخ.

هذا وإن ماضي مدينة قفصة يبقى متسما دائما بالغموض حتّى عندما ندخل العصور التاريخية. من ذلك بالخصوص إننا لانعلم بدقّة متى تمّ تأسيس المدينة ومن الذي قام بذلك. والرأي السائد قديما إنّها من تأسيس أحد الآلهة وهو الهرقل الليبي أو الفينيقي. وإذا ضممنا هذا القول إلى بعض الدلائل الأخرى كان في ذلك ما يدفع إلى الاعتقاد بأن هذه المدينة بونيقيّة الأصل. على أنّنا لم نظفر بعد بأي اكتشاف أثري من شأنه أن يدعم هذا الافتراض. أمّا العرب فإنهم يرون أنّ مؤسس المدينة هو شنتيان غلام النمرود ملك الكلدانيين الأسطوري العجيب (انظر البكري، المسالك، ص 47 / 100). وفي الحقيقة فإنّ الباحث على إقامة المدينة - وإن بقيت أصولها غامضة - هو ما يتسم به موقعها من ميزات جغرافية. وكما يقول غزال Gsell (التاريخ، ج IV، ص 279) « فقد كان يوجد هناك ملتقى عدد من الطرقات الطبيعية المؤدية إلى كلّ من واحات الشطوط، وقابس، ومقاطعة المزاك ومكثرت وتبسّة ». ومن الجائز أن

يكون البونيقيّون قد استقرّوا بهذا الموقع الذي ليس فيه إلاّ الخير لهم والغنم لما كانوا يتعاطونه من التجارة .

وفي فترة لاحقة أصبحت المدينة جزءا من مملكة يوغرطة الذي كان يسعى إلى إبقائها دوماً تحت حكمه بمعاملتها معاملة خاصّة ومحابة أهلها، ويذهب في ذلك إلى حدّ إعفائها من دفع الضرائب والجبايات. وقد دفعت المدينة بعد ذلك ثمنا غاليا عن هذه الخطوة بسبب ما كان فيها من معنى الإخلاص والوفاء للملك النوميدي. فقد قام كايوس ماريوس Caïus Marius، الذي أوكلت إليه رومة مهمة إخضاع يوغرطة، بحملة تتسم بالجرأة والإقدام، أخذ خلالها المدينة بغتة ثم جعلها فريسة للنيران (سنة 107 ق . م). لكنّها استطاعت أن تنهض من تحت الرماد وأن تعود إلى سالف حياتها. فأصبحت في عهد الأمبراطور تراجانوس (98-117) مدينة ذات نظام بلدي يسهر على إدارتها قضاة على الطريقة القرطاجيّة، وفي هذا دليل على وجود تنظيم بونيقي قديم تمّ الاحتفاظ به في الإمبراطورية. ثمّ حلّ عهد الإمبراطور ديوقليسيا نوس Diocletien (284 — 305)، فعمد البربر إلى ركوب المزيد من مظاهر العدوان والتحرّش. ولم يكن بوسع رومة إلاّ أن تجلي رجالها وتتخلّى تدريجيا عن المنطقة. وتواصل تراجع الدخلاء وانحسارهم في عهد الوندال، وبمجرد موت ملكهم جنسريق (428 — 477) أصبحت «كبصة» عاصمة لإمارة بربريّة. ثمّ عادت إلى حظيرة بيزنطة فاحتضنتها من جديد في عهد الإمبراطور يوسطينيانوس Justinien (527 - 565) الذي كان قد أعاد بناء وحدة الإمبراطورية وأرجع إليها سالف مجدها. بل أنّ «كبصة» أصبحت عندئذ عاصمة لمقاطعة المزاقي. وفي سنة 540 حصّنها الإمبراطور سالومون بسور جديد وأطلق عليها اسم «كبصة اليوسطينيانية»

Capsa Justiniana

ولم يبق اليوم بقفصة من معالم ماضيها القديم الفخم سوى بعض الآثار القليلة النادرة، مثل « الأحواض الرومانية » وبعض الأساطين والسواري وتيجان الأعمدة، وموادّ أخرى أقلّ قيمة من ذلك أعيد استعمالها في بناء المسجد الجامع بوجه خاصّ، وكذلك في غيره من مباني المدينة القديمة. على أن قفصة قد كانت حافظت حتى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، على ملامحها وطابعها كمدينة عتيقة، بل وعلى استعمال لغة مشتقّة من اللاتينية للتخاطب - وقد انفردت بذلك

بين مدن إفريقية كلها - كما حافظت أيضا على الدين المسيحي الذي كان معتقد قسم كبير من سكّانها. ويقول البكري (في المسالك، ص 47 / 100)، وقد كان يكتب في أواسط القرن الخامس هـ . / الحادي عشر م.، إن « المدينة كانت كلها مبنية على أساطين وطيقان من رخام » وإن سورها القديم كان من السلامة والكمال بحيث « تخال أنه قد فرغ من بنائه بالأمس القريب ». وبعد مرور قرن على ذلك يأتي الإدريسي ليؤكد أيضا (انظر النزهة، ص 75)، إن معظم سكّانها من البربر وأن الأغلبية منهم تتخاطب « باللسان اللأطيني الإفريقي ». (راجع أيضا ليفيسكي T.Lewicki لغة رومانية الأصل منسية من لغات إفريقيا الشمالية بمجلة Rocznik Orient، ج XVII (السنة 1953، في مواضع مختلفة).

وقد لامست الموجات الأولى من الفتوحات الإسلامية أسوار مدينة قفصة منذ سنة 27 هـ / 647 م، أي بعد الانتصار في سببلة وموت البطريق جرجير Grégoire. وبعد مرور عقدين من السنين استولى عقبة بن نافع على المدينة عنوة. ثم خرجت بعد ذلك من يد المسلمين مع كامل إفريقية حتى جاء حسّان بن النعمان فاسترجعها نهائيا حوالي سنة 78 هـ / 697-698 م .

وفي أواخر القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد، وأوائل القرن الثالث / التاسع م. كانت منطقة قفصة عامرة بالخصوص بالخوارج من قبائل لواتة وزواغة ومكناسة. وقد اشتركوا سنة 224 هـ / 839 م. في الثورة التي هزّت منطقة قسطنطينية، فعاقبهم الأمير الأغلب أبو عقّال على ذلك عقابا شديدا، هذا ويذكر الشماخي (في السير، 203) أن الإمام عبد الوهاب (168-208 هـ / 784-823 م). كان له بقفصة « عامل ». وينبغي أن ندرك أن المقصود بذلك هو الجابي الذي كان يجمع الصدقات الشرعية من أتباع المذهب الإباضي ويوجّه بها إلى تاهرت بقدر متفاوت من السرية والكتمان، وذلك لأنّ مدينة قفصة لم تكن يوما داخلة في حكم الدولة الرّستمية .

وبعد أن خضعت قفصة لسلطان الفاطميين، ثم الصنهاجيين من بعدهم، أصبحت طيلة أكثر من قرن (445-554 هـ / 1053-1159 م) عاصمة لدولة مستقلة بذاتها تشمل كامل بلاد قسطنطينية، أي منطقة الجريد الحالي. فقد كانت زحفة بني هلال غيرت فعلا وبصورة

عميقة المحيط السياسي والتوازن بين مختلف الأجناس والعناصر بالمنطقة كلها، فانهارت أركان السلطة المركزية وعمّت الفوضى والاضطرابات كلّ الجهات. فعمد عند ذلك عبد الله بن محمد بن الرند عامل المدينة من قبل الصنهاجيين إلى إعلان استقلاله واستئنائه بالحكم (445-465 هـ / 1053 - 1073 م) ، كما فعل كثير غيره ، ودفع الجزية للأعراب البدو (ولاسيما منهم قبيلة رياح) ، وتحالف معهم فرسخ بذلك أسس نفوذه وضمن الأمن والطمأنينة في أرجاء مملكته. وقد ساعده كلّ ذلك على استجلاب الشعراء والفقهاء إلى بلاطه .

ثم جاء عهد الموحدّين الذين جمعوا في حكمهم بين كامل أنحاء المغرب، واضعين بذلك حدّاً لانفراد قفصة بأمرها. وقد قام عبد المؤمن بن علي سنة 554 هـ / 1159 م. بافتتاح المدينة عنوة بعد حصار شديد. ومنذ ذلك الحين شهدت قفصة حياة مضطربة مثل كامل مناطق الجنوب من إفريقية. ونازع الموحدّين عليها أحد المغامرين من أصل أرمني يدعى قراقوش، كما نازعتهم بالخصوص دولة بني غانية. هذا ولم يذعن بنو الرند لما حلّ بهم ولم يقبلوا بتنحيّتهم عن السلطة، فأعاد الأمير ابن المعزّ هذه الدولة إلى الحكم من جديد استجابة لرغبة أهالي المدينة الذين أغضبهم عامل الموحدّين فوثبوا عليه وقتلوه. فخرج الخليفة أبو يعقوب يوسف من مرّاكش وجاء بنفسه سنة 575 هـ / 1180 م. لمحاصرة المدينة ، التي لم يدم خضوعها زمناً طويلاً. فلم تلبث أن سقطت في قبضة بني غانية. فاضطرّ المنصور، هو الآخر، إلى محاصرتها على رأس جيش عتيد (سنة 583 هـ / 1187 - 1188 م)، وفي هذه المرّة أنزل بقفصة شديد العقاب فدكّت أسوارها من الأساس، ولم يسمح لسكّانها بالاحتفاظ بأراضيهم إلّا على أساس اعتبارهم مزارعين بالشراكة .

ولم تكن حياة المدينة أقلّ اضطراباً من ذلك في عهد الدولة الحفصية. فقد غلب عليها في سنة 681 هـ / 1282 م. الدعيّ ابن أبي عمارة (681 - 683 هـ / 1282 - 1284 م). ثم استرجعت بعد ذلك استقلاليتها المعهودة في ظلّ حكم دويلة محلية، وهي دولة بني العبيد الذين كانوا يدعون النسب العربي. أمّا الأمير الحفصي أبو بكر الذي تميّز أوّل عهده - المتسم بشدة التمزّق والاضطراب - بفقدان مقاطعات الجنوب، فقد حاصر قفصة في سنة 735 هـ / 1335 م. ، واسترجعها ثمّ عهد بولايتها إلى ابنه أبي العباس. وقد سعى في

نفس الوقت، بواسطة التنازل عن بعض الأراضي لفائدة الفقراء وذوي الحاجة من سكّان المدينة، إلى تمتين الروابط بينها وبين دولته. لكنّها لم تلبث مع ذلك، بعد فترة قصيرة من السيطرة المرينية عليها (748-750 هـ / 1348-1350 م)، أن استعادت حرّيتها من جديد تحت سلطة أحمد بن عمر بن العبيد، ثمّ ابنه محمد من بعده. وقد اضطرّ السلطان الحفصي أبو العباس (772-796 هـ / 1370-1394 م) إلى استرجاع ملكه بحدّ السلاح. فحُصر الحصار على قفصة في سنة 780 هـ / 1378 م، وقام بتدمير واحتها لإرغام أهلها على الاستسلام، ثمّ ولىّ عليها ابنه أبا بكر. وبعد ذلك، وفي خضمّ الاضطرابات التي أعقبت موت الوالي التركي (سنة 793 هـ / 1391 م)، قام شخص يدعى الدُنَيْدَن بإعادة الحكم من جديد إلى دولة بني العبيد، مستأثراً بنفسه. فاضطرّ أبو العباس إلى التخلّص مرّة أخرى. وفي أواسط سنة 795 هـ / ربيع سنة 1393 م. حاصر المدينة من جديد وعاد فخربّ واحة نخيلها. ومنى ببعض الهزائم. ولم يتمكّن من السيطرة نهائياً على هذا الأمر. قبيل موته بأشهر - إلاّ بمشقة وعناء. ولم يدم ذلك طويلاً، إذ نجم بنو العبيد بالمدينة من جديد في عهد خلفه أبي فارس (796 - 837 هـ / 1394 - 1434 م)، الذي أجبر هو الآخر على محاصرة المدينة وافتتاحها عنوةً (سنة 802 هـ / 1400 م) ثم قام بتهديم أسوارها من الأساس ففضى بذلك نهائياً على دولة المتمرّدين. وبعد انقضاء بضعة عقود من السنين، قام السلطان أبو عبد الله محمد المنتصر (837-839 هـ / 1434 - 1435 م) بزيارة المدينة. وترميم القصبّة التي أقام بها سلفه .

ومنذ ذلك الوقت لم يرد ذكر قفصة كثيراً في معرض الأحداث. فبعد محاولة غير ناجحة سنة 1530 م، أمكن للقائد التركي درغو - الذي أوكل إليه السلطان العثماني سليمان القانوني (1520-1566 م) حكم طرابلس - أن يفتتح المدينة عنوة يوم 20 ديسمبر 1556 م. لكنّ الاحتلال التركي لم يرجع إليها سالف ازدهارها. فقد اجتمع على استنزاف خيراتها كلّ من أعراب البادية الرّحّل والحكومة المركزية العاجزة عن حمايتها فلم تفتأ تتدهور وتتقهقر حتى نزلت إلى مستوى بلدة صغيرة مغسورة احتلتها الجيوش الفرنسية بدون عناء (يوم 20 نوفمبر 1881) إبّان انتصاب الحماية بالبلاد .

الجغرافيا التاريخية : قفصة مدينة من مدن السهوب تقوم بين جبال عرابطة بالجنوب الشرقي، وجبال أصاله وابن يونس بالشمال والشمال الغربي. على مرتفع يبلغ علوه 345 مترا، وفي موقع اتسم في مختلف عصور التاريخ بمظهره المقفر الموحش، وقد كانت دوما مثالا للحاضرة الكبيرة التي يعود نجاحها وازدهارها إلى ما يوجد بها من رصيد مائي وسط منطقة يغلب عليها الجفاف والجذب، وإلى موقعها الممتاز الذي يجعل منها، حسب عبارة ش. تيسو - Ch.Tissot « بابا من أبواب الصحراء ومفتاحا من مفاتيح التلّ معا وفي نفس الوقت » (انظر الجغرافيا المقارنة ... ج II، ص 668). أما سالستس Salluste (86-35 ق.م) فإنّه وصف قفصة بأنها « مدينة كبيرة وعتيمة ». لكنّه كان يُلح منذ ذلك العهد على ما ينشأ عن وجود الفيافي والقفار الشاسعة المحيطة بها من مناعة للمدينة، وصعوبة على الجيوش الغازية في الوصول إليها .

وبفضل مثل هذه المؤهلات العديدة للنجاح، أمكن لقفصة أن تحافظ إلى نهاية العهود التاريخية القديمة، ورغم تقهقر منطقة المزاقي، على ما كان لها من أهمية وازدهار. وبعد الفتح العربي ازدادت انطلاقتها قوّة وثباتا. فقد أسلفنا القول انها حافظت طويلا على مظهرها وأسلوب حياتها العتيقين. وفي أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي يصف لنا اليعقوبي مدينة قفصة على النحو التالي - وقد كان أوّل جغرافيّ عربيّ يترك لنا بعض الملاحظات الشخصية المفصلة حول المدينة - فيقول : « مدينة حصينة يحيط بها سور مبنيّ بالحجارة. وبداخل المدينة ينابيع ماء جارية، وسككها مفروشة بالبلاط، وأحواؤها كثيرة الخصب وثمارها مشهورة » (راجع البلدان، ص 212). وفي أواسط القرن الرابع هـ / العاشر م. يذكر لنا ابن حوقل - الذي كان موجودا بالقيروان سنة 336 هـ / 947 م. (راجع صورة الأرض، ص 49 ترجمة كرامرز وفيات Kramers-Wiet، ص 92) - إنّ مدينة قفصة كانت « مستقلّة بأمرها » وأنّ ازدهارها كان « في غاية الكمال » قبل سنة 330 هـ / 942 م.، وهي السنة التي قام فيها أبو يزيد النكاري بتخريبها (صورة الأرض ص 92، الترجمة، 93). وقد نهضت من نكبتها بسرعة فيما يبدو، إذ أنّ المقدسي (المتوفى سنة 378 هـ / 988 م). يذكرها في أواخر القرن الرابع هـ / العاشر م. من جملة أمصار إفريقيّة وحواضرها

الكبرى. وفي منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. يقدم لنا البكري (المتوفى حوالي سنة 461 هـ / 1068 م) - ولم يكن قد زار البلاد بنفسه وإنما كان ينقل أخباره عبادة عن المؤرخ الإفريقي الوراق (المتوفى سنة 363 هـ / 973-974 م) - وصفاً تمتاز قفصة فيه بكل المحاسن. وهذا الوصف الذي يعد من أكثر ما بلغنا عن المدينة تفصيلاً في العصر الوسيط، يتحدث بإطِّلاع عما كان بها من معالم من عهود الأولين لا تزال على أحسن حال، ومن عيون فؤارة تزود بوفير المياه بساتينها الغناء التي كانت تنتج، فيما تؤتية من الثمار، كميات وافرة من الفستق يتم تصديرها إلى كامل أنحاء إفريقية، بل وحتى إلى مصر وسجلماصة والاندلس، ويضيف البكري أنه كان يوجد بها تمر في حجم بيض الحمام، وكان بضواحي المدينة وبجوارها مالا يقل عن المائتين من القرى الصغيرة والكور، تسمى « قصور قفصة » ويعمها الازدهار والرخاء. وآخر ما كانت تتميز به من دلائل الثراء الذي لا مجال للشك فيه أن خراجها من الجبايات التي تدفع إلى الدولة كان لا يقل عن خمسين ألف دينار حسب ما يؤكد لنا الرواة. ومن الثابت أن هذا الوصف كان يصور أوج ما بلغته المدينة من مراتب الازدهار. وقد كان ذلك على أغلب الظن في زمن الوراق. أي في آخر القرن الرابع الهجري / العاشر. ويبدو أن هذا الازدهار قد تواصل خلال القرن الموالي، أي في عصر البكري، بالرغم من هجمة بني هلال المباغته، وقد اهتدى بنو الرند إلى إقامة أسلوب في التعايش معهم كان يكلفهم الكثير طبعاً، لكنه كان من قبيل الأمور التي يمكن تحملها. وبقيت المدينة على ازدهارها حتى أواسط القرن السادس هـ / الثاني عشر م.، وهو العهد الذي كان يكتب فيه الإدريسي، وقد وصف قفصة بأنها « مدينة حسنة » بسورها السليم المتكامل ومياها الغزيرة وأسواقها النشيطة النافقة التي تغص بالتجار، وصناعاتها « القائمة » وواحتها الفسيحة ذات التمور « العجيبة » وأرباضها العامرة وبساتينها وأجنتها ومزارعها المتنوعة التي كانت تنتج فيما تنتج الحنّاء والقطن والكمون وهي من المواد التي كان الناس يتهافتون عليها في العصر الوسيط .

وبطول عهد دولة الموحدين تغير الوضع تغيراً كاملاً. فقد كانت مدينة شديدة التعلق باستقلالها. وكثيراً ما تمردت على الحكام وخرجت على السلطة المركزية، فدفعت ثمناً باهضاً جزاء تعلقها المفرط بالحرية. وقد تم مراراً - كما أسلفنا - تهديم أسوارها وتحصيناتها من

الأساس وتدمير واحدة نخيلها. ومنذ ذلك العهد بدأ تدهورها وتراجعها الاقتصادي. ففي القرن السابع هـ / الثالث عشر م. يقتصر ياقوت (574-626 هـ / 1178-1229 م)، بعد التذكير بسالف محاسنها، على وصفها بأنها «بلدة صغيرة على تخوم إفريقية ... وسط أرض سبخاء قاحلة» (انظر البلدان، ج IV، ص 382). أما قراها وضواحيها التي كانت أكثر تعرضاً لمخاطر الاكتساح والتدمير، فقد آل أمرها إلى الاندثار. ففي زمن ابن الشباط (618-681 هـ / 1221-1282 م) - فيما نقل عنه الوزير السراج (انظر الحل، ج I، ص 437) - «لم يبق منها إلا القليل». وفي أواسط القرن السادس عشر يقول الحسن بن محمد الفاسي (المعروف بليون الإفريقي Jean-Léon l'Africain) بعد الإشارة إلى ما كان أمر به المنصور من تهديم وتخريب: «واليوم عمرت قفصة من جديد بالسكان، لكننا لا نجد فيها سوى مبان متواضعة باستثناء بعض الجوامع. وسككها في غاية الاتساع وهي مفروشة كلها بالبلاط الأسود كشوارع نابولي وفيرنزا. وأهلها متحضرون متسمون بحسن المعاشرة، إلا أنهم فقراء لكثرة ما يثقل كواهلهم من الضرائب والجبايات التي يدفعونها للملك تونس» (انظر وصف إفريقية، ج II، ص 444). ثم يستمر الكاتب في كلامه متحدثاً عن فساد مناخها ومثنيًا على ما تنتجها من أنسجة وأواني فخار وتمور، ومادحا مابها من بساتين برتقال وحقول زيتون «زيتته في غاية الكمال طعما ولونا». وعلينا بعد ذلك أن ننتظر حلول القرن التاسع عشر، ورحلات غيران Guérin وزاكون Zaccone وماييه Mayet لكي نظفر بأخبار أخرى عن المدينة وبوصف جديد لها، بعد أن أصبحت مجرد قرية حقيرة بائسة.

ثبت المراجع

مصادر جغرافية (مرتبة حسب التسلسل الزمني) ابن خردادبه، المسالك؛ وابن الفقيه، البلدان، تح. وترجمة لحاج صادق بعنوان وصف المغرب... Description du Maghrib... الجزائر، 1949، ص 6 / 7 مع التعليق 74، 30 / 31؛ اليعقوبي، البلدان، ترجمة ج. فيات G.Wiet بعنوان Les Pays، القاهرة، 1937، ص 212؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ط. بيروت، بدون تاريخ، ص 87، 92 (ترجمة كرامرز - فيات Kramers-Wiet ص 92، 93)؛ المقدسي، أحسن

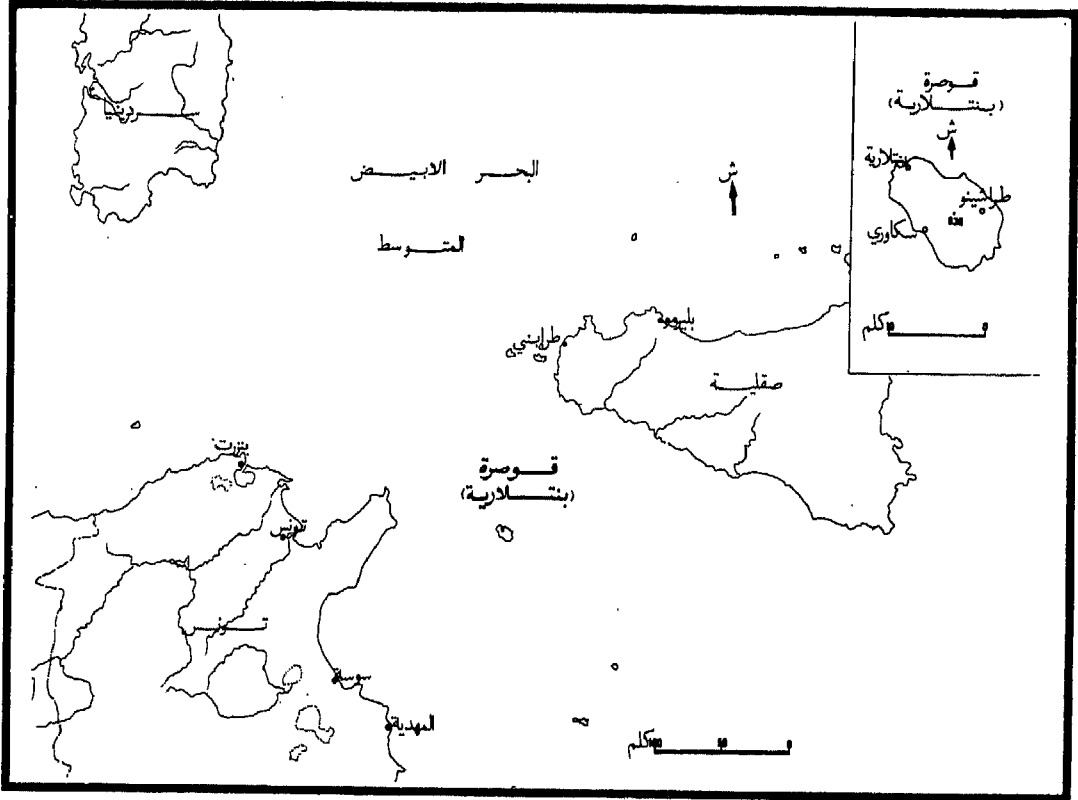
التقاسيم، تح. وترجمة جزئية لشارل بيلّا Ch. Pellat بعنوان وصف
المغرب Description de l'Occident، الجزائر- 1950، ص 4 / 64,5 / 65 ؛ البكري،
المسالك، تح. وترجمة دي سلان de Slane، باريس، 1965، ص 14 / 35 / 47 /
100 - 102، 75 / 153، 148 / 284 ؛ الإتريسي، النزهة ط.، جزئية لهنري بيراس H.
Péres، الجزائر، 1957، ص 75، 80، 89 ؛ ياقوت، البلدان، بيروت 1957، IV ص
382-383، التّجاني، الرحلة، ط. تونس، 1958، ص 114، 136 - 139، 147، 353، 356-357
صفي الدين البغدادي، مرصد الإطلّاع، تح. علي محمد البجاوي، القاهرة،
1954، ج III، ص 1113؛ جان ليون الإفريقي Jean-Léon l'Africain، وصف
إفريقيا، ترجمة عن اللاتينية لايولار A. Epaulard، باريس، 1956، ج II، ص
443-445؛ الوزير السراج، الحلّ تح. م. ج. الهيلة، تونس 1970، ج I
ص 368، 379-381، 388، 436-437، 488، 1005، 1007؛ ف. غيران V. Guérin، رحلة
أثرية في الإيالة التونسية Voyage archéologique dans la Régence de
Tunis باريس، 1862، ج I، ص 270 - 287 زاكون Zaccone، تقييدات حول
الإيالة التونسية Notes sur la Régence de Tunis، باريس، 1875، ص 208-216
سياليس Céalès، من سوسة إلى قفصة De Sousse à Gafsa، باريس،
بدون تاريخ، ص 153، 213 ف. ماييه V. Mayet، رحلة في
جنوب تونس Voyage dans le Sud de la Tunisie، باريس 1887، ص 171-186.

- الدراسات : ل. بلوط L. Balout عهد ما قبل التاريخ بإفريقيا الشمالية
Préhistoire de l'Afrique du Nord، باريس، 1955، ص 387 - 448 ؛
بودروو Bodereau، قفصة القديمة وقفصة الحديثة La Capsa ancienne et
la Capsa moderne، باريس، 1907، ع. بوحدية، ظروف عيش عمال
المناجم بمنطقة قفصة، بمجلة Etudes de Sociologie Tunisienne
تونس، 1968، ج I، ص 165، 233 ر. برانشفيك R. Brunschvig، الدولة
الحفصية Hafside، ج I، ص 3، 6، 21، 9، 149، 150، 158، 174، 189، 190، 207، 208، 305
- 328، ج II، ص 105 - 106، 186، 199، 220، 280؛ ج. ديپوا J. Despois، إفريقيا
الشمالية L'Afrique du Nord، باريس، 1958، الفهارس؛ ش. ديل، إفريقيا
البيزنطية l'Afrique byzantine، باريس، 1896، ج I، ص 126، 169، ج II، ص 388،
529، 560، 572؛ ل. فوشي L. Foucher، حضر موت Hadrumetum، باريس، 1964،
ص 262 - 321؛ ج. غانياج J. Ganiage، أصول الحماية الفرنسية بالبلاد
الفرنسية (1861 - 1881)، باريس، 1959، ص 138، 145، 171؛ س. غزال S. Gsell،

التاريخ القديم لإفريقيا الشمالية، باريس، 1913-1928، ج II، ص 98-99،
 ج V، ص 204، 278-279، ج VII، ص 231-235؛ هـ. ر. إدريس H.R. Idris
 الدولة الصنهاجية، Ziride، ج I، ص 222-223، 396-399، ج II، ص 470-471؛
 ش. أ. جوليان Ch.A. Julien، تاريخ إفريقيا الشمالية، باريس، 1956، ج
 II، ص 271؛ ع، العروي تاريخ المغرب العربي، باريس، 1970،
 ص 117، 175، 220، 309؛ أ. مارتال A. Martel، التخوم الصحراوية الطرابلسية
 للبلاد التونسية 1911-1881 Les Confins saharo-tripolitains de la Tunisie
 (1911-1) باريس، 1965، ج I، ص 243-244، 260-265، 276-278؛ أ. سعد
 زغلول، تاريخ المغرب العربي، القاهرة، 1965، ص 113، 141-143، 190-
 191؛ م. الطالبي، الإمارة الأغلبية، ص 219-220، 356-359، 672-677، 686؛
 ش. تيسو Ch. Tissot، الجغرافيا المقارنة للمقاطعة الرومانية
 بإفريقيا Géographie comparée de la province romaine d'Afrique، باريس، 1884، ج
 II ص 264، 265، 268؛ ج. توتان J. Toutain، المدن الرومانية بالبلاد التونسية
 des Cités romaines de Tunisie، باريس، 1896؛ ر. فوفراي R. Vaufray، فترة ما قبل
 التاريخ بإفريقيا (Préhistoire de l'Afrique) ج I، المغرب العربي Le Maghreb،
 باريس، 1955، ص 14، 127، 195، 407-415.

(*) 60970 ساكن (التعداد السكاني لسنة 1984 - المرجع: « هذه تونس » -
 نشر وزارة الاعلام - تونس - 1990).

(**) هناك تطور ملحوظ في التعداد السكاني لهذه الولاية.



قوسرة

قوسرة أو قوسرة، جزيرة إيطالية تسمى اليوم بنطلارية Pantelleria، تبعد 100 كلم عن صقلية و 76 كلم عن المدينة التونسية قليبية (كليبيّا) Clupea، وهي رعن بركاني مساحته 83 كلم² يخلو من الماء العذب يشرف من ارتفاع 836 م، سكانه 10000. وتسمية قوسرة -، كما يرسمها ياقوت - ويقترح لها أصلاً عربياً (قفة التمر) - وأغلب المصادر، هي في الواقع من أصل يوناني. وهو تحريف كوسيرا Cossyra، ويتجلى بصفة أوضح في الشكل الذي وثقه واحتفظ به البكري : قُوسرة. ومن جهة أخرى، لا ريب أنها كانت تنطق بصفة دارجة قوسرة، ثم وقع تعريبها في النصوص، تماثلاً مع صيغة عربية، فأصبحت قُوسرة.

ولما كانت قوصرة دون قيمة استراتيجية واقتصادية ، فإنها لم تشغل التاريخ إلا قليلا ، ولا تلتقط إلا معلومات قليلة في شأنها في المصادر العربية : فعند غزو عبد الله بن سعد بن أبي سرح لإفريقية (27 هـ / 647-648م) تجمع سكان جزيرة شريك (الوطن القبلي) بكليبياء ولجؤوا مؤقتا إلى قوصرة. وبعد نصف قرن، حوالي 81 هـ / 700 م، ذهب عبد الملك بن قطن - وقد آل به الأمر إلى أن يصبح واليا للأندلس - لاجتياح الجزيرة، ويرجح أنه انطلق من مصر. وقد وصلت قوصرة إثر ذلك من دون شك استقبال الأساطيل الإسلامية الزائرة من حين لآخر لما بدأت في اجتياح البحر الأبيض المتوسط. وفي سنة 221 هـ / 836 م، كانت قوصرة باقية في أيدي البيزنطيين، وكانت تستخدم قاعدة لأسطولهم المقاتل ضد أسطول الأغلبة الذين شرعوا منذ 212 هـ / 827 م في غزو صقلية. ولا يعرف متى استولى عليها هؤلاء. لكنها كانت ملكا لهم بعد، بلا شك، سنة 250 هـ / 864 م. وبداية من هذا التاريخ، غدت الجزيرة التي عربت وأصبحت مسلمة في الأثناء بصفة كاملة، جزءا من إفريقية، حتى العهد الموحد.

وبالطبع لم تغفل من الصراعات التي تواجه فيها نرمان صقلية والزيريين. ففي نواحيها، غرق الأسطول المكون من 400 سفينة والذي جهزه المعز بن باديس (407 - 454 هـ / 1016 - 1062 م) لنجدة مسلمي صقلية في ذي القعدة 416 / جانفي 1026. وهناك أيضا، تجمعت أساطيل بيزا Pise وجنوة Gènes سنة 480 هـ / 1087 - 1088 م، وكانت تعتزم مهاجمة إفريقية. وقد أئذر مسلمو الجزيرة تميما (454 - 501 هـ / 1062 - 1108 م) بواسطة الحمام الزاجل بالخطر الذي يعترضه. وفي سنة 517 هـ / 1123 م، نهب الأسطول النرمانسي قوصرة، في طريقه إلى المهديّة، واجتاحها، وقتل سكانها. وأخيرا، في سنة 543 هـ / 1148 - 1149 م، استولى الأسطول الصقلي الذي يقوده جورج الأنطاكي Georges d'Antioche على الجزيرة، قبل أن يذهب لانتزاع عاصمة الزيريين .

وقد استرجع قوصرة دون شك إثر ذلك الموحدون الذين قدموا لتحرير إفريقية من الحضور المسيحي، وتوحيد المغرب، ولم يكن ذلك لوقت طويل. ففي معاهدة عقدت بتاريخ 15 جمادي الثانية 618 هـ / 6 أوت 1221م، مع الإمبراطور فريديريك الثاني Frédéric II ، تخلى حاكم تونس الموحد عن قوصرة لصقلية، بشرط أن يتمكن مسلمو الجزيرة من التمتع

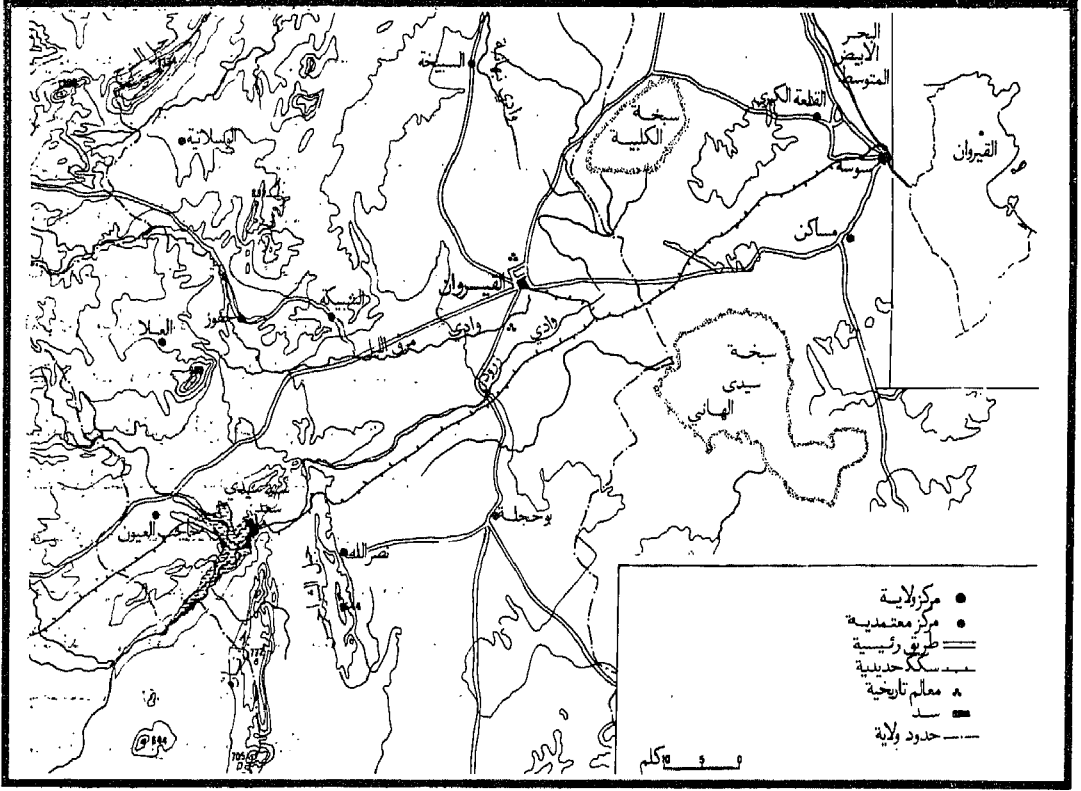
بالاستقـلال الإداري والقانوني، وأن يدفع نصف الضرائب المأخوذة منهم لإفريقية (ماس لاتري Mas-Latrie، معاهدات... Traité، باريس، 1886، ص 153 - 155) ومن هنا، اتبعت قوصرة مصير صقلية، وارتبطت خلال بعض الوقت بمملكة أراغون، Aragon وتحصلت حسب المحتمل من القطلونيين Catalans على تسميتها الجديدة ببنتلارية Pantelleria. غير أن حكام تونس لم يتخلّوا بصفة كاملة عن استعاداتها، وتضبط معاهدة غربية بتاريخ 1403م. الشروط التي يمكن لحاكم أراغون أن يستولي على جربة، وحاكم تونس على قوصرة. لكن هذه المعاهدة الغربية لم تطبق على الإطلاق.

وقد بقي سـكـان قوصرة طويلا مسلمين، حتى أن ياقوت (المتوفى 626 هـ / 1228م) يحدّد أنّهم كانوا في القرن السابع هـ / الثالث عشر م. يتكوّنون من الوهبية - أصيلي جربة ٩ - الذين كان شظفهم ملائما تماما لوضع الجزيرة ومواردها الشحيحة. وعملت السلط المسيحية الجديدة كلّ العمل على الاحتفاظ بهم. وهكذا نرى، سنة 1438 م، الفونس الأراغوني Alphonse d'Aragon يشكو إلى سلطان تونس من أن بعض الموظفين الحفصيين كانوا يشجعون هجرتهم. وطالب سفيره بعودة المهاجرين، وربما بإقرار أفارقة جدد في الجزيرة. ولا ندري في أي تاريخ بدأت المسيحية في قوصرة، لكنّ فازلو Fazello الذي يذكره آماري Amari تاريخ III Storia، 895)، يخبرنا أنّه منذ بداية القرن العاشر هـ / السادس عشر م. كان المسيحيّون والمسلمون بها يرتدون نفس الملابس ويتكلّمون عين اللسان. وهذه اللغة حسب بوني Bonnet - التاجر البروفنسي الذي استرقّ بتونس، وتمكّن من الفرار منها - كانت، في التاريخ الذي لجأ إلى قوصرة، أي سنة 1670، هي نفس اللغة التي يتكلّم بها في مالطة، وقد كانت إذن عربية، لا بد أنّها قد تغيّرت بعد بصفة عميقة.

وقد كانت موارد الجزيرة دائماً شحيحة يقدر. وكانت غاباتها توفر خشباً ذا نوعية ممتازة، ويقال إنّ كان يصطاد فيها الماعز الوحشي. وفي منتصف القرن السابع عشر، حسب بوني Bonnet كانت كلّ تجارة الجزيرة تتمثل في الخمر، والفحم، والخشب، وكان سكّانها ينقلونها إلى صقلية ومالطة (ب. غرانشان

P. Grandchamp، تاجر بروفنسي، 14... Un marchand Provençal..

الببليوغرافيا : المصادر - البكري، المسالك، تح. دي سلان De Slane، باريس، 1965، 45 / 97 ؛ نفسه، جغرافية الأندلس والمغرب، تح. أ. أ. الحاجي، بيروت، 1968، 226-227 ؛ ابن الأثير، الكامل، ط. بيروت، 1965-1966، VI، 339، IX، 349، X، 166، 197، 198، 612، XI، 125؛ ياقوت، ط. بيروت، 1957، IV، 413؛ صفي الدين البغدادي، مراصد، القاهرة، 1955، III، 113، (يلخص ياقوت)؛ ابن عبد المنعم الحميري، العروض، تح. جزئي أ. ريزيتانو U. Rizzitano، في مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، (ماي 1956)، XVIII، 472-173؛ البلوي، تاج المفرق، مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس، رقم 15060 و 24 وجه؛ ابن خلدون، المقدمة، بيروت، 1956، 454، 455؛ نفسه، العبر، بيروت، 1956، VII، 433، VI، 331 الدراسات : ح. عبد الوهاب، قصة جزيرة قوصرة العربية، في المجلة التاريخية المصرية II / 2 (القاهرة، 1949)، 55 - 73 (أعيد نشره في ورقات، II، تونس، 1966، 277 - 316، ترجم بالفرنسية في أعمال الجمعية الملكية للدراسات التاريخية Proceedings of the Royal Society of historical Studies (القاهرة، 1951)، 57-78؛ م. آمري M. Amari تاريخ مسلمي صقلية Storia dei musulmani di Sicilia، كاتان 1933 - 1935، أثبت في مادة بنطلارية؛ هـ. براسك H. Breşk، بنطلارية بين الإسلام والمسيحية Pantelleria entre l'islam et la chrétienté، في كراسات تونس Cahiers de Tunisie LXXV - LXXVI (1971)، 105-128؛ ر. برانشفيق R. Brunschvig الحفصيون Hafside، I، 26، 225، 249، 272؛ ش. أ. دوفورك (Ch. E. Dufourcq)، إسبانية القطلونية والمغرب في القرنين الثالث عشر والرابع عشر (L'Espagne Catalane et le Maghreb aux XIII^e et XIV^e siècles)، باريس، 1966، أثبت في مادة بنطلارية؛ ب. غرانشان P. Grandchamp تاجر بروفنسي Un marchand provençal esclave à Tunis (1669-1670)، تونس، 1939، 13، 14؛ هـ. إدريس R. Idress، الزيريون (Zirides)، 168، 174، 288، 335، 356، 527؛ م. الطالبسي، الإمارة الأغلبية Emirat Aghlabide، 267، 439.



القيروان

القيروان، مدينة في وسط البلاد التونسية تبعد مسافة 156 كيلومترا عن مدينة تونس، ومسافة 57 كيلومترا عن مدينة سوسة، وتقع على ارتفاع 60 مترا فوق مستوى سطح البحر. وهي مركز ولاية تشمل على 336,000 ساكن(*) يعيشون فوق مساحة تساوي 680,000 هكتار. وقد كان عدد سكان المدينة يبلغ 34,000 شخص في سنة 1956، فتطور إلى 47,000 شخص (في إحصاء سنة 1966)، ثم إلى 56,000 نسمة سنة 1972. (***) وتشهد درجات الحرارة بالمدينة فروقا عظيمة إذ أنها تتراوح بين بضعة درجات مئوية تحت الصفر في الشتاء وبين 40 درجة أو أكثر في فصل الصيف. وتهب على المدينة ريح السموم الصحراوية بمعدل 21 يوما في السنة. أما معدل نزول الأمطار فهو يتراوح بين 250 و 300 ميليمتر في السنة

بالمدينة نفسها وضواحيها، ويصل إلى 500 ميليمتر بالمناطق الغربية من الولاية. ويتفاوت نزول الأمطار بصورة كبرى من سنة إلى أخرى، إذ تنتقل المنطقة من الجفاف إلى الفيضانات البالغة حد الكوارث، وقد كانت فيضانات سنة 1969 من أكثرها تدميراً وإتلافا للمنشآت والخيرات. وإن سدّ وادي زرود، الذي سوف يشرع قريباً في بنائه (***)، والذي سيمكّن من خزن 80 مليون متر مكعب من المياه، وكذلك سدّ وادي مرق اللّيل الذي لا تزال الدراسات المتعلقة به في مراحلها الأولى، (****) سوف يسمحان باجتناّب مثل هذه الفيضانات وتفاديهما، وبتوسيع رقعة الأراضي القابلة للريّ بالزيادة في مساحتها الحالية البالغة 14,000 هكتار (منها 8,000 هكتار فقط مستغلّة في الزراعة بصورة فعلية). وفعلًا فإنّ الوجهة الغالبة على منطقة القيروان هي وجهة فلاحية أساساً. وقد سمحت الجهود المبذولة خلال العشريّتين الماضيتين بتطوير زراعة الأشجار المثمرة بشكل ضخم. فهذه الولاية تعدّ في سنة 1972 ما يساوي 350,000 أصل زيتون و 2,800,000 شجرة لوز. وتأتي أشجار المشمش في المرتبة الثالثة. وتتفاوت المساحات المزروعة قموحاً بشكل كبير بين سنة وأخرى بحسب وعود أمطار الخريف. فقد مرّت هذه المساحات من 58,000 هكتار سنة 1968 إلى 200,000 هكتار سنة 1972. وكانت في حدود 75,000 هكتار في سنة 1956 ثمّ بلغت 225,000 هكتار سنة 1959. وفيما يتعلّق بالمواشي فقد كانت تعدّ في سنة 1972: 260,000 رأس من الأغنام و 14,000 من البقر و 20,000 من الماعز و 11,000 من الإبل. أمّا القطاع الصناعي فإنّه لا يزال في طور المخاض، وهو يشمل حوالي عشر مؤسسات صغرى (في ميادين الصبّاعة والتّجارة وصناعة الحلوى والتّصبير الغذائي) تستغلّ كلّها ألف شخص تقريباً. وليس من المنتظر أن يشهد هذا القطاع توسّعاً كبيراً. على أنّ المنزلة الأولى في نشاط مدينة القيروان تبقى لقطاع الصناعات التقليدية. فصناعة الخشب والنحاس والحلفاء، وإنتاج المصوغ والقناديل والغرابيل، وممارسة الصبّاعة والنسج التقليديّين تشغلّ في جملتها 1,200 من الحرفيّين. لكنّ شهرة القيروان تعود بالخصوص إلى الصناعة اليدوية للزرابي الصوفية الكثيفة. فقد تمّ منذ مدّة إنشاء الديوان القومي للصناعات التقليدية، ممّا سمح بتدريب وتكوين عاملات مختصات جديّدات في ورشاته وبإدخال شيء من الحداثة على أشكال الزخارف. إلّا أنّ ذلك لم يجرّد هذه الصناعة التقليدية من طابعها العائلي ومن صبغتها النسائية أساساً. فكان عدد

«السدايات» العائلية يبلغ 4500 آلة في سنة 1972. وتطور إنتاج الزرابي من 56,000 متر مربع سنة 1962 إلى 130,000 متر مربع في سنة 1972، ومازال قابلا للزيادة والنمو. لكن هذه الجهود كلها لم تسمح مع ذلك بتحقيق التشغيل الكامل بسبب ارتفاع نسبة الولادات وتزايد النسل على وجه الخصوص. لذلك فإن ثلث السكان الذكور النشيطين يوجدون في حالة تشغيل منقوص أو في عطل كامل عن العمل.

وتتكون القيروان حالياً من «المدينة» القديمة ذات الأزقة الضيقة الملتوية حيث تحافظ الأسواق أو تكاد على الطابع العام الذي اكتسبته منذ القرن الثامن عشر. وهذه «المدينة» لا تزال اليوم محاطة بأسوار ذات شرفات، مبنية باللبن، تحصن جنباتها بين المسافة والأخرى دعائم وأكتاف قائمة مستديرة. ويزيد طول هذه الأسوار على الثلاثة كيلومترات، وبغرب المدينة وشمالها الغربي تمتد أرباض «القبلية» و«الجبليّة» و«جلاص»، وفي الناحية الجنوبية، بين باب الجلادين (أي ممارسي صناعة الجلود) - الذي أطلق عليه منذ الاستقلال اسم باب الشهداء، وهو باب الدخول إلى المدينة القديمة - وبين محطة السكة الحديدية، تقع المدينة العصرية حيث توجد الدواوين الإدارية والبنوك والنزل وغير ذلك، وقد تمّ بناء حي شعبي، يدعى حي سيدي سحنون، بالناحية الغربية. ويوجد بها حي آخر، وهو حي المنصورة، يحتوي على أربعمئة بيت من الطراز العصري هي على ملك أشخاص أكثر يسرا. أما أهم المعالم التاريخية بالمدينة، بالإضافة إلى الجامع الكبير، فهي جامع الأبواب الثلاثة الذي تشكّل واجهته أنموذجاً جميلاً من المعمار الأغلبي - وقد أقيم هذا المسجد سنة 252 هـ / 866 م. على يد محمد بن خيرون المعافري الأندلسي، وجرى إصلاحه وترميمه في القرن الخامس عشر، ثم فسقية الأغالبة بباب تونس، ومقام سيدي صاحب، - وقد كان في أول الأمر مقاماً بسيطاً وقديماً جداً يؤوي قبر أحد صحابة الرسول عليه السلام، وهو أبو زمعة البلوي. وفي ذلك الموقع قام الباي حمودة باشا المرادي بتشييد المبنى الحالي - وكذلك مقام سيدي عمر عبادة الذي تمّ بناؤه في القرن التاسع عشر.

- تاسيس القيروان : كل الغزوات العربية، التي آلت إلى فتح إفريقية والتغلب علي الروم البيزنطيين بها، كانت في أول الأمر تجتهد في تجنب الطريق الساحلية. وكان الفاتحون يدخلون البلاد عن طريق قسطنطينية (أي

بلاد الجريد)، ويسعون من هناك إلى بلوغ مناطق الوسط والشمال. وبحكم اجتنابهم في الشرق ساحل البحر- المليء بالمخاطر بالنسبة إلى جموع من الفاتحين لم تتوفّر بعد لديهم قوّة بحريّة كافية - وحيادهم في الغرب عن الجبال المؤاتية لنصب المكامن وحدوث المباغثات، فإنه لم يكن بهم بدّ من سلوك المعبر المؤدي حتماً إلى ناحية قمّونية، أي القيروان. فهذه المدينة التي كانت في بادئ أمرها قاعدة عسكرية، إنّما نشأت كنتيجة لهذه الخطّة الاستراتيجية النابعة من غرضون تضاريس البلاد ومن أصول التقنيات القتالية التي اختارها الفاتحون واعتمدوا. وينسب تأسيسها عادة إلى القائد عقبة بن نافع. على أنّ تأسيس المدينة قد تمّ في الحقيقة على عدّة مراحل، واعتراه كثير من التردّد، وساهم فيه عدد من القوادر العسكريين .

لقد مكّنت معركة سببلة (في سنة 27 هـ / 647 - 648 م) عبد الله بن سعد ابن أبي سرح من التحكّم عملياً في قياد مقاطعة المزاقي البيزنطيّة، بعد تراجع البيزنطيين إلى ما وراء خطوطهم المحصّنة الخلفيّة التي كانت تحمي مقاطعة البروقنصليّة. وليس من المحال ولا من الغريب أن يكون أولئك الفاتحون الأوّلون قد بلغوا آنذاك في غاراتهم نواحي القيروان، قبل الانجلاء عن البلاد مقابل جزية ذات وزن وقيمة. بل إنّ ابن ناجي يشير (في المعالم، ط. تونس 1320 هـ / 1902 م، ج I، ص 30) إلى وجود مسجد بالقيروان أطلق عليه اسم ابن أبي سرح، وهو نوع من الاعتراف والاحتفاء بذكري بلوغ الرجل تلك الرّبوع .

وفيما بعد تزداد الأمور وضوحاً ودقّة. فقد قام معاوية بن حديج بثلاث حملات على إفريقية، ذلك، على التوالي، سنة 34 هـ / 654 - 655 م، وسنة 41 / 661 - 662 م، ثم 45 هـ / 665 م. وعبر في المرّات الثلاث نفس الممرّ الذي سلكه سلفه، ووصل إلى منطقة قمّونية حيث نزل بجيشه. ويخبرنا بتفاصيل ذلك ابن عبد الحكم فيقول إنّ ابن حديج في سنة 34 هـ / 654 - 655 م. « افتتح قصورا وغنم مغانم عظيمة واتخذ قيروانا عند القرن » (انظر الفتوح ط. جزئية مع ترجمة لأ. غاطسو A. Gateau، الجزائر، 1948، ص 57). ونجد معاوية بن حديج نازلاً من جديد عند القرن سنة 41 هـ / 661 - 662 م. (انظر ابن عذاري، البيان، ط. كولان وليفي بروفنصال Colin et Lévi-Provençal، ليدن، 1948، ج I، ص 15). كما نجده مرّة أخرى بالقرن سنة 45 هـ / 665 م. (انظر المالكي،

الرياض، تد. حسين مؤنس، القاهرة، 1951، ج I، ص 17 - 18 ؛ ابن عذاري البيان، ج I، ص 16، ابن ناجي، المعالم، ج I ص 39-40). وفي هذا الباب يقول المالكي إن: «ابن حديج اختط مدينة عند القرن قبل تأسيس عقبة القيروان، وأقام بها كامل المدّة التي بقي فيها بإفريقية». ويؤكد ذلك ابن ناجي من جهته فيقول: «وعند عودته إلى قموّنية ابتنى ابن حديج بناحية القرن مساكن سماها القيروان، وكان موقع القيروان الحالية لا يزال غير مسكون ولا معمور» (المعالم، ج I، ص 41). أمّا الموضع الذي سمّاه ابن حديج «القرن» (أي الجبل) فهو يستمدّ تسميته من علو موقعه. وهو بدون شكّ ذلك الجبيل الصغير (على ارتفاع 171 متراً) المعروف اليوم ببطن القرن و الواقع على مسافة 12 كيلومتراً بالشمال الغربي من مدينة القيروان الحالية على طريق جلولة في مكان يعتبر اليوم منطقة سياحية. (انظر م، صولينيّاك M.Solignac، بحوث في التجهيزات المائية، بمجلة، A.I.E.O، الجزائر، المجلد X، (1952)، ص 12، التعليق 10). فالاختيار الأوّل بخصوص تأسيس القيروان وقع حينئذ على مكان مرتفع في مأمن من الهجمات المباشرة ومن مخاطر الفيضانات. هذا ولئن لم تحافظ «قيروان» معاوية بن حديج على دورها كعاصمة لأفريقية فإنّها لم تفقد مع ذلك وجودها، واقتصر الناس بعد ذلك على تسميتها بالقرن. فبموقع القرن هزم في سنة 124 هـ / 427م، التأثير الخارجي عكاشة على يد حنظلة ابن صفوان والي إفريقية. وقد ورد ذكر القرن مرّة أخرى في أواخر القرن الثاني هـ / أوائل القرن الثامن م. (انظر: أبو العرب، الطبقات، تد. ابن شنب، باريس، 1915، ص 67، المالكي، الرياض، ج I، ص 18). ثم لا نقف بعد ذلك على أثر لها عند المؤلّفين، فلا يذكرها البكري ولا الإدريسي، في حين يكتفي ياقوت بقوله إنّ القرن جبل بإفريقية (البلدان، ط. بيروت، 195، ج IV، ص 333).

وفي سنة 50 هـ - / 670 م. قام الخليفة معاوية مؤسس الدولة الأموية بفصل إفريقية عن حكم ابن حديج ليعهد بولايتها إلى عقبة بن نافع، مُقرّاً مع ذلك ابن حديج على ولاية مصر. وعندما حلّ عقبة بمقر ولايته «لم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية بن حديج بناه» (انظر ابن عبد الحكم، الفتوح، ص 64). وتذكر المصادر (ابن عبد الحكم، الفتوح، ص 64-66، المالكي، رياض النفوس، ج I،

ص 6، 7، 19، ابن عذاري، البيان، ج I، ص 19-20 وابن ناجي، معالم الإيمان، ج I، ص 7-9، مع كثير من التفاصيل والجزئيات المشوبة أحيانا بمسحة العجائب والخوارق، كيف ركب عقبة مع مشاهير مرافقيه، وفيهم جماعة من الصحابة، لارتياح موقع جديد. فوقع اختياره على موضع سهل كان كثير الشجر والنبات تأتي إليه الهوام والوحوش. وهناك أقيمت مدينة القيروان الجديدة وقد ركّز بها عقبة فورا الجهازين اللّازمين لتستقيم فيها ظروف الحياة الطبيعية السليمة، فبنى المسجد الجامع ودار الإمارة وجها لوجه. ثم ظلّ ساهرا على إقامة المدينة وتشبيدها كامل مدّة ولايته الأولى - وهي خمس سنوات - ولم يخرج فيها لغزوة أو لحرب .

أمّا أبو المهاجر دينار الذي خلف عقبة في الولاية فقد «كره أن ينزل في الموضع الذي اختطّه عقبة بن نافع» (ابن عبد الحكم، الفتوح، ص 68). وقد أحرق - فيما ذكر لنا (راجع ابن عذاري، البيان، ج I، ص 22، ابن ناجي، المعالم، ج I، ص 42-43) - ما أقامه سلفه وانتقل بالعاصمة مسافة ميلين على طريق تونس في منطقة يسكنها البربر. وقد أطلق على هذه العاصمة الجديدة - التي تمّ العثور على أثارها منذ عهد قريب - اسم « تاكروان » (انظر ابن ناجي، المعالم، ج I، ص 43). ويوحى الجرس البربري لهذا الاسم وكذلك المحيط العمراني الذي اختير للمدينة بالبرنامج السياسي الجديد للحكم المركّز على التقارب مع السكّان الأصليين للبلاد، وهي السياسة التي استهلّ أبو المهاجر نهجها. ولم تترك هذه السياسة الخلافة المركزيّة، فتوجّه عقبة من جديد إلى إفريقية سنة 62 هـ / 682م. وكان أوّل ما بادر به هو إرجاع العاصمة إلى الموقع الذي سبق اختياره لها. ومنذ ذلك العهد سوف تبقى القيروان بمكانها لا تتحوّل عنه .

وتشير كلّ الدلائل إلى أنّ هذا الموقع قد كان فيما مضى مركزا لمدينة رومانية أو بيزنطية أدركها الفتح الإسلامي بعد أن آلت إلى الخراب كعدد من مثيلاتها. وقد أفادت أولى المباني التي أقامها العرب، بدون شكّ، من إعادة استخدام موادّ الآثار المتوفّرة بكثرة على عين المكان. وهناك موادّ متفاوتة القيمة الأثرية، موجودة ضمن المعالم التاريخيّة أو بالمساكن البسيطة، تمّ الكشف عنها حتّى في أسس مبنى الجامع الكبير بمناسبة القيام مؤخّرا بأشغال الترميم والإصلاح (خلال السنوات 1969 -

(1972). وبناحية الشمال يوجد، غير بعيد عن القيروان، مكان يدعى «الأصنام» (راجع التجاني، الرحلة، ط. تونس، 1958، ص 118 ابن عذاري، البيان، ج I، ص 58-59)، وهو يستمد اسمه، فيما يبدو، من كثرة عدد التماثيل التي عثر عليها الفاتحون العرب هناك. ويؤكد البكري. (المسالك، ط. دي سلان (de Slane)، باريس، 1965، ص 22 / 52-53) أن سوق الضرب (أي بطحاء دار ضرب السكة والنقود) كانت فيما مضى موقعا لكنيسة. هذا وتؤكد المصادر بوضوح أن مدينة القيروان أقيمت على موقع مدينة قديمة كانت للأوائل تسمى قونية أو قمونية (انظر ابن عبد الحكم، الفتوح، ص 58، 74: المالكي، الرياض، ج I، ص 12، 18، 19، 21: البكري، المسالك، ص 75: ياقوت، البلدان، ج IV، ص 399، 915: ابن ناجي، المعالم، ج I، ص 39-41). وليس هناك ما يدعو إلى الشك في صحة هذه الشهادات التي يزيكها ويؤكدها العديد من الدلائل الأثرية التاريخية.

وتبقى بعد ذلك مسألة اختيار موقع المدينة. فمن الناس من يرى أن هذا الاختيار لم يكن موفقا كثيرا، ويتساءل لماذا حصل تخير هذا الصقع النائي من منطقة السهوب الذي لا يلائم ما تقتضيه العواصم الكبرى من تطور ونمو اقتصادي. وقد فتح ابن خلدون هذا الباب لمن بعده فذكر أن العرب عرفوا «بقلّة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن»، واستشهد على صحة ما ذهب إليه بما حصل في البصرة والكوفة والقيروان حيث كان اختيار مواقعها بعيدا عن التوفيق والصواب (راجع المقدمة ص 647). ثم جاء عدد من المؤلفين المعاصرين فشاطروه هذا الرأي. (انظر ج. ديبوا (J. Despois)، القيروان: أصل وتطور عاصمة إسلامية قديمة. في حوليات الجغرافيا، مجلد XXXIX (1930)، ص 161، ب. سباغ: القيروان، ط. زوريج 1963، ص 16). وفي الحقيقة فإن اختيار موقع القيروان لم يكن من السرداء والفساد بحيث خيل لبعضهم. وينبغي أن لا يغيب عنا أن مدينة قديمة كانت قد ازدهرت من قبل بذلك الموقع. ذلك أن هذا الموضع لم يكن عند تأسيس القيروان على ما آل إليه فيما بعد من الجفاف والجذب. أجل، إنه لم يحدث بها انقلاب مناخي، لكن البشر بها قد اعتراهم التغيير وبدّلوا تبديلا. فهذا ابن عذاري (انظر البيان، ج I، ص 20) يفيدنا بأن عقبة أصدر أمره بأن يقطع الشجر حتى يتم بناء المدينة. ويخبرنا البكري (انظر المسالك، ص 26 / 61) من ناحية أخرى بأن غابة زيتون

القيروان في القرن الرابع هـ / العاشر م. كانت من الكثافة بحيث أنها تفي لوحدها بحاجة المدينة كلها من الخشب دون أن يلحقها ضرر أو يمسها نقص يذكر. كما يفيدنا ج. ديبوا أيضا (في نفس المصدر المذكور) أن أرض المنطقة خصبة وثرية بفضل ما يحمله إليها وادي مرق الليل ووادي زرود من «طمي مخصب» فقد كان يكفي حينئذ إيجاد حل لمشكلة الماء. إلا أن هذا المشكل - الذي كان الرومان قد اهتموا إلى طريقة السيطرة عليه - وجد الحل كذلك على أيدي العرب. فقد عثر هؤلاء ، على مسافة بضعة أميال جنوبي الموقع الذي اختاروه لتأسيس القيروان ، على منشأة لخزن المياه أطلقوا عليها اسم «قصر الماء» ، يزودها مجرى مبنّي يجلب المياه الملتقطة من العينون على بعد 33 كيلومتر غربا ، بمنطقة مامس التي تسمى حاليا «هنشير الدويمين» (راجع صولينيكا ، المصدر السابق الذكر ، ص 19-21 ، 126-161) . وقد توقف عقبة بن نافع بقصر الماء عند رجوعه إلى دمشق في سنة 55 هـ / 675 م. (راجع ابن عبد الحكم ، الفتوح ، ص 68). ثم أصبح المكان بعد ذلك موضع تجمع القوافل المتجهة إلى المشرق (انظر : أبو العرب ، الطبقات ، ص 25 : المالكي ، الرياض ، ج 1 ، ص 30 و 69 - 70 ، ابن ناجي ، المعالم ، ج 1 ، ص 52 ، 147 : ابن عذاري ، البيان ، ج 1 ، ص 32 ، 44 ، 259) . وقد حقق العرب نهوض المنطقة بعد خرابها وأعادوا إليها سالف ازدهارها بمواصلته سياسة الري التي اتبعها وسلكتها من سبقهم وتوسيع آفاقها. وقد كانت الآبار والمواجل - التي لا يكاد يخلو منها بيت أو مسجد (انظر ابن ناجي ، المعالم ، ج 1 ، ص 13-25 : البكري ، المسالك ، ص 23 / 53) - تقدم للناس مساعدة محسوسة تضاف إلى طاقة المنشآت المائية الكبرى، وأشهرها بحق ما أقامته دولة الأغالبة. لذلك نرى كل الرحالين والجغرافيين العرب ينوّهون حتى أواسط القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. بثناء تلك المنطقة. وبعبارة موجزة فإن المنطقة التي وقع عليها الاختيار لتأسيس القيروان - علاوة على ما كان يتوفّر فيها من خصائص استراتيجية - كانت تتميز أيضا بأنها قابلة للإحياء الزراعي حتى توفّر البنية الاقتصادية الضرورية لنمو مدينة كبرى وتطورها. ولم تتحوّل هذه الجهة إلى منطقة سهوب وسياسب إلا بسبب تقاعس الإنسان وقعوده عن الجهد والعمل.

- تاريخ القيروان : اضطر أهل القيروان إلى مغادرة المدينة بمجرد

تأسيسها. فقد أودت كارثة تهودا ، جنوبي بسكرة ، بحياة عقبة بن نافع مؤسس القيروان الأول ، وبحياة جميع من خرج معه من أصحابه في الجيش ، فقتلوا عن آخرهم. فكانت هجرة المسلمين نحو المشرق ، واستقر كُسيَّة القائد البربري المنتصر بمدينة القيروان — وقد بقي بها بعض سكَّانها من العرب المسلمين — واتخذها عاصمة لملكه السريع الزوال (64-69 هـ / 684-689 م). فجاء بعد ذلك زهير بن قيس البلوي ثم حسان بن النعمان بالخصوص ، فقاما باسترجاع المدينة.

ومرَّ بعد ذلك من السنوات أربعة عقود هادئة مطمئنة قبل أن يعود البربر من جديد إلى تهديد عاصمة المغرب تهديدا جدياً. وفي سنة 124 هـ / 742 م. كانت المدينة على وشك السقوط تحت سيل جيوش الخوارج، إلاَّ أنَّه قد تمَّ إنقاذها في آخر لحظة بفضل انتصارين غير منتظرين حصل أحدهما بالقرن والثاني بالأصنام. ولم يحالفها الحظَّ سنة 140 هـ / 757-58 م. فاستولى عليها «الورفجومة» من الخوارج الصَّفرية بإعانة البعض من سكَّانها، وأخضعوها لسيطرتهم أكثر من سنة كاملة، وقضوا على من كان بها من القرشيين، أي الطبقة الأرستقراطية من أهل المدينة. وحرَّرت القيروان في شهر صفر من السنة الموالية (جوان - جويلية 758 م.) على يد أبي الخطَّاب الإباضي القادم إليها من طرابلس. وقد استخلف بعد ذلك على ولايتها عبد الرحمان بن رستم الذي سوف يكون فيما بعد مؤسس الدولة الرستمية بتاهرت. ولم تلبث المدينة طويلاً على تلك الحال، ففي شهر جمادى الأولى من سنة 144 هـ / أوت 761 م. جاء محمد بن الأشعث فأعادها إلى جادة الولاء للمشرق، وقام بتحسينها بأمر من الخليفة العباسي المنصور، وبنى أول سور حولها (وقد شرع في إقامته في شهر ذي القعدة من سنة 144 هـ / فيفري 762 م، وفرغ من بنائه في رجب 146 هـ / سبتمبر - أكتوبر 763 م). لكنَّ هذه التدابير والأشغال التي استوجبتها الأحداث المذكورة لم تجعل القيروان بمأمن من ويلات الدهر ومصائبه. ففي سنة 154 هـ / 771 م. حاصرت المدينة جموع متحالفة من خوارج البربريين صفرية وإباضية. وقد بلغت الحال بسكَّانها إلى حدِّ أكل «دوابهم وكلابهم وسنانيرهم» (راجع ابن عذاري البيان، ج I، ص 76). ولم تجدهم المقاومة نفعا إذ تمَّ أخذ المدينة عنوة بعد أن أضرمت النار في

أبوابها وأحدثت ثغرة بسورها. وكان ذلك آخر ما أنزل بها الخوارج من المحن والمصائب، فقدم يزيد بن حاتم المهلبى (155-171 هـ / 772-788 م). موفدا من المشرق على جناح السرعة، ومعه عدّة ووسائل، فاستعاد أمر المدينة بيده ووضع حدّا نهائيا للاضطرابات والفتن التي أحدثتها حركات الخوارج بإفريقية .

لكنّ خطرا جديدا حلّ بالبلاد، وهو خطر الجند. فأصبحت القيروان موضوع صراع بين قوّاد الجند المتمرّدين على السلطة. وفي سنة 194 هـ / 810 م. قام الأمير الأغلبى إبراهيم الأوّل (184-196 هـ / 800-812 م) بتهديم أسوارها وتفكيك أبوابها عقابا لها على محالفتها الجند المتمرّدين. ثمّ عادت إلى مثل صنيعها الأوّل، ففي سنة 209 / 824 م. فتح سكّان القيروان أبواب مدينتهم - وقد كانت أعيدت إلى مواضعها - لمنصور الطنبّذي. وكان العقاب في هذه المرّة جذريّا، إذ عمد الأمير زيادة الله الأوّل (201-223 هـ / 817-838 م). إلى « هدم سور القيروان حتّى ألصقه بالأرض » (انظر ابن عذاري، البيان، ج I، ص 100) جزاء على ما اقترفه سكّانها. وبذلك أمكن للأمرء من بعده أن يحكموا في شيء من الهدوء والطمأنينة إلى زمن ظهور الدعوة الشيعية بإفريقية. ولم تساند قلعة المذهب السنّي أمرأها المهديّين بالخطر، بل وقفت منهم موقفا سلبيا - إن لم يكن معاديا تماما - حتى خرج آخر الأمرء الأغالبة من عاصمته متسترا تحت جنح الظلام، واضطّر قائد جيوشه إلى الالتحاق به تحت وابل من الحجارة. وقد زاد حكم الفاطميّين في توسيع شقّة القطيعة بين مدينة عقبة بن نافع وبين السلطة التي أصبحت إذ ذاك بأيدي أهل الزيغ والضلال. واندلعت النار الكامنة يوم 20 شعبان من سنة 299 هـ / 11 أبريل 912م، عندما قام شجار ثمّ دارت معركة بين نفر من كتامة المفرطين في الاستعلاء والتفطرس وبين أصحاب الدكاكين من الباعة الساخطين المغتاظين، فمات في هذه الواقعة مئات من الضحايا (راجع ابن عذاري، البيان، ج I، ص 166؛ ابن الأثير، الكامل، ط. بيروت، 1966، ج VIII، ص 53). وكان لعبيد الله المهدي من حسن التدبير ما حمّله على تهدئة النفوس والخواطر. لكنّ ذلك لم يحل دون مساندة أهل القيروان لثورة أبي يزيد النّكاري الخارجي (332-336 هـ / 943-947م). وعندما خاب أملهم بعد ذلك في نجاح هذا التأثير تخلّوا عنه، فلم ينجهم ذلك من نزول العقاب بهم، إذ قام المنصور، بعد التغلّب على التأثير وقتله، بالقبض على جماعة كبيرة من أهل القيروان وأمر بتعذيبهم

وضرب أعناقهم. ولم تلق دولة الصنهاجيين، قبل رفضها المذهب الشيعي، قبولاً أحسن من سابقتها. بل إن ولاية المعز (407 - 454 هـ / 1016 - 1062 م) الحكم قد جرى استهلالها بمحاولة لاغتيال هذا الأمير - حينما كان يؤدي أول زيارة رسمية إلى القيروان - صاحبها ثورة رهيبة مفزعة (15 محرم 407 هـ / 24 جوان 1016 م) عمد فيها سكان المدينة إلى تقتيل كل الذين يشتبهون فيهم التشيع، دون تثبت أو تمييز. كما تم تحريق جثث الضحايا، وأضرمت النار في كل ما وصلت إليه أيدي المتمردين. ثم امتدت الفتنة إلى المنصورية التي عرفت بدورها التخريب والسلب والنهب، وبالرغم من مساعي الحكام في تهدئة الخواطر فقد اندلعت حركة تمرد أخرى بعد بضعة أشهر بمناسبة مواعيد عيد الفطر التي أشرف عليها المعز (1 شوال 407 هـ / 3 مارس 1017)، وسالت الدماء غزيرة من جديد. وجاء رد السلطة عنيفاً في هذه المرة، وأبيحت القيروان لنهب جند المنصورية، فلم ينج من النهب دكان واحد وأضرمت النيران في الأسواق الكبرى. وكان ذلك إيذاناً بمحن أكبر ومصائب أعظم. ولئن لم يقيم بنو هلال، بدون شك، بتخريب كل مدن إفريقية، فمن الثابت أنهم دمروا تدميراً كاملاً ما كان تبقى من عظمة القيروان وشموخها. وقد شرع الهلاليون في محاصرة القيروان منذ سنة 446 هـ / 1054 م، فتخلّى لهم عنها المعز وانصرف إلى المهديّة فنزل بها في سنة 449 هـ / 1057.

ومنذ ذلك العهد لم تبرز القيروان كثيراً على مسرح الأحداث. وعلى عكس بعض المدن الأخرى مثل قابس وقفصة وتوزر والمهديّة وسوسة وصفاقس، فإن القيروان لم تسبّب للحفصيين أي حرج أو متاعب، ولم تظهر بها أية دولة من دول الطوائف في عهد حكمهم. على أن البدو الرّحل من أعراب المنطقة قاموا بدور على الساحة السياسية، فحاولوا - بعد فوات الأوان - أن يتصدّوا لعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدّين الذي كان قد أخضع كامل إفريقية. وهُزموا شرّ هزيمة في تلك المعركة وقتل قائدهم محرز بن زياد من قبيلة رياح (سنة 556 هـ / 1061 م؛ انظر ابن خلدون، كتاب العبر، ج VI، ص 494). وفي سنة 582 هـ / 1086-1087 قدم المنصور الموحدّي على جناح السرعة من المغرب الأقصى للقضاء على خطر بني غانية الداهم قبل استفحالته. فخرج من تونس إلى القيروان حيث نزل بجيش قبل القيام بهجومه على منطقة الحامة وتدارك ما كان لحق عساكره في بادئ الأمر من

النكسات (راجع ابن خلدون، كتاب العبر، ج VI، ص 510). وبعد ذلك بسنوات قليلة استولى يحيى بن غانية على مدينة القيروان وكامل إفريقية. لكنّ هذا النصر الذائع الصيت كان عاجل الزوال، فعادت القيروان بسرعة إلى حكم الموحدّين ثمّ الحفصيّين من بعدهم. وفي سنة 669 هـ / 1270 م. أحدث نزول لويس التاسع ملك فرنسا بقرطاج انزعاجاً في جميع أنحاء البلاد. واهتزّت القيروان - وهي المدينة المباركة التي أسسها عقبة بن نافع - شوقاً إلى الجهاد في سبيل الله. وقد كان في نيّة المستنصر الحفصي أن يتحوّل بقاعدة حكمه من تونس القريبة من الخطر الداهم إلى القيروان (راجع ابن خلدون، كتاب العبر، ج VI، ص 670). لكنّ الوباء الذي وضع حدّاً للنزاع المسلّح حرم المدينة من هذا الشرف. وبعد ذلك بسنوات عادت القيروان إلى القيام بنوع من الدور السياسي بمساعدتها «الدعي» ابن أبي عمارة (681 - 683 هـ / 1283 - 1284 م) على اغتصاب الحكم. وبمبايعة القيروان إيّاه إذ مكّنته حسب ما ذكر لنا (انظر ابن خلدون - كتاب العبر، ج VI، ص 691) - من تحقيق دخول كلّ من صفاقس وسوسة والمهدية في طاعته، اقتداء بها. وقد ذكر اسم القيروان كذلك أثناء المنازعات بين الأمير أبي يحيى بكر والأمير أبي ضربّة (718 - 724 هـ / 1318 - 1324 م)، لكن أهمّ حدث جرى بها في ذلك العهد كان في شهر محرّم من سنة 749 هـ / أفريل 1348 م. إذ انتصر البدو من العرب على أبي الحسن المريني، الذي كان غلب على إفريقية، وحاصروه بالقيروان (انظر ابن خلدون، كتاب العبر، ج VI، ص 564، 814 - 816، 819). ولئن تمكّن من فكّ هذا الحصار والرجوع إلى تونس، فإنّ هذه الهزيمة كانت إيذاناً بأفول نجمه نهائياً وأدّت إلى جلائه عن البلاد.

وبعد ذلك لا نسمع ذكراً للقيروان حتى نهاية الدولة الحفصية التي تردّى آخر ملوكها في مهاوي الخزي والعار. لذلك لم يجد القائد التركي خير الدين، الذي كان قد غلب على مدينة الجزائر، صعوبة في الاستيلاء على مدينة تونس (في 18 أوت 1534) وإعلان سقوط دولة الحفصيّين. وقد عمد هذا القائد، في جملة ما قام به من أعمال، إلى تركيز حامية من الجند بالقيروان. وفي السنة التالية أعاد شارل الخامس Charles Quint امبراطور إسبانيا الأمير الحفصي مولاي الحسن إلى عرشه (في 14 جويلية 1535) تحت الحماية الإسبانية. لكنّ جنوب البلاد، كلّه بقي خارجاً عن نفوذه.

فأصبحت القيروان إذ ذاك عاصمة لإمارة مستقلة يحكمها رجل من الأولياء الصالحين من قبيلة الشاذلية يدعى سيدي عرفة. وفي سنة 1542 حاول مولاي الحسن الحفصي إرجاعها إلى نطاق حكمه لكنّ عساكره خذلوه. وهكذا احتفظ الشاذلية بحكم المدينة حتى قدوم الراجس درغوث الذي انطلق من طرابلس، وجاء فطرد الشاذلية واحتل المدينة (يوم 3 جانفي 1558) وأقام عليها حيدر باشا واليا. وفي سنة 1574 ضمّ حيدر باشا قواته إلى قوات طرابلس لمساندة سنان باشا الذي قدم على رأس أسطول ضخم فوضع حداً نهائيا للدولة الحفصية وللسيطرة الإسبانية (انظر ابن أبي الضياف، الإتحاف، ط. تونس 1963، ج II، ص 18-21، الذي يضع هذه الأحداث في سنة 981 هـ / 1573 م). وقد نظمت البلاد التونسية عندئذ بشكل ولاية تركية (باشاليك) وعين على رأسها حيدر باشا والي القيروان سابقا. (انظر ابن أبي الضياف، الإتحاف، ج II، ص 27).

وفي عهد الدولة المرادية ازدادت القيروان تدهورا وأفولا. أجل، لقد أظهر حمودة باشا المرادي بعض الاهتمام بالمدينة، فقدم إلى الجهة في سنة 1631 وأطرد منها قبيلة أولاد سعيد وركّز بالمدينة حامية من «صباحية الوجوق». لكن ما لبثت أن حلت الحرب الأهلية بين علي باي وأخيه محمد. وانضمت القيروان إلى صفّ هذا الأخير، فأصبحت بعد اتفاق سنة 1678، الذي قسم البلاد بين الأمرين المتنازعين، عاصمة حكمه (انظر ابن أبي الضياف، الإتحاف، ج II، ص 55). وقد ناوت القيروان بعد ذلك مراد الثالث «أبا بالة» (1699-1702) فحاصرها وقرض عليها غرامة جماعية كبرى. ثم أبيضت نهبا لخليـل باي طرابلس مكافأة له على محالفته ومساندته في الحرب ضدّ الجزائر. وفي السنة التالية (1701) أصدرت الأوامر إلى سكّان القيروان وأجبروا على تخريب كامل مدينتهم بأيديهم، باستثناء الجوامع ومقامات الأولياء الصالحين التي تمّ الإبقاء عليها (انظر ابن أبي الضياف، الإتحاف، ج II، ص 76). وإثر اغتيال الطاغية مراد الثالث تمكّن إبراهيم الشريف من تدارك ما حصل من أضرار. وتمّ الترخيص لأهالي القيروان في سنة 1703 بالرجوع إلى مدينتهم ورفع أنقاضها وإصلاح ما خرب منها (ابن أبي الضياف، الإتحاف، ج II، ص 81).

ثمّ أفساد أهل القيروان فيما بعد من عطف حسين بن علي (1705-1735) مؤسس الدولة الحسينية، الذي حرص بالخصوص على ترميم

المساجد والجوامع، وكانوا أوفياء له حتى النهاية. وقد لجأ حسين بن علي إلى القيروان وحاصره بها ابن أخيه علي باشا مدة خمس سنوات قبل أن يتم القبض عليه وضرب عنقه (في 13 ماي 1740). وتمّ في نفس الوقت شنق أربعين رجلاً من وجوه القيروان وتهديم سور المدينة (ابن أبي الضياف، الإتحاف، ج II، ص 112 - 118). وبتولية الأمير محمد الرشيد (1756 - 1759) ابن حسين بن علي، حظيت القيروان من جديد برعاية السلطة وبعرفان أولاد مؤسس الدولة، فأعيد بناء سورها ومُنحت عدداً من الإعفاءات الجبائية وتحسّنت حال أهلها تحسّناً ملحوظاً. ولم تجد نفس الخطوة في عهد الأمير حسين الثاني (1824-1835)، إذ تمّ تغريم أهلها بمبلغ باهض ممّا أدّى بهم إلى الإفلاس واضطّرهم إلى بيع ما يملكون لتسديد ما فُرض عليهم. لذلك كانت القيروان - في سنة 1864 من أنشط مراكز ثورة علي بن غداهم. ففي رحاب المدينة عقدت قبائل جلاص بقيادة السبوعي بن محمد السبوعي ندوة مع قبائل بني زيد والهمامة والفراشيش، إلّا أنّ هذه الندوة لم تسفر عن أي عمل ملموس. وبعد ذلك بسنوات، إبّان انتصاب الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية سنة 1881، نالت القيروان كذلك شرفاً وفخراً إذ أنها كانت من أقوى مراكز الدعوة إلى مقاومة الدّخلاء. وقد انعقدت فيها ندوة بالجامع الكبير من 15 إلى 20 جوان سنة 1881 جمعت ممثلين عن قبائل مختلفة. وقررت هذه الندوة اللّجوء إلى باشا طرابلس لطلب النجدة والعون. وإن لم يسفر هذا المسعى عن أية نتيجة، فقد حصل الاقتناع بأنّ كلّ عمل مسلّح منفرد هو بمثابة سعي لا طائل من ورائه، فتمّ في آخر الأمر احتلال المدينة بدون مقاومة ولاقتال يوم 26 أكتوبر 1881، وانفرد أبناء جلاص وحدهم مدّة من الزمن بالقيام ببعض عمليات المقاومة المحدودة.

- الجغرافيا التاريخية : إنّ مدينة القيروان التي كان مؤسسها يتمنّى لها أن « يعزّ الله بها دينه إلى آخر الدّهر » (انظر ابن عذاري، البيان، ج I، ص 19: ابو العرب، الطبقات، ص 81)، قد أدّت مهمّتها إلى حدّ لا بأس به. فهي لا تزال إلى اليوم مدينة مباركة مبرورة معظمها، لكنّها فقدت منذ قرون دورها كمدينة كبرى. وقد مرت أحياناً، كما رأينا، بأوج العظمة، كما شهدت أعظم الكوارث والمصائب.

وكان عقبة بن نافع قد بدأ باختطاط موقع المسجد الجامع ودار الإمارة.

وحول هذين المعلمين - وداخل منطقة يبلغ طول محيطها 13,600 ذراع (انظر ابن عذاري، البيان، ج. I. ص. 21) أي ما يقارب 7.5 كلم - تم تقسيم الأراضي وتوزيعها على القبائل، مثلما حصل من قبل بالبصرة والكوفة - وقد تم تأسيسها في ظروف مماثلة. لكننا لا نملك معطيات مدققة بهذا الشأن باستثناء بعض الإشارات والتلميحات. فنعلم مثلاً (انظر البكري، المسالك، ص 23) أن بني فهر- وهم بطن من قريش ينتسب إليه مؤسس المدينة - كانوا نزلوا شمالي المسجد الجامع في عهد هشام بن عبد الملك (105-125 هـ / 724-743 م). وحتى في القرن الثالث هـ / التاسع م. فإن أحياء المدينة قد حافظت على طابع التقسيم المعتمد بوضوح على النسب والقبيلة أو على الدين والمعتقد . فمن ذلك ما ذكر لنا من وجود حارة يحصب (انظر القاضي عياض، المدارك، تحقيق جزئي لمحمد الطالبي بعنوان تراجم أغلبية... تونس، 1968، ص 71)، ورحبة القرشيين (القاضي عياض، المدارك، ص 369)، ودرج الفرشاش (نفس المصدر، ص 359)، وسوق اليهود (نفس المصدر، ص 359)

وقد تم بناء القيروان من بادىء أمرها بناء متينا أعيد فيه استخدام المواد المحصلة من بقايا المباني القديمة. وهي متوفرة بكثرة في ذلك الموقع. وتم تصويرها من أول وهلة - كما يشهد بذلك اتساع محيطها - كمصر عظيم من شأنه أن يجمع عرب إفريقية كافة، وكانوا في بادىء الأمر يتألفون أساسا من الجند الفاتحين، يرافقهم غالبا أهل بيتهم. وأغلب الظن أن عدد سكان المدينة لم يكن يقل في الأصل عن الخمسين ألف نسمة تقريبا .

وكما كان الشأن بالنسبة إلى البصرة والكوفة من قبل، فإن القيروان لم يكن لها في بادىء الأمر سور يحميها، فبقيت مايناhez القرن، مدينة مفتوحة على ما حولها. ثم اضطرتها ظروف الزمان - كما رأينا - إلى الاحتماء منذ سنة 144 هـ / 762 م. خلف أسوار سمكها عشرة أذرع. (انظر البكري، المسالك، ص 24). وقد كانت ولاية يزيد بن حاتم المهلبى محمودة العواقب على المدينة، فبادر بتنظيم أسواقها وأفرد كلاً منها بصنف من النشاط (انظر ابن عذاري، البيان، ج I، ص 78). وقد كان لهذا الرجل من الشهرة والهيبة ما حمل عددا من الشعراء والعلماء إلى الوفود عليه والإقامة بجواره. وبذلك كانت القيروان تمهد السبيل لكي تصبح مركزا من أهم مراكز الحضارة .

وبلغت المدينة أوج عزّها وازدهارها في القرن الثالث هـ / التاسع م. إذ أصبحت عاصمة مستقلة بأمورها. وأقيم بجوارها سنة 184 هـ / 800 م. قصر إمارة محصّن، وهو قصر العباسيّة. ثم تلاه سنة 263 هـ / 877 م. قصر إمارة ثان أضخم بناء وأوسع أرجاء وأكثر فخامة وترفاً، وهو قصر رقّادة. وقد نشأ عن اتّساع المدينة وتعاطم أمرها شيء من الحرج لأصحاب السلطان. فلم تعد المدينة في حاجة إلى الحماية بل أصبح من اللازم الاحتماء من خطرها وتوقّي شرّها. وترتّب عن كلّ ذلك أن فقدت القيروان أسوارها في الظروف التي أوردنا ذكرها. أمّا مقاييس المدينة وأبعادها إذ ذاك، فيشير البكري (المسالك، ص 25-26) إلى أنّ «السّماط» المحاذي للجانب الغربي من الجامع الكبير كان طوله - من باب أبي الرّبيع جنوباً إلى باب تونس شمالاً - ميلين وثلاث الميّل، وهو ما يساوي (بحساب 1600 متر كمقابل لميل البكري) أربعة كيلومترات إلّا قليلاً. ويمكن أن نفترض أنّ عرض المدينة كان يعادل طولها. ومثل هذه المساحة يقتضي عدداً من السكّان يبلغ عدّة مئات من الآلاف وتؤكد هذا التقرير دلائل أخرى: فقد كانت المدينة تعدّ - حسب ما يرويه البكري دائماً - ما لا يقلّ عن 48 حمّاماً. وقد أحصى في إحدى المرّات، بمناسبة عاشوراء، عدد الثيران التي تمّ ذبحها لسدّ حاجة استهلاك السكّان، فبلغ ذلك 950 ثوراً. وهو ما يمثّل مقداراً من اللّحوم لا يقلّ عن 200 طنّ. فهل يكون مثل هذا القول من باب المبالغة فحسب؟ وحتى إذا سلّمنا بذلك فإنّ مثل هذه الإشارة توحى بوجود عدد لا يستهان به من السكّان بالمدينة. ويذكر اليعقوبي - الذي كان يكتب في النصف الثاني من القرن الثالث هـ / التاسع م. - أنّ زائر القيروان يلقى بها أناساً من مختلف العناصر والأجناس. فمن عرب ينتسبون إلى قريش ومضر وربيعة وقحطان وغيرها من القبائل، وفرس من خراسان، إلى بربر وروم (لاتينيّين) وغير ذلك. (انظر كتاب البلدان Les Pays ترجمة ج. فيات G.Wiel، القاهرة، 1937، ص 210). وإلى جانب المسلمين، وهم الأغلبية، فقد كان يوجد بها يهود ونصارى. ولقد رخص الوالي الفضل بن روح (177-178 هـ / 793 - 94 م). بإقامة كنيسة بالمدينة (انظر ابن الرقيق (منسوب). التاريخ، تح. م. كعبي، تونس، 1968، ص 185). وقد كان لكنيسة القيروان في أواسط القرن الثالث هـ / التاسع م. عدة رؤساء (عياض، المدارك، ص 132). وتدلّ النقائش المكتوبة على أنّ نصارى القيروان حافظوا على استعمال اللاتينيّة

في كتابات شواهد قبورهم حتى القرن الخامس هـ / الحادي عشر م .
هذا ولم تُعد منشآت خزن المياه المقامة منذ خلافة هشام بن عبد الملك (105 - 125 هـ / 724 - 743 م). كافية لكل هذه الخلائق (انظر البكري، المسالك، ص 26). ومن الثابت أن عدد السكّان قد استمر في التزايد في عهد الأغالبة، وهو ما يفسر إقامة خزّانات جديدة للمياه لسدّ الحاجات المتطوّرة. وقد كانت الفسقية العظيمة المتخذة بباب تونس من قبل الأمير أبي إبراهيم أحمد (242 - 249 هـ / 856 - 863 م) - والتي لا تزال آثارها تملك إعجاب الناس إلى اليوم - أفخم وأضخم إنجاز بين المنشآت الأربع عشرة الأخرى المماثلة لها .

أمّا الجامع الكبير، وهو أقدم وأشهر معلم ديني في المغرب الإسلامي، فقد واكب هو أيضا نسق التوسّع بالمدينة وتجدد مظهره. وقد اتخذ هذا الجامع شكله وحجمه الحاليين منذ القرن الثالث هـ / التاسع م.، باستثناء بعض الجزئيات. وقد كان جدّد بناءه حسّان بن النّعمان، ثمّ تمّ توسيعه نحو الشمال وبناء مؤذنته الحالية في خلافة هشام بن عبد الملك على أقرب تقدير. وجدّد بناءه بعد ذلك يزيد بن حاتم سنة 157 هـ / 744 م ثم جاء الأمير زيادة الله الأوّل فقام بتهديم كامل الجامع، باستثناء المؤذنة فيما يبدو، وأقام بناءه من جديد (سنة 221 هـ / 836 م) مع المحافظة على اتجاه جدار القبلة الذي قد كان حدّده واتخذة عقبة بن نافع، (رغم ماكان في ذلك الجدار من انحراف نحو الجنوب يبلغ 31 درجة تقريبا). وقام الأمير أبو إبراهيم أحمد بالزيادة في توسيع الجامع، وتجميله (سنة 248 هـ / 862 - 863 م). ومنذ ذلك التاريخ لم تدخل أشغال الترميم والتجميل المتعاقبة التي جرت بالجامع أي تغيير على شكله ومظهره العام. وقد أضاف إليه المعزّ بن باديس الصنهاجي (407 - 454 هـ / 1016 - 1062 م) المقصورة الحالية التي عوّضت مقصورة الأغالبة المحوّلة إلى مكتبة. وقد جرت بالجامع أشغال توسيع وتجميل أخرى في عهد الدولة الحفصية، ثمّ في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. وآخر ترميم تمّ القيام به كان من سنة 1970 إلى 1972.

هذا وقد ساعد تطوّر المدينة على نهضتها الفكرية فأصبحت القيروان في القرن الثالث هـ / التاسع م. من المراكز الثقافية الرئيسية في بلاد الإسلام. وكان الإمام مالك (المتوفى سنة 179 هـ / 795 م) يعدّها، مع الكوفة والمدينة، إحدى عواصم العلوم الإسلامية الثلاث (راجع ابن

ناجي. المعالم ، ج II ، ص 38). وفي القيروان قام يحيى بن سلام البصري (124-200 هـ / 741-815 م) قبل الطبري بزمان طويل بتأليف وتدريس كتابه في التفسير (الذي وصلنا منه بعض أجزاء : ويوجد منه مخطوطان بتونس، أحدهما بالمكتبة الوطنية برقم 7447 ، والثاني ضمن رصيد كتب مكتبة حسن حسني عبد الوهاب). وقد كان هذا الكتاب أول المؤلفات الضخمة الشامخة في تفسير القرآن عند المسلمين. أمّا أسد بن الفرات (حوالي 142-213 هـ / 759-828 م) فإنه حضر دروس مالك وأخذ عن محمد بن الحسن من أصحاب أبي حنيفة وعن عدد كبير من الشيوخ بالمشرق، ثم ضمّن الخلاصة الشخصية لكل ما تحصلّ لديه من شيوخه في رسالته الأسدية. وأخذ عنه العلم عدد وافر من الطلبة الذين استمروا بعده في العمل على طريقته وفي نشر تعاليمه. وقد كان من الجائز أن يكتب لمساعي أسد بن الفرات أن تؤول إلى قيام مدرسة قيروانية متميّزة في الفقه أو مذهب قيرواني لو لم تكسفه شهرة الإمام سحنون (حوالي سنة 160-240 هـ / 777-854 م)، الذي كان إمام زمانه بدون منازع، وقد أصبحت مدوّنته الضخمة، التي يروي لنا فيها تعاليم مالك برواية ابن القاسم، دليلاً لأهل القيروان، لا ينفكّ لسانهم يلهج بذكر ما ورد فيها. وقد أقبل الناس على دروس سحنون من كلّ حذب وصوب، وجاءوه حتى من الأندلس حيث كان يقوم بنشر تعاليمه وآرائه ما لا يقلّ عن 57 واحداً من تلاميذه المعروفين. هذا ولئن لم يترك لنا علماء اللّغة القيروانيون مؤلّفات هامة، فإنّ نشاط أهل القيروان في هذا الباب كان من الأهمية بمكان، حتّى أنّه حمل أبا بكر الزّبيدي على إفرادهم بباب خاصّ في كتابه طبقات النحويّين واللّغويّين، (ط. القاهرة، 1954، ص 224-272). أمّا الطبّ فقد مثله عن جدارة كلّ من زياد بن خلفون وإسحاق بن عمران وإسحاق بن سليمان (انظر البكري المسالك، ص 24؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ط. وترجمة أ. نورالدين وهـ. جاهييه H.Jahier الجزائر، 1958، ص 2-9) أمّا مؤلّفاتهم فقد نقلها قسطنطين الإفريقي، منذ القرن الحادي عشر إلى اللّغة اللاتينية، ودرّست بمدينة سالرنو .

ولم يكن عهد حكم الشيعة الفاطميّين مؤاتياً لقلعة المذهب السنيّ. وكانت قبائل كتامة الظافرة تطالب الحكّام، كجزاء على ما تكبّدته من متاعب في مساندتهم، بإطلاق أيديها في نهب المدينة ذات الخيرات الوفيرة. وفي نهاية الأمر، لم يلحق القيروان كبير أذى، فاستطاعت - رغم إقامة مدينة منافسة

بجوارها، وهي صبرة المنصورية (سنة 336 هـ / 947 - 948 م)، ورغم المساعي المبذولة في نقل الأنشطة التجارية من القيروان إليها - أن تحافظ على ازدهارها ومكانتها الاقتصادية، وأن تصمد في وجه عدد من الكوارث الطبيعية مثل الزلزال (سنة 299 هـ / 911 - 912 م)، وحريق الأسواق (13 ذو الحجة من سنة 306 هـ / 17 ماي 919 م)، والفيضان (سنة 308 هـ / 920 - 921 م) والمجاعة والوباء (سنة 317 هـ / 929 م). وقد اتفق كاتبان متعاصران في الشهادة بصمود المدينة وثباتها، وهما ابن حوقل (في كتاب صورة الأرض، ط. بيروت، بدون تاريخ، ص 94)، والمقدسي (في كتاب أحسن التقاسيم، تحقيق وترجمة جزئيان لشارل بيلا Ch.Pellat، الجزائر، 1950، ص 14 - 17) بل إنه قد تم إدخال تحسينات على تزويدها بالماء، إذ أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي قد قام فعلا ببناء قناة تجلب الماء من الجبال لتملأ الفسقيات والمواجل بالمدينة بعد المرور عبر قصر صبرة (انظر المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 15). وكان يشق المدينة ما لا يقل عن 15 دربا كبيرا، وصلتنا أسماء عدد منها (انظر المقدسي، ص 17). كما أن مساحتها قد زادت أيضا عن ذي قبل. ويذكر لنا المقدسي (ص 15) أن « ضلع المدينة كان يساوي ثلاثة أميال إلا قليلا » (وهو ما يعادل 5,5 كلم تقريبا على أساس 1900 متر كمقابل لميل المقدسي). ويمكن أن نستنتج من هذا أن عدد سكانها قد ازداد بصورة ملحوظة، وقد بلغت بذلك أوج اتساعها وأقصاه.

ومنذ ذلك الوقت دخلت القيروان - كما دخلت إفريقية بأكملها - مرحلة الركود ثم التقهقر الحتمي الذي لامناص منه رغم ما كانت تشهده بين الفينة والأخرى من توثبات مكنتها فقط من الاحتفاظ بشيء من المكانة والاعتبار - دون أن تعيد إليها يوما ما كانت عرفته من سالف المجد - في نطاق بلاد كتب عليها نهائيا أن تبقى ناقصة ضعيفة. وقد صاحب نقل الخلافة الفاطمية إلى القاهرة (سنة 361 هـ / 972 م) امتصاص شديد لموارد إفريقية واستنزاف لخيراتنا. وحمل الفاطميون معهم إلى مصر مذكرات الذهب والفضة التي كانت موجودة بالبلاد. وفقدت القيروان نهائيا صفتها ودورها كعاصمة. ولم يحفل الأمراء الصنهاجيون الأول بالإقامة فيها كثيرا، بل إنهم أنهكوا قواهم في حروب لانهاية لها بنواحي المغرب الأوسط والمغرب الأقصى. ولقد تمّ ابتزاز خيرات المدينة - وكانت لا تزال مزدهرة في أول عهد الصنهاجيين - إرضاء لرغبات خليفة

القاهرة. وقام عبد الله الكاتب مبعوث الخليفة ونائبه بابتزاز ما لا يقل عن مبلغ 400,000 دينار في سنة 366 هـ / 976-977م. أخذها من عند 600 من أعيان المدينة، فارضا على بعضهم دفع 10,000 دينار بمفرده (انظر ابن عذاري البيان، ج I، ص 230) وقد كان في ذلك إفلاس العدد الأوفر منهم. وبعد مرور بضعة عقود من السنين عرفت القيروان سنة 395 هـ / 1004 - 1005م القحط والمجاعة وأصيب أهلها بوباء مهول احتفظ لنا ابن عذاري (في البيان I، ص 256 - 257)، - فيما نقله عن ابن الرقيق - بوصف مؤثر له. فقد كان الموتى يدفنون بالمشات في أخاديد جماعية. وقد اقفرّت البيوت من أهلها وتعطلت المصالح من أفران ومخابز وحمامات وغيرها. وخلت المدينة من السكّان وفرّ الناس في وجوه البلاد، ووصل الهاربون نجاة بانفسهم حتى صقلية.

وبعد ذلك بسنوات أجبر التجّار من جديد في عام 405 هـ / 1014 - 1015م. على الانتقال إلى صبرة. وإليها تحوّلت قبائل صنهاجة كذلك. وكانت الأمور تجري كما لو أنّ بعضهم كان يسعى جاهدا في خنق قلعة المذهب السنيّ التي تعاورتها المحن والمصائب من كلّ جانب فتلاشى ازدهارها وثراؤها وتنقص عدد سكّانها، حتى أنّ طول سورها - المتصل بمدينة صبرة بواسطة مجاز أو معبر خاصّ - والذي سارع بإقامته سنة 444 هـ / 1052 - 1053م. الأمير المعزّ بن باديس عندما كان مهيدا يبحث عن أسباب النجاة، لم يتجاوز 22,000 ذراع، أي ما يقارب 10,5 كلم. (راجع البكري، المسالك، ص 25). وهكذا فقد عادت المدينة تقريبا إلى حجم النواة الأصليّة التي أقرّ حدودها عقبة بن نافع. وإذا ما كانت المعطيات المرقّمة الواردة في مراجعنا صحيحة - وهذا أغلب الظنّ - فيجب التسليم بأنّ المدينة قد تراجعت رقعته إلى ثلث حجم المساحة التي كانت بلغت في أوج ازدهارها. ومعنى هذا أنها أصبحت، وهي على أبواب ماكان ينتظرها من المحن الكبرى، مجردّ شبح باهت من الصورة الزاهية التي كانت عليها فيما مضى. لكنّ الفكر احتفظ فيها مع ذلك، ولمدّة طويلة، بشيء من الازدهار. وقد واصل عدد من العلماء والمفكرين مسيرتهم المشرقة على آثار من سبقهم. فكان منهم من فقهاء المالكية ابن أبي زيد القيرواني (المتوفى سنة 386 هـ / 966 م)، والقاسي (المتوفى سنة 403 هـ / 1012م) ومن الأشاعرة القلانسي (المتوفى سنة 359 أو 361 هـ / 969 - 971 م)، ومن الأطباء ابن الجزار (المتوفى سنة 395 هـ / 1004 - 1005 م)، ومن

المؤرخين ابن الرقيق (المتوفى بعد سنة 418هـ / 1028 م). ومن المنجمين ابن أبي الرجال (المتوفى حوالي سنة 426هـ / 1034 - 1035 م) - وقد ترجم مؤلفه كتاب البارع في أحكام النجوم إلى اللغات القطلونية واللاتينية والعبرية والبرتغالية القديمة - ومن الشعراء ابن رشيق (المتوفى سنة 456هـ / 1064م). وابن شرف (المتوفى سنة 460هـ / 1067 م)، وغير هؤلاء كثير. (انظر الشاذلي بو يحيى، الحياة الأدبية بإفريقية في عهد الدولة الصنهاجية، ط. تونس 1972). لكن هؤلاء الأعلام كانوا بمثابة مشاغل الختام أو مصابيح النهاية في مدينة انهارت بنيتها الاجتماعية والاقتصادية وأوشكت أن تنزل بها الضربة القاضية التي كانت تترصدها. وقد حلت بها المصيبة فعلا بنزول بني هلال عليها وقد عمدوا إلى نهب المدينة وتخريبها في اليوم الأول من شهر رمضان سنة 449هـ / 1 نوفمبر 1057 م، أي بعد مرور يومين فقط على خروج المعز بن باديس من صبرة والتجائه إلى المهديّة. وقد قام ابن رشيق في قصيدة مؤثرة (انظر الديوان، ط. بيروت، بدون تاريخ، ص 204-212) برثاء المدينة الشهيدة. وقد كان منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. منعرجا حاسما لا بالنسبة إلى تاريخ القيروان فحسب، بل وفي تاريخ إفريقية بأكملها، فكان نهاية عهد غلبت عليه سمات الازدهار، وفاتحة عهد آخر أقلّ تألقا بكثير. وقد تراجعت مظاهر الحياة العمرانية والحضريّة بوضوح أمام أساليب عيش البداوة من رعي وترحال، وغلب الطابع البدوي على كامل البلاد وتغلغل في أعماقها كالأفة المزمنة حتى القرن التاسع عشر. وفي خضمّ هذا السياق الجديد المتّسم بالتدهور والانحطاط استحال القيروان من مدينة كبرى إلى قرية بائسة من قرى السهوب، وكانت رقعتها لا تزال تضيق مع مرور الأيام بعد ما هجر أغلب ما تبقى من سكّانها. وبعد مرور عشر سنوات على ضربة بني هلال القاضية، تمّت إقامة سور مرتجل أحاط بالجامع الكبير وبقايا أحياء المنطقة الغربية. وهذا السور الذي يكاد يحاذي رسمه السور الحالي للمدينة، كان يمتد على مسافة تفوق بقليل الثلاثة كيلومترات. ويذكر الإدريسي (انظر النزهة، نشرة جزئية لـ هـ. بيراس H.Pérès، الجزائر 1957، ص 80) أنّ القيروان لم تعد في العهد الذي كان يكتب فيه - أي في أواسط القرن السادس هـ / الثاني عشر م.، قبيل قدوم الموحدّين بقليل - سوى « أطلال دراسة وآثار طامسة »، وإنّ ما بقي منها محاط بأسوار غير كاملة من تراب وطين، وأنّها أصبحت في يد العرب

البدو الذين كانوا يأخذون الجزية والجبايات من سكّانها القلائل المعدمين. أمّا رقادة وصبرة فلم تلبثا حتى اندثرتا تماما .

وفي عهد دولة الموحّدين، ثمّ في عهد الدولة الحفصيّة على وجه الخصوص، شهدت البلاد من جديد فترة من السلم النسبية، فأمكن للقيروان أن تنهض جزئيا من تحت الانقراض. وخلال القرن السابع هـ / الثالث عشر م. تمّت إحاطة المدينة بأسوار أكثر حصانة بفضل جهود الأهالي. ومع انطلاق حركة الطرق الصوفيّة وازدهارها أخذت المدينة تمتلئ بمقامات الأولياء الصالحين (انظر ابن ناجي، المعالم، ج IV، ص 227). لكنّ سكّانها الذين أصبح معظمهم من العناصر البدويّة المتحضّرة، كانوا أقلّ رقة ولطفا من ذي قبل . لذلك نجد ياقوت (المتوفى سنة 626 هـ / 1228 م. يقول في كتابه : « لم يعد يوجد بها اليوم سوى صعاليك لا خير فيهم » (البلدان، بيروت، 1957، ج IV، ص 420). ولم يكن رأي العبدري فيها بأفضل من رأي ياقوت، وقد زارها متبرّكا حوالي سنة 688 هـ / 1289 م. (انظر الرحلة المغربيّة تح.م. الفاسي، الرباط، ص 64، 66، 82) .

وفي الحقيقة فقد بدأت بالنسبة إلى القيروان حياة جديدة في مستوى أشدّ تواضعا وأكثر بساطة. وذلك أنّها استطاعت في خضمّ ذلك السيّاق العامّ من التدهور المستمرّ، أن تحتفظ بمكانة محدّدة بفضل قدرتها على التكيف مع وظيفتها الاقتصادية الجديدة. وهذه المنزلة، لئن كانت لا تتناسب حقّا مع ما شهدته المدينة في الماضي من العظمة والمجد، فهي مع ذلك منزلة محترمة إذا ما قيسَت بغيرها من مدن البلاد. وقد تمثّلت وظيفتها الجديدة في أن تكون سوقا و مركزا تجاريا بالنسبة إلى البدو. فكانت أسواق المدينة، بعد أن تضاعف حجمها وتمّ إبعادها نحو الغرب، تزوّد أولئك البدو ببعض الموادّ الضرورية لحياتهم مثل الجلود والأقمشة والمعادن. وكانت المدينة تتلقّى في المقابل موادّ النشاط الرّعوي . وقد وصفها الحسن بن محمد الفاسي (المعروف بليون الإفريقي = Léon l'Africain بعد أن زارها سنة 1516، أي في نهاية عهد الدولة الحفصية، فقال عنها : « لا يرى بها اليوم سوى بعض الحرفيّين المساكين أغلبهم من المشتغلين بدباغة جلود الضأن والماعز، وهم يبيعون ما يصنعونه بجلودهم من ملابس في المدن النوميديّة التي لا توجد بها أقمشة مصنوعة ببلاد النصارى » (انظر وصف إفريقيا، ترجمة إيبولار A.Epaulard، ط. باريس 1956، ج II، ص 398). وبعد ذلك، ولاسيما في أوائل عهد الدولة الحسينيّة، تمالكت القيروان نفسها

وأصبحت تحتلّ المرتبة الثانية بين مدن البلاد. وقد تحدّث عنها في أوائل القرن الثامن عشر الوزير السراج (المتوفى سنة 1149 هـ / 1736-1737م). فقال: «لا تعرف في هذا الزمان، بعد تونس، مدينة أكبر من القيروان في كامل إفريقيا. وإنك لتجد من بين أهلها أفضل العلماء وأبرع الناس وأحذق التجار» (انظر الحلل، تحد. الهيئة، تونس، 1970 ج I ص 244). ويؤيد هذا الرأي ما كتبه ج. أ. بيسونال J.A.Peyssonnel إذ قال: «القيروان مدينة من أعظم مدن هذه المملكة. وهي تقع بسهل سبخ الأرض ودائرتها نصف فرسخ. وهي تعجّ بالسكان وتجارها نشيطة. وقد تمّ تخريبها مرارا ثم أصلحت على أحسن وجه في عهد الباي حسين بن علي... وبها تصنع بكثرة أنسجة الصوف والبرانيس والسفساري وغير ذلك من الأصناف الخاصة بالبلاد...» (قصة رحلة على سواحل بلاد البربر، بإذن من الملك في سنة 1724 و 1725 نشر ديرودي لامال Dureau de la Malle باريس، 1838، ج I، ص 113؛ انظر أيضا ج I، ص 160). ويذكر ر.ل.ديفونتان R.L.Desfontaines من جهته، وكان قد زار القيروان في شهر جانفي 1784 أنّها كانت «أكبر مدن المملكة بعد تونس، بل وإنها أحسن بناء وأقلّ قذارة من تونس... وتجارة القيروان تتمثل أساسا في صناعات الجلود التي يستخدمها الأهالي في وجوه متعدّدة فيصنعون منها الأعنة والسروج والنعال الخاصة بالبلاد. كما يصنع أهل القيروان الأنسجة الصوفية المسماة «باراكان» وحياتة السكان بهذه المدينة أسعد من أي مكان آخر بسبب إعفائهم من دفع الجبايات مقابل الخدمات التي أسدوها لجد الباي الحالي». (مقتطفات من رحلة في إيالتي تونس والجزائر تمّ القيام بها من سنة 1783 إلى سنة 1786، نشر ديرودي لامال. باريس، 1838 ج II ص 61). أمّا ف. غيران V.Guérin الذي قضى بها ثلاثة أيام من 18 إلى 20 أوت 1861، فهو يعتبر أيضا أنّها بسكانها البالغ عددهم الإثني عشر ألفا «من أكثر مدن الإيالة سكّانا بعد تونس» (رحلة أثرية في الإيالة التونسية ط. باريس، 1862 ج II، ص 334). وكانت مرتبتها قبل صفاقس التي لا يزيد عدد سكّانها على 10,000 ساكن، وقبل سوسة والمنستير والمهدية التي لم يكن عدد سكّان كلّ منها يزيد على 5000 إلى 8000 نسمة. ومع ذلك فإنّها أصبحت تقوم في ذلك العهد «وسط صحراء حقيقيّة لا تكاد تجد فيها شجرا كبيرا ولا صغيرا» (ف. غيران، المصدر السابق ج II، ص 326). وبعبارة موجزة فإنّ مدينة عقبة بن نافع، بالرغم

عن تدهور أحوال منطقتها الخلفية من الأراضي، قد برهنت على كلٍّ وحتى زمن انتصاب الحماية، عن قابلية للحياة والاستمرار تفوق قابلية عدد من المراكز الأخرى ذات الموقع الأفضل .

هذا ومن الثابت المؤكد أنّ قدرتها على البقاء والدوام متصلة بمالها من إشعاع روحي وديني. فقد كانت « بما يناهز الخمسين «زواية» والعشرين مسجداً» (كما يقول ف. غيران في المصدر السابق، ج II، ص 328)، العاصمة الروحية للبلاد بلا منازع في منتصف القرن التاسع عشر. وكانت تعتبر إذ ذاك مدينة مقدّسة يحجّر دخولها مبدئياً على غير المسلمين. أمّا اليوم فإنّها لم تعد على تلك الدرجة من القداسة، وقد أصبحت معالمها الدينية مفتوحة بكل حرية في وجه السيّاح. وقد أصبحت مدينة عقبة تأتي في المرتبة الخامسة بالبلاد من حيث عدد السكّان، وهي أقلّ عواصم الولايات تجهيزات. لكنّها مازالت تمتاز مع ذلك بنوع من الهالة وتجلب إليها أجلّ الضيوف وأشهر الزوّار. وعندما يجري اليوم ذكر وحدة بلدان المغرب العربي فإنّ من الناس من يرى أنّ «عاصمة هذا الاتحاد الفدرالي بين دول المغرب المستقلة ينبغي أن تكون مدينة القيروان وهي العاصمة الروحية للمسلمين بهذه الربوع منذ قرون. وقد يكون في ذلك رمز لاسترجاع العالم الإسلامي سالف أمجاده» (انظر صحيفة لابريس بتاريخ 21 / 9 / 73، جريدة يومية تصدر بتونس).

ثبت المراجع

إنّ مصادر هذا الموضوع أكثر من أن يتمّ الإحاطة بذكرها جميعاً. وقد سبقت الإشارة إلى أهمّ هذه المصادر في أثناء هذا البحث .
- الدراسات : بالإضافة إلى ما ورد ذكره في صلب نصّ هذا البحث فإنّه تجدر الإشارة إلى : تـ . البشـروش، حكم البايات المراديين في القرن السابع عشر، أطروحة دكتوراه مرحلة ثالثة. أكس اون بروفونس 1973، ص 15، 19، 115 - 116، 137، 142. جاك بارك، الجديد عن بني هلال، بمجلة S.I..، مجلد XXXVI (1972) ص 99 - 113؛ ر. برانشفيك R. Brunschvig، بلاد البربر الشرقية في عهد الدولة الحفصية، ط. باريس. 1947 ج I، ص 357 - 376؛ كلود كاهن Claude Cahen بعض كلمات عن الهلايين والبدواة، بمجلة JESHO مارس 1968، ص 130 - 132 أ. صياسي A.Çayaci المسألة التونسية والسياسة العثمانية 1881 - 1913). ط، نوشاتال، 1963،

الفهارس، (ترجمة عربية . عبد الجليل التميمي، ط. تونس 1973، الفهارس)؛
 النابلي والمحبوبي وسالمنسون Salomonson المقبرة الرومانية برقادة، ط.
 تونس، 1971، في مجلدين؛ ب، فاغو P. Fagault، تونس والقيروان، ط.
 باريس، 1889 تدوين وقائع رحلة تمت سنة 1887، ص 216، 282 : ج.
 غانياج J. Ganiage أصول الحماية الفرنسية بتونس (1861 - 1881)، ط.
 باريس، 1959، الفهارس؛ هـ. ر. إدريس H.R. Idriss، بلاد البربر الشرقية في
 عهد الدولة الصنهاجية - القرن XXII ط. باريس، 1962، ج II، ص
 411 - 428؛ نفس المؤلف، في حقيقة الكارثة الهلالية، حوليات E.S.C
 مجلد XXIII (1968) ص 390 - 396؛ نفس المؤلف، الزحفة الهلالية
 ونتائجها، في Cah. de Civ. Médiévale ج XI 3 (1968)، ص 353 - 371؛ أ. ليزين
 A. Lézine : تقييدات عن آثار إفريقية، ج I : المثال القديم لمدينة
 القيروان (مع ضرورة الاحتياط في استخدام هذا المرجع)، ج II :
 حول باب قديم من أبواب الجامع الكبير بالقيروان، في مجلة
 الدراسات الإسلامية R.E.I المجلد XXV (1967)، ص 53 - 77؛ أ. ليزين
 وب. سباغ P. Sebag، ملاحظات حول تاريخ الجامع الكبير بالقيروان،
 في مجلة معهد الآداب العربية IBLA، عدد 99 (1962) ص 245 - 256؛ ديك
 دي لونلاي Dick de Lonlay، في تونس، ذكريات سبعة أشهر ضمن الحملة
 العسكرية. (ط. باريس، 1882، إعادة طبع سنة 1938، ص 251 - 325، عمار
 المحبوبي، شهادة جديدة في النقوش الأثرية عن المجموعة المسيحية
 بالقيروان في القرن الحادي عشر، في مجلة أفريقيا Africa المجلد I ط،
 تونس، 1966)، ص 85 - 105؛ ج. مارسى G. Marçais، تونس والقيروان، ط.
 باريس، 1937؛ نفس المؤلف، الفن المعماري الإسلامي بالمغرب العربي، ط.
 باريس، 1954، الفهارس؛ مارسى ول. بوانصو L. Poinso، مواد قيروانية من
 القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر، في كتيب، ط. تونس، 1948 - 1952؛
 أ. مارتال A. Martel، التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية
 (1881 - 1911)، ط. باريس، 1965، الفهارس؛ ش. مونشيكور Ch. Monchicourt،
 دراسات قيروانية، في المجلة التونسية R.T 1931 - 1936، ب. بوني
 P. Penet القيروان وسببيلة والجريد، دليل مصور للسياح في الجنوب
 الغربي التونسي، ط. تونس، 1911، ص 41؛ ج. بونسي J. Poncet، أسطورة
 «الكارثة» الهلالية، في حوليات E.S.C، المجلد XXII (1967)، ص 1099 - 1120؛
 ب. روا B. Roy ول. بوانصو، النقائش العربية بالقيروان، في كتيب، ط.

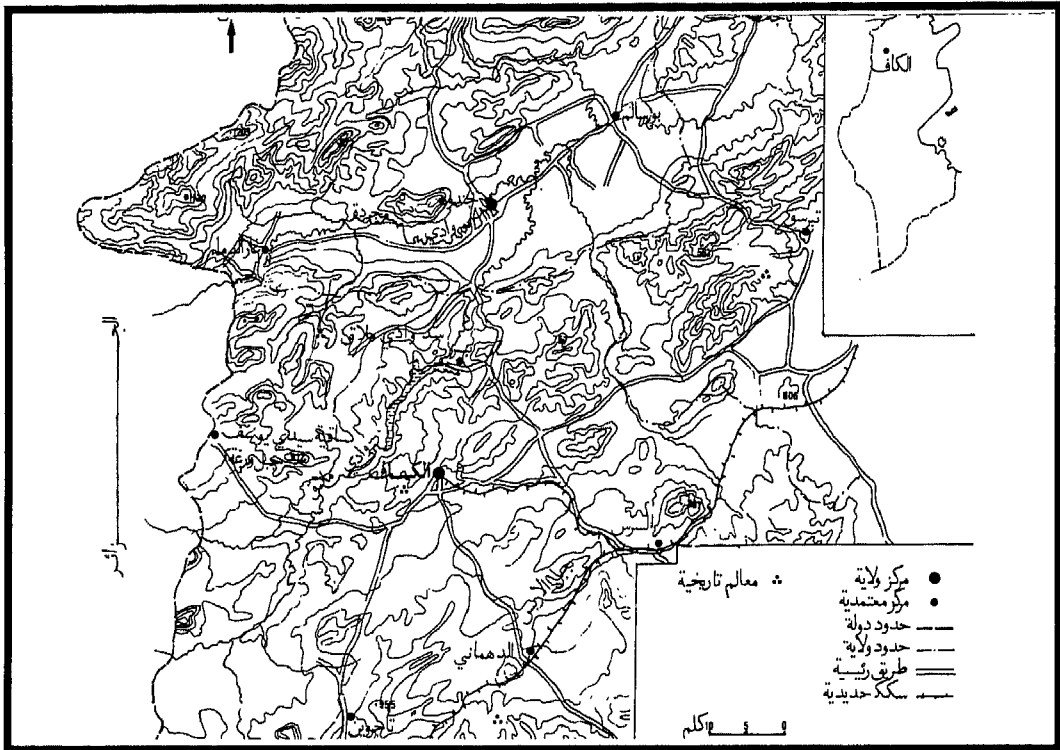
باريس، 1950 — 1958؛ هـ. صالادان H.Saladin، تونس والقيروان، ط.
باريس، 1908، ص 98-140؛ محمد الطالب، الإمارة الأغلبية، ط. باريس، 1966،
الفهارس؛ نفس المؤلف، القيروان والمذهب المالكي الأندلسي، في
مجموعة الدراسات الاستشراقية، ليفي بروفنصال، ط. باريس، 1962، ج I،
ص 317-337؛ فؤاد سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ط. القاهرة، 1965،
الفهارس؛ ع. الزغل، تعصير الفلاحة والسكان شبه الرحل. ط. لاهاي،
1967، ص 27-31، 64-78؛ وضعية التشغيل في ولاية القيروان، نشرية
مرقونة أصدرتها وزارة التخطيط، تونس، فيفري 1973.

(*) تعد ولاية القيروان 421.607 ساكن حسب تعداد 1984.

(**) تعد مدينة القيروان 72.254 ساكن حسب تعداد 1984.

(***) أقيم سد « وادي زروود » سنة 1976.

(****) تم بناء سد « وادي مرق الليل » سنة 1978.



الكام

الكام مدينة من مدن البلاد التونسية (تعدّ 18,000 ساكن)، وهي عاصمة لولاية تشمل 306,000 نسمة (حسب إحصاء 3 ماي 1966)*. وتقع الكام بمنطقة التلّ العالي على مسافة حوالي ثلاثين كيلومترا من الحدود الجزائرية وعلى ارتفاع يتراوح بين 700 و 850 مترا. ومنذ سنة 1962 جرت محاولة لتعويض الفلاحة المفردة التقليدية المركّزة على زراعة الحبوب دون سواها بتلك الجهة بفلاحة تعتمد مزيدا من تنوع الزراعات المختلفة. إلا أن تجربة التجميع التعاوضي للأراضي قد تمّ التخليّ عنها ابتداء من شهر سبتمبر 1969. وقد كانت المدينة أيضا موضع جهود ذات بال بُذلت في مجال التعمير والبناء وفي ميدان النهوض الثقافي . وفي نطاق هذه المساعي أصبح يقام

بهذه المدينة مهرجان خاص بالقائد البربري «يوغرطة» الذي أضحى بمثابة البطل لهذه المنطقة .

- **تاريخها :** هذا ومن الثابت أن موقع مدينة الكاف كان معمورا منذ العهد الحجري الأول. لكننا لا نعلم بالتحديد متى تم تأسيس المدينة نفسها. وهي بدون شك من المنشآت اللوبية أو البونية. وقد ورد ذكر اسم المدينة لأول مرة في النصوص القديمة سنة 241 قبل الميلاد في معرض الحديث عن الجند المرتزقة الذين وجهتهم إليها قرطاج على إثر الحرب البونية الأولى بقصد إبعادهم وحماية العاصمة من خطرهم المهدد... وقد كان اللاتينيون يطلقون على هذه المدينة اسم « سكا فينيريا » *Sicca Veneria* تعظيما لاحدى الإلهات البونيات التي تم تقيصها شخصية « فينوس » إلهة الحب. ويبدو من الثابت، ان معبد هذه الآلهة كان مركزا لتعاطي طقوس الخناء الشعائري. وأثناء حكم الامبراطورية الرومانية أطلق على المدينة اسم. «كولونيا جوليا سيرتا نوبا» *Colonia Julia Cirta Nova* ثم دخلت في حكم المسلمين تحسنت اسم « شقة بنارية » (وهو تحريف لعبارة سكا فينيريا)، وبقي هذا الاسم يُطلق عليها باستمرار في النصوص العربية إلى نهاية العصر الوسيط. ولم يكن ابن خلدون (المتوفى سنة 808 هـ / 1406 م) يعرف لها غير هذا الاسم. وقد ظهر اسم الكاف لأول مرة عند المؤرخ ابن أبي دينار، الذي كان يكتب حوالي سنة 1110 هـ / 1698 - 1699 م، وعند الوزير السراج (المتوفى سنة 1149 هـ / 1736 - 1737 م) الذي رأى من اللازم عند استشهاد بكلام ابن الشباط في سياق الحديث عن شقة بنارية أن يؤكد أن « هذه المدينة هي التي تسمى اليوم الكاف » (انظر الحلل ج I / II ، ص 525)، مما يدل على أن الاسم القديم قد كان دخل تماما في طي النسيان . وقد يكون هذا التغيير في التسمية حدث مع حلول العهد التركي (1574) الذي مكّن المدينة من تحقيق انطلاقة جديدة. هذا وينبغي أن نشير أخيرا إلى أنه يوجد بالبلاد التونسية مايناهاز العشرين موقعا تحمل أسماء يدخل في تركيبها لفظ « الكاف » (انظر ر. فوفراي *R.Vaufrey*، أفريقيا قبل التاريخ، فهارس المجلدين I و II : ل. بالوت *L.Balout*، أفريقيا الشمالية قبل التاريخ، الفهارس؛ ج. غانياج *(J. Ganiage)*، أصول الحماية الفرنسية بتونس، ص 35-62؛ الدليل الأزرق للبلاد التونسية، الفهرس). وقد ورد ذكر موقع باسم «الكيفان» (جمع كاف) بالقرب من مدينة فاس (راجع الحسن بن محمد

الفاسي Jean-Léon l'Africain، وصف افريقيا، ج I، ص 229 التعليق رقم 270) كما يذكر ياقوت الحموي (معجم البلدان، ج IV، ص 431) قلعة ببلاد الشام تحمل اسم الكاف، وهي بدون شك تلك التي يسميها ابن خلدون «الكهف» (راجع كتاب العبر، ج V، ص 842) والتي افتكها السلطان الظاهر بيبرس (658-676 هـ / 1260-1277 م) من الاسماعيليين. ويتبين من هذا أن تسمية الكاف كانت شائعة جداً. وهي بدون شك تحريف اللفظة العربية كهف (أي غار) بسقوط حرف الهاء الهوائي. وقد جرى إطلاق هذه التسمية على كل تجمع سكني يقام في موقع كهوف ومغارات ولا سيما إذا كان ذلك الموقع مرتفعاً. ومن هذا الوجه فإن مدينة الكاف تستحق اسمها بكل جدارة. وهذا ما يقوله عنها الكاتب تيسو Tissot في كتابه الجغرافيا المقارنة... ج II، ص 378: «هذه المدينة المستقرة فوق واحد من أول المرتفعات في كتلة جبلية متلاحمة يمكن اعتبارها بحق قلعة طبيعية، تشرف على السهول الكبرى للسرّس وزنفور والأربص ووادي ملاق، كما تتحكم في إحدى الطرقات الرئيسية الرابطة بين مدينة تونس والبلاد الجزائرية».

وقد شاع ذكر هذه «القلعة الطبيعية» في أيام حرب القائد البربري يوغرطة الذي اتخذها حصناً من حصونه. وإثر دخولها في حكم رومة، تمّ رفعها إلى مرتبة «مستعمرة» فشهدت ازدهارا حقيقيا في عهد الامبراطورية الرومانية، وكان لها بعض الإشعاع في الفترة التي كان ارنوب دي سكا Arnobe de Sicca العالم بأساليب البلاغة (والمتوفى حوالي سنة 327م) يدرّس بها. وتحفظ الكاف من ماضيها القديم بالعديد من الآثار المعروفة اليوم (مثل كنيسة دار القوس المقامة تقربا للقدّيس بطرس، وعدد من الفسقيات الكبرى، والتماثيل المختلفة، والكتابات والنقوش ولوحات الفسيفساء وغير ذلك). هذا وقد سمحت الحفريات التي أجريت مؤخرا باكتشاف معالم أخرى (كنيسة بيزنطية، وحمامات، وغيرها) لم يتمّ بعد نشر دراسات عنها. أمّا المسجد الجامع بالمدينة فهو ليس سوى معلم قديم تمّ إدخال تحوير طفيف عليه بإضافة مئذنة ومحراب.

وفي عهد دخول الإسلام إلى المغرب، تمّ فتح مدينة الكاف (حوالي سنة 69 هـ / 688 - 689 م) وعدد من المراكز الأخرى بالمنطقة على يد زهير بن قيس البلوي بعد انهزام كسيلة بماس (انظر

المالكي، الرياض، ج I، ص 30؛ ابن الشَّباط، صلة السمط، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم 3208، الورقة 82 - ظهر، والورقة 83 - وجه) ومنذ ذلك العهد، وعلى مدى العصر الوسيط كلَّه تراجعت أهمية مدينة الكاف ونزلت مرتبتها فتقدمت عليها الأربص التي أصبحت أهم قاعدة محصنة وأقواها بالجهة كلَّها. وإنَّا لنجد الحسن بن محمد الفاسي Jean Léon l'Africain لا يزال يتغنَّى في أواسط القرن السادس عشر بمحاسن الأربص، التي لم يبق منها اليوم سوى آثار خربة على نحو ثلاثين كيلومترا شرقي الكاف، في حين أغفل ذكر هذه المدينة تماما. ولم يتحدث عن الكاف أي واحد من الرحالة والجغرافيين العرب قبل البكري (المتوفى حوالي سنة 461 هـ / 1068 م)، على أن البكري نفسه لم يذكرها إلَّا عرضا في سياق الحديث عن أسطورة دارت أحداثها في العهد المسيحي القديم، وكان ضحيتها أحد الشماسين من البربر. أما ياقوت الحموي (سنة 574-626 هـ / 1178-1229 م) فإنه قد أقرَّ بجهله إذ قال، (معجم البلدان، ج III. Z.354) : « شقة بنارية : أماكن بافريقية » .

هذا وقد ظل الأمر كذلك حتى جاء ابن الشَّباط (سنة 618 - 681 هـ / 1221 - 1282م) فقدَّم لنا وصفا لمدينة الكاف في العصر الوسيط، كان الوصف الأوَّل والوحيد من نوعه. وممَّا تجدر الإشارة إليه أن هذا الكاتب قد قصر اهتمامه في هذا الحديث على أطلال المعالم القديمة بالمدينة، التي تشهد بما كان لها في الماضي من عظمة وعلو شأن .

وقد كائت الكاف، رغم كسوفها وخمول ذكرها، تعود من حين الى آخر لتساهم في أبرز أحداث العصر الوسيط. ففي سنة 171 هـ / 788 م مني فيها الخوارج الإباضيون بهزيمة ساحقة في ولاية داود بن يزيد المهلبي. وفي 21 من شهر جمادى الثانية سنة 296 هـ / 17 مارس 909 م كان سقوطها بدون قتال في قبضة الداعي الفاطمي ممهِّداً للانكسار النهائي للجوش الأغلبية التي تمَّ سحقها بالأربص. وفي أيام الدولة الصنهاجية كان لمدينة الكاف دور في ما قام بين الأمير باديس (386 - 406 هـ / 996 - 1016) وبين عمه حماد من صراع وفتن. وفي زمن زحفة بني هلال على البلاد (سنة 443 هـ / 1052 م) استولى على مدينة الكاف شخص يدعى عياد (أو عباد أو عماد) ابن نصر الكلاعي كان على رأس مجموعة من المغامرين، وجعل منها قاعدة لإمارة صغيرة

استطاعت أن تثبت طويلا في وجه مناوئها. وفي سنة 554 هـ / 1159 م، فتحها الموحدون وأطردوا منها أخلاف الكلاعي، وذلك في نطاق سعيهم الشامل لتحقيق وحدة المغرب. هذا ولم يرد ذكر الكاف في أيام الدولة الحفصية إلا بمناسبة الحديث عن معركة دارت بجوارها فيما يبدو خلال صيف سنة 724 هـ / 1324 م .

وينبغي أن ننتظر العهد التركي لنشهد مدينة الكاف تعود من جديد إلى صفحة الأحداث وطليعتها. فقد عهد إليها بمهمة الدفاع عن الإيالة التونسية من الغارات الجزائرية والوقوف في وجه قسنطينة. وهكذا شاركت مدينة الكاف، في كل الحروب والمعارك، سواء منها تلك التي تجابه فيها التونسيون والجزائريون (سنوات 1628 و 1685 و 1694 و 1705 و 1746 و 1756 و 1807) التي تصارع فيها الأمراء المتنازعون على الحكم بتونس، وقد تمّ بناء قصبة بالكاف سنة 1675، وجرى تعهدها بالزيادة في التحصين باستمرار وقام علي باشا سنة 1739 - 1740 بإقامة سور حول المدينة. وفي سنة 1806 عمّد الباي حمودة باشا (1782 - 1813) الى تجديد بناء القصبة وتحصين سور المدينة. وأثناء مدة حكم هذا الباي كانت مدينة الكاف - مع تونس والقيروان وباجة - رابعة أربع من المدن المحصنة الرئيسية بالمملكة، كانت كلّ واحدة منها تملك حامية عسكرية قارّة لا يقلّ عدد جنودها عن 500 رجل يقودهم آغا. على أن المدينة لم تلبث أن فقدت كل قيمة استراتيجية، وفعلا فبنزول الفرنسيين بقسنطينة سنة 1837 لم يبق لتحصينات الكاف جدوى ولا مبرر.

ومنذ ذلك التاريخ أخذت المدينة في التقهقر والتدهور وقد قال عنها غيران V.Guérin الذي زارها بين 8 و 10 جوان من سنة 1866 ما يلي : « منها حيّان في شبه خراب، وهما خاليان من السكّان إلا في القليل النادر، ممّا يجعل عدد سكان المدينة نصف ما قد يذهب المرء إلى تقديره لأوّل وهلة. وجملة عدد ساكنيها 4500 من المسلمين يضاف إليهم 600 من اليهود وبعض المالطيين، وكذلك الأعوان الحاليون لجهاز التلغراف الفرنسي» (الرحلة، ج II ص 53-54). وفي سنة 1864 امتدّت إلى مدينة الكاف ثورة علي بن غذاهم. ولم تسلم أيضا من ويل المجاعة وباء الكوليرا سنة 1867 وقد زاد في تقهقر المدينة مدّ السكة الحديدية بين تونس وسوق الاربعاء (جندوبة حاليا) فجردّت الكاف من دورها التقليدي كمحطة للتبادل

التجاري بين البلاد الجزائرية والبلاد التونسية. واستمرّ تناقص عدد سكّان المدينة، كما ذكر مونشيكور Monchicourt في كتابه **منطقة التلّ العالي**، ص 408 إذ قال إن « مساحتها البالغة 45 هكتارا في سنة 1881 والتي كانت تحتضن فيما مضى 8000 شخص، لم تعد تؤوي سوى 3500 نسمة » وقد تمكن الجنرال لوجرو Logerot إبّان انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التونسية من الاستيلاء على المدينة بدون قتال يوم 26 فيفري 1881. وبعد مرور ثلاث سنوات على ذلك أقيمت بها في شهر جوان 1884 أول مدرسة فرنسية خارج العاصمة. وفي 8 جويلية من نفس العام تمّت ترقية المدينة إلى مرتبة منطقة بلدية. وانطلاقا من سنة 1886 أصبحت الكاف مقراً لمراقب مدني فرنسي إلى جانب «العامل» أو «القايد» التونسي. وهذا الاحصاء البلدي لسنة 1911 يكشف لنا عن ملامحها الجديدة وعن التحسّن الذي بدأت تشهده. فقد كان عدد سكانها حينذاك 6312 وكانوا موزعين على النحو التالي : 4462 مسلما منهم 269 جزائريا، و 650 يهوديا، و 1200 أوروبيا منهم 800 إيطالي و 340 فرنسيّا. وخلال الحرب العالمية الثانية أصبحت الكاف مقراً لمقيم عامّ مساعد يدير شؤون المنطقة التي لم يقع احتلالها من قبل قوآت المحور.

هذا ولا تزال توجد عدّة مقامات للأولياء الصالحين بمدينة الكاف التي كانت تعدّ في الماضي معقلا من معاقل الطرق الصوفية. لكنّ التأثير السياسي والاجتماعي لهذه الطرق لم يبق اليوم منه شيء ممّا كان له في الماضي من قوّة وشأن .

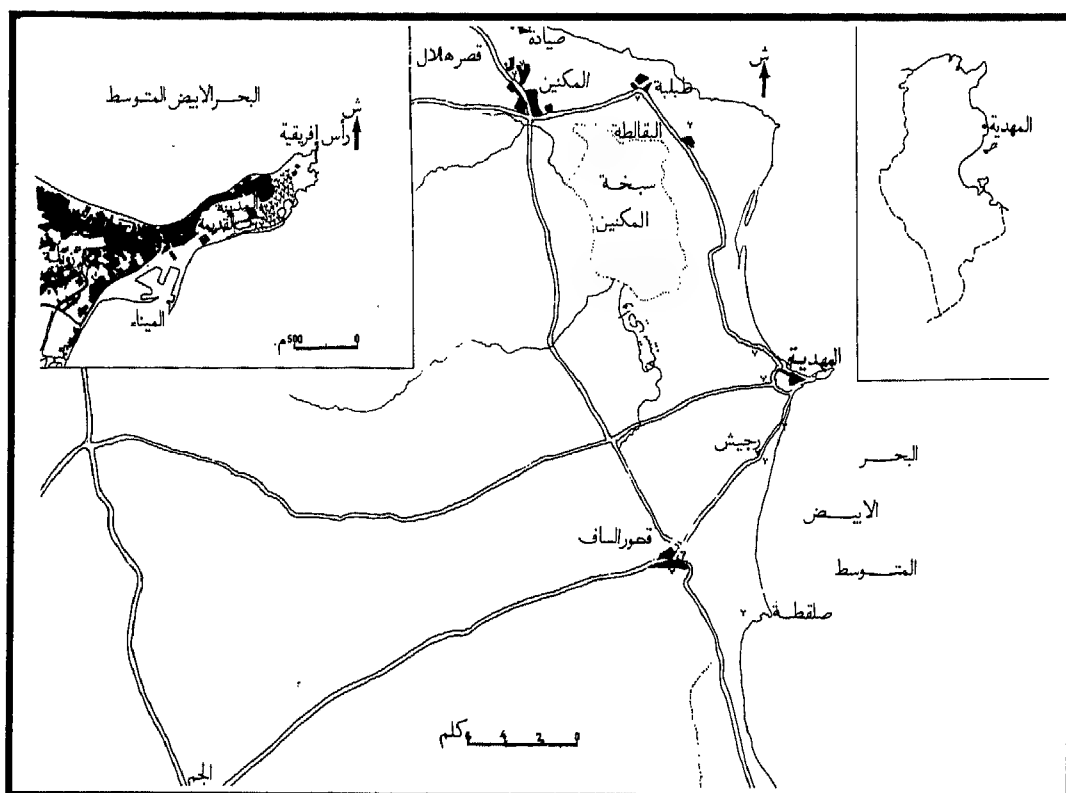
ثبت المراجع

- مصادر (مرتبة ترتيبيا زمنيا) : المقدسي، أحسن التقاسيم، تح. مع ترجمة جزئية لشارل بلاّ Ch. Pellat بعنوان وصف المغرب Description de l'Occident، الجزائر 1950، ص 18 / 19: المالكي، الرياض، تح. حسين مؤنس، القاهرة، 1951، ج I. ص 30 : البكري، المسالك، تح. وترجمة دي سلان De Slane باريس 1965، 33 / 74 ، ياقوت، معجم البلدان، مادة الكاف؛ ابن الشباط صلة السّمط، مخطوط رقم 3208 بالمكتبة الوطنية بتونس، الورقتان 82 (ظهر) و 83 (وجه)؛ صفى الدين البغدادي، مرآصد الاطلاع، تح. علي محمد البجاوي، القاهرة

1954، ج II، ص 805 كتاب الاستبصار، الاسكندرية 1958، ص 165: الرقيق
القيرواني (منسوب) تاريخ افريقية والمغرب، تح. م. الكعبي،
تونس 1968، ص 68، 169؛ ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت 1959،
ج V، ص 842 ج VI، 228، 349، 401، 494، جان ليون الافريقي Jean Léon
l'Africain (= الحسن بن محمد الفاسي)، وصف افريقيا،
ترجمة الى الفرنسية عن اللاتينية، أ - ايولار A. Epaulard باريس 1956، ج
I، ص 229، التعليق 270، ج II، ص 373؛ ابن أبي الدينار، المؤنس، تح. م.
شمام. تونس 1967، الفهارس؛ الوزير السراج، الحل، تح. م. ح.
الهيلة. تونس 1970. ج I، ص 2، 525 - 526، ج. ديون G. Dupont، قصة
رحلة من تونس الى الكاف سنة 1944، في مجلة افريقيا الفرنسية،
عدد 50 (اكتوبر 1888)، ص 341-344 و عدد 51 (اكتوبر 1888)، ص 352-360 ابن
أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان، ط. تونس 1963 ج II، ص 33، 48، 51، 53،
58-60، 83، 123، 129، 148-149، ج III 39، 41-42، 45-46، 85؛ ف، غيـران
V. Guérin رحلة أثرية في الايالة التونسية، باريس 1862، ج II
ص 53-54-57؛ ر. كانيا وصالادان R. Cagnat et Saladin، رحلة بالبلاد
التونسية، باريس 1894، ص 200-219،
- دراسات : ر. برانشفيك R. Brunschvig، الدولة الحفصية، ج I، ص 145،
302؛ ب. ل. كامبوزا P. L. Cambuzat، تطوّر مدن التلّ بإفريقية من القرن
السابع الى القرن - الحادي عشر (أطروحة مرحلة ثالثة) ج I، ص
173، 227، 247، 322 ج II، ص 337-343؛ ب. سنطاس P. Cintas، عناصر لدراسة
التاريخ البدائي للبلاد التونسية، ط. باريس 1961، ص 8، 25، 125؛ ش.
ديل Ch. Diehl، افريقيا البيزنطية، ط. باريس 1896، الفهارس؛
أ. اسبرانديو E. Espérandieu، النقوش الأثرية بنواحي الكاف،
ط. باريس 1984؛ نفس المؤلف، دراسة عن الكاف ط. باريس 1889؛ ج.
غانياج (J. Ganiage)، أصول الحماية الفرنسية بتونس (1861 - 1881).
ط. باريس 1959، الفهارس؛ س. غزال (S. Gell) التاريخ القديم لافريقيا
الشمالية، ط. باريس 1913-1928، ج II، ص 96، ج V، ص 31-192، 266، ج
VI، ص 156، 249، ج VII، ص 190، 197؛ ج VIII، ص 168، 197؛ هـ، ر، ادريس
(H.R. Idriss) الدولة الصنهاجية، ص 110، 232، 235، 399، 471؛ ش. أ. جوليان
(A. Julien) تاريخ شمال افريقيا باريس 1956، ج I، ص 116، 157، 170، 209؛
ع. مخلوف الهياكل الزراعية وتخصير الفلاحة في سهول الكاف :

الوحدات التعااضدية للانتاج، في مجلة كراسات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة الجغرافيا، العدد I، تونس 1968؛
أ، مارتال A.Martei التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية (1881-1911)، ط. باريس 1965، الفهارس؛ ب. مونسو P.Monceaux التاريخ الأدبي لأفريقيا المسيحية من البدء الى الفتح العربي، ط. باريس 1905، ج
ص 241 - 286، س. مونشيكور C.Monchicout منطقة التلّ العالي بالبلاد التونسية، ط. باريس 1913، ص 403 - 414 ب رومانيلي P.Romanelli، تاريخ المقاطعات الرومانية بأفريقيا، ط. رومة 1959، الفهارس؛ م. سبايت M. Speight شهادة المصادر الاسلامية على الوجود المسيحي بالمغرب العربي من سنة 26 / 747 الى سنة 184 / 800، في مجلة IBLA، تونس 1972، العدد 129، ص 83-86؛ محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص 678، 680؛ ع. التميمي بحوث ووثائق عن تاريخ المغرب العربي، ط. تونس 1971، ص 21، 24، 93، 212؛ ر. فوفراي R.Vaufrey، عهد ما قبل التاريخ بأفريقيا، ط. باريس وتونس 1965-1969، فهارس المجلدات I و II

(*) تعداد سنة 1984 لسكان الكاف : 34.509 نسمة (المرجع «هذه تونس». نشر كتابة الدولة للإعلام - سنة 1990- التحرير).



المهديّة

المهديّة، مدينة بالبلاد التونسية استمدّت اسمها من مؤسسها عبيد الله المهدي (سنة 297 - 322 هـ / 909 - 934 م). وتقع هذه المدينة على ساحل البحر، على مسافة 200 كيلومتر جنوبي مدينة تونس. وهي مركز لولاية بلغ عدد سكانها 218,000 نسمة في إحصاء سنة 1975، وأصبح يقدر بـ 247,000 ساكن سنة 1980. وقد تطوّر عدد سكّان المدينة - الذي كان يقدر بحوالي 12000 سنة 1905 - إلى 14,937 (في إحصاء سنة 1946)، ثم إلى 18,494 (سنة 1956)، وإلى 21,788 (سنة 1966). (*)

تأسّسها : تمّت إقامة مدينة المهديّة من قبل الفاطميين بداعي الاستجابة إلى حاجة ملحّة حصل الشعور بها منذ أواخر أيّام الدّولة السابقة، وهي دولة الأغالبة. فقد كان الأمراء على آخر عهد هذه الدولة غادروا القيروان

فعلا وانتقلوا الى مدينة تونس. وكان عبيد الله المهدي، إمام الشيعة الإسماعيلية، أثناء ارتياده ساحل البلاد انطلاقا من مدينة تونس - التي لم تصادف هوى في نفسه - ووصولا الى الموقع الذي اختاره لإقامة عاصمته الجديدة، يخضع لنفس الدوافع ، بالإضافة الى اهتمامه بأمور أخرى لها علاقة بضمان الأمن. وقد نسب إليه في زمن لاحق التنبؤ بحدوث ثورة أبي يزيد النكاري وزحفته العارمة الهوجاء التي لم تحطمها إلا أسوار المهديّة وحصونها. وقد حمل ذلك أنصار الإمام على اعتبار هذه النبوءة المعجزة سببا في تأسيس المدينة. إلا أن الدوافع والشواغل الحقيقية التي كانت تسيطر على فكر الإمام كانت أقرب من كلّ ذلك وأؤكد. فبصرف النظر عن الاعتبارات المتعلقة بانتشار الصيت وعلو الشأن بين الملوك وعن حرص مؤسسي الدول والممالك عبر مختلف مراحل التاريخ الإسلامي على تجسيم قيام كلّ نظام سياسي جديد ببعث عاصمة جديدة للحكم، كانت غاية المهدي العاجلة تتمثل في إقامة سدود منيعة تتميز بما ينبغي من بُعد الشقة ومن حصانة الموقع، لتكون حاجزا دون عاصفة محتملة تقوم بها جموع أهل السنة الذين يقفون ضد الشيعة بكل ما أوتوا من ثبات وإصرار. وهذه الزوبعة لا يمكن أن تنطلق أعاصيرها وموجاتها إلا من محور مركزي هو القيروان. أما خطر الخوارج فقد كان أبعد من أن يتم توقّعه آنذاك .

وكان الموقع الذي تمّ اختياره يتميز بضمانات أمنية مثالية بالنسبة إلى دولة تملك أسطولا بحريا قويا ورثته عن دولة الأغالبة. فتمّت إقامة المدينة فوق نتوء صخري داخل في البحر بنحو 1400 متر « لا يمكن الجواز إليه إلا عبر ممر ضيق كشسع نعل » ، (انظر المقدسي، أحسن التقاسيم، تد. شارل بلا Ch.Pellat مع ترجمة جزئية، الجزائر، 1950، ص 17)، ممّا يجعل منالها عن طريق البر أمرا مستحيلا. وإنّ في ذلك ما يفسر اختيار عبيد الله المهدي الذي فشل في تحقيق مطامحه في الدخول الى مصر فلم يسعه غير الاقتصار على تأمين قواعده بإفريقية إلى أجل غير مسمى .

وتوجد علامات عديدة من النقوش والكتابات ومن الآثار تشير إلى أن مدنا قديمة بونية ورومانية قد سبقت الفاطميين في الارتكاز بتلك الجهة. وقد احتفظت النصوص العربية بذكرى « جُمة » التي يذهب الباحثون غالبا إلى أنها مدينة «قُمي» Gummi العتيقة. لكن ليس هناك ما يسمح بالاعتقاد أن شبه الجزيرة الداخلة في البحر « قد كانت محلا لتجمّع عمراني قبل القرن العاشر م. » (انظر أ.ليزين A.Lézin المهديّة،

باريس 1965، ص 17). قام عبيد الله المهدي إذن في سنة 300 هـ / 912-913م. (انظر ابن عذاري، البيان، تح. كولان وليفي بروفنصال Colin et Lévi-Provençal، لندن، 1948، ج I، ص 169) بارتياذ موقع بكر، وعند الفراغ من أشغال بناء المدينة قام بتدشين عاصمته الجديدة يوم 8 شوال من سنة 308 هـ. الموافق 20 فيفري سنة 921 م. (انظر ابن عذاري، البيان، ج I، ص 184، والقاضي النعمان، الافتتاح، تحقيق وداد القاضي، بيروت، 1970، ص 275، وتح. فرحات الدشراوي، تونس، 1975، ص 327-328). كانت مدينة المهديّة إذن مخبأ وملجأ. فتمّ تحصينها وإحاطتها بسور ذي كثافة غير معهودة (8 أمتار و 30 سنتيمترا) مسائر لساحل لا تزال آثاره ماثلة للعيان في جزء طويل منه بناحية الشمال. وكان يسدّ مدخل البرزخ المؤدي إلى المدينة من جهة البرّ سدّ طوله 175 مترا مسبوق على مسافة 40 مترا بسور تمهيدي متقدّم. وكان الجواز إلى المدينة يتم من خلال باب من الحديد تزيّنه صور أسود من النحاس الأصفر عبر رواق معقود السقف طوله 33 مترا وعرضه 5,10 أمتار. ولم يبق اليوم قائما سوى هذا الرواق المسمّى « السقيفة الكحلاء ».

وكانت المدينة تحتوي على قصر خاص بالإمام المهدي، وقصر آخر لابنه ووليّ عهده القائم، وعلى مبان إدارية ومخازن تحت الأرض لا تخار الحبوب، وعلى آبار وموآجل للمياه. وكان بها مسجد جامع، وقد نخره البحر فيما بعد وأبلاه، وشوّهته البناءات الطفيلية التي ألصقت به عبر السنين، فأصبح خرابا. وقد تمّ مؤخرا - خلال سنوات الستين - ترميم هذا الجامع وإعادة ترميمه تماما إلى حالته الأصلية الأولى بإشراف الباحث ليزين Lézine. هذا وقد تمّ أيضا تجهيز العاصمة الجديدة بترسانة للأسلحة، وأقيم بالناحية الجنوبية منها ميناء داخلي محصّن ومحمي. وهو ليس بالضرورة - كما ذهب إليه بعضهم - بناء قديما أعيد استعماله، لكنّه مستوحى بدون شك من مثال ميناء بوني محتفر ومحصّن، أو «قطوف» Cothon.

تاريخها - المهديّة مدينة ملكية وقلعة حصينة محصورة في نطاقها الضيق داخل أسوارها. فهي لم تكن يوما تعجّ بالسكان. أمّا جمهرة الأهالي فقد استقرّوا بأنشطتهم الاقتصادية في ربض زويلة. وعمد الخليفة القائم (322 - 334 هـ / 934 - 946 م) إلى إحاطة هذا الربض بخندق. وفي سنة 332 هـ / 943 م. قامت ثورة أبي يزيد الخارجي، الملقّب بصاحب الحمار. وبعد أن استولى هذا الثائر عنوة على مدينة القيروان، انتقل فحضر الحصار على المهديّة (من جمادى الثانية سنة 333 إلى صفر سنة 334 هـ / جانفي - أكتوبر 945 م.) وقد كانت أسوار المهديّة وتحصيناتها سببا

في نجاة الفاطميين من هلاك كان يبدو محققاً. إلا أن الخليفة إسماعيل المنصور (334 - 341 هـ / 946 - 953 م). قد تخلّى، بعد القضاء نهائياً على الثورة، عن مدينة المهديّة التي فقدت بذلك منزلتها كعاصمة، واستقرّ في أواخر صفر من سنة 337 هـ / سبتمبر 948 م، بقاعدته الجديدة « المنصوريّة » التي أقامها بجوار القيروان « في نفس المكان الذي انتصر فيه على صاحب الحمار » (انظر فرحات الدشراوي، الدولة الفاطمية بالمغرب، تونس، 1981، ص 217).

ولم تسترجع المهديّة دورها كعاصمة لآخر مرّة إلا بمناسبة زحفة بني هلال التي دفعت بالأمير المعز بن باديس إلى اللجوء إليها والتحصّن بها. ومنذ ذلك الحين أصبحت المدينة عاصمة مهدّدة بالأخطار المحدقة بها من كل صوب، بل وحتى من البحر أيضاً. ففي سنة 480 هـ / 1087 م. استولى على المهديّة وزويلة جماعة من رجال مدينتي « بيزا » و« جنوة »، وقاموا بنهب ما فيها وإحراقها. (راجع هـ.ر. إنريس، الدولة الصنهاجية بباريس، 1962، ج I، ص 288). وفي سنة 517 هـ / 1123 م. هاجم النورمانديون المدينة بدون طائل. وفي سنة 529 هـ / 1134 م تعرضت المدينة إلى هجمة بني حماد براً وبحرا. وأخيراً فرض النورمانديون الحاكمون في صقلية شروطاً قاسية على مدينة المهديّة بواسطة معاهدة سنة 536 هـ / 1140 م. فكان ذلك تمهيداً لاحتلالها من طرف روجار الثاني ملك صقلية (في 2 صفر 543 هـ / 22 جوان 1148 م). وقد كان في ذلك نهاية الدولة الصنهاجية .

وفي 12 رجب 554 هـ / 30 جويلية 1159 م. ضرب أسطول عبد المؤمن بن علي وجيوشه الحصار على المدينة بحرا وبراً، فلم يكن بوسع النورمانديين غير الاستسلام يوم 10 محرم 555 هـ / 21 جانفي 1160 م. وسمّى الموحدون والياً لهم على المدينة. وبعد ذلك بأربعة عقود من السنين تحالف محمد بن عبد الكريم الرّجّـراجي الكومي - وهو من قبيلة عبد المؤمن بن علي - مع بني غانية، فاستقلّ بأمر المدينة في أوائل خلافة الناصر 595-610 هـ / 1199-1213 م. وتلقّب بالمتوكّل على الله، لكنّ الخليفة الموحدّي استرجع المهديّة وكامل إفريقية سنة 602 هـ / 1205 م. وقام بترميم تحصيناتها .

وفي عهد الدولة الحفصية، وخلال سنتي 685 و686 هـ / 1286-1287 م. قام قائد البحر روجير دي لوريا Roger de Lauria الموفد من قبل مملكة أراغون بتدمير العديد من مدن الساحل بما في ذلك المهديّة ثمّ استقلّ بها من سنة 718 الى سنة 723 هـ / 1318 - 1323 م. أبو ضربة أحد أبناء ابن اللّحياني. وفي سنة 739 هـ / 1338 - 1339 م. تمّ استرجاع المهديّة من يد رجل استولى عليها يدعى ابن عبد الغفار. وتمّ سنة 761 هـ / 1360 م. ادخال ترميمات جديدة على

أسوارها وحصونها على يد ابن تفرّاجين وزير الدولة الحفصية. وفي سنة 1390 م وبين يوم 20 جويلية و يوم 20 سبتمبر تعرّضت المهدية إلى حملة صليبية بأتم معنى الكلمة قامت بها عساكر جنوة يساندهم فرسان فرنسا وانقلترا. وصمدت المدينة في وجه المغيرين لكنّها اضطرت أخيرا إلى دفع جزية حتى تتمكّن من رفع هذا الحصار.

وفي آخر أيام الدولة الحفصية تنازع الأتراك والإسبان مدينة المهدية بشدّة وعنف. وعمد الإسبان إلى محاصرتها سنة 1509، ثمّ ركّزوا بها حامية قارّة سنة 1539 بعد استيلاء كارلوس الخامس Charles Quint إمبراطور إسبانيا على مدينة تونس. لكن القائد درغوث استولى على المهدية في السنة الموالية. وقد تمّ بعد ذلك إجلأؤه مؤقتا عن المدينة. ثمّ عاد فاستقرّ بها من جديد إلى يوم 8 سبتمبر 1550، تاريخ تغلّب قائد البحر أندريا دوريا Andréa Doria على هذا الموقع المحصّن والاستيلاء عليه باسم كارلوس الخامس المذكور. وقد أمر هذا الأخير بتخريبها وتهديم تحصيناتها قبل مغادرتها والتخلي عنها نهائيا.

وفي سنة 1689 ابتليت المدينة وأهلها بوباء الطاعون. وفي سنة 1740 غادرها أهلها وهجروها بسبب ما أصابهم من قسوة علي باشا عليهم عقابا لهم على وفائهم لعمّه ومناصرتهم إيّاه. وفي سنة 1848 أصبح عدد السكّان المسيحيين بالمدينة من الأهمية بحيث استوجب تركيز كنيسة خورنية. وفي سنة 1856 تسبب وباء الكوليرا في هلاك عدد من الضحايا بالمدينة. وبالرغم من تحسّب أهل المدينة واحتياطهم خلال انتفاضة سنة 1864 التي قامت بسبب مضاعفة ضريبة المجبى بالبلاد، فإنّ «المهدية، باعتبارها مدينة مجردة من الأسوار، قد تمّ نهبها من قبل سكان القرى المجاورة» (انظر ج. غانياج J. Ganiage، أصول الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية (1861-1881)، باريس، 1959، ص 228، وتردّت في حالة من الافلاس المالي - كما كان الشأن بالنسبة إلى منطقة الساحل جميعها - بسبب التأثيرات المزدوجة لحملة الوزير زروق من جهة، ولتشدّد أصحاب الديون والمرابين وشططهم في المطالبات من جهة أخرى.

وإثر انتصاب الحماية بالبلاد التونسية، افتتحت أوّل مدرسة فرنسية بالمهدية في سنة 1884، وأصبحت المدينة مركز إداريا لعامل أو « قايّد » سنة 1885. ولم تلبث المهدية أن ساهمت بقسط وافر في الحركة الوطنية. ففي 6 مارس 1906 جرت بها مظاهرة للاحتجاج على غلوّ الأسعار آلت إلى أعمال عنف وشغب. وفي 21 مارس 1925 استجابت المهدية إلى تعليمات الاضراب العام الذي أعلنه حزب الدستور في كامل أرجاء البلاد احتجاجا على

اصلاحات اعتبرت غير موفية بالغرض. كما دارت بها من 18 إلى 20 أفريل 1933 مظاهرات أخرى دعا إليها نفس حزب الدستور قصد منع دفن التونسيين المتجنسين بالجنسية الفرنسية داخل المقابر الإسلامية .

وقد خضع تطوّر شكل المدينة وعمرانها بطبيعة الحال لما عاشته وشهدته من أطوار وتقلّبات عبر تاريخها. فقد آل الأمر بربض زويلة إلى الاندثار شيئاً فشيئاً تحت ضغط زحفة بني هلال، ثم عاد إلى الحياة والظهور حوالي سنة 597 هـ / 1200 م. وفي نفس الفترة بدأ الناس في ناحية الشمال الغربي يذكرون اسم قرية هيبون. ثم أخذت ملامح المدينة تتغيّر تماماً ابتداء من القرن السادس عشر بسبب تأثير العنصر التركي المتمثل في جند الحاميات العسكرية الجديدة بالمدينة. وقد انضاف إلى هذا العنصر، انطلاقاً من سنة 1609 عنصر الأندلسيين المهاجرين من إسبانيا. هذا وإن نسبة تساوي 60 بالمائة من العائلات البورجوازية من أهالي المهديّة اليوم تنحدر من «الكولوغليّة» [جمع كُول - أوغْلُو] . وهذه أعلى نسبة بالبلاد التونسية في هذا الباب ، ممّا يؤدي إلى تأثير واضح وملموس في الأسماء والعادات والتقاليد .

وأهمّ ثروات المهديّة هما زراعة الزيتون والصيد البحري. أما مزارع القطن التي حصلت الإشارة الى وجودها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، (انظر لوسيت فالنزي Lucette Valensi، الفلاحون التونسيون...، 1975، ص 219)، فإنها قد اندثرت اليوم تماماً. وقد شهدت الصناعات المتصلة بالزيتون والصيد البحري - وخاصة تصنيع سمك السردين - ازدهارا كبيرا ونتج عنها تركيز تجهيزات حديثة في مجال صناعة الزيوت وتكريرها وصناعة الصابون وصناعة التصبير وغير ذلك . أما اليوم فإن المدينة قد تجاوزت حدود برزخها الأصلي الضيق وتوسعت في اتجاه الطريقين الرئيسيتين نحو مدينة صفاقس وخصوصا نحو مدينة سوسة .

وقد اشتهر من بين أدبائها في أوائل عهد الدولة الحفصية شاعران، هما : أبو عمرو عثمان القيسي المعروف بابن عُريّة (المتوفى سنة 659 هـ / 1260 م) . وابن السَّمَّاط (المتوفى سنة 690 هـ / 1291 م) . كما اشتهر بها في ميدان التصوّف « القطب » الدهماني (المتوفى سنة 621 هـ / 1224 م). وهو من أصحاب الوليّ الصالح أبي مدين .

ثبت المراجع

يضاف إلى المؤلفات المذكورة في صلب هذا البحث ما يلي: حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ط. تونس، 1972، ج III، ص 355-387 ت. البشروش، التكوين الاجتماعي البربرسكي والسلطة بتونس في القرن السابع عشر، ط. تونس، 1977، ص 34، 54 ر. برانشفيك R.Brunschvig، الدولة الحفصية، ط. باريس، 1940، 1947، الفهارس؛ خ. شاطر، محلة زروق بالساحل (1864)، ط. تونس، 1978، ج. ديپوا J.Despois، تونس الشرقية، الساحل والسهوب السفلى، ط. باريس، 1955، الفهارس؛ أ.ف. غوتيي E.F.Gauthier، ماضي إفريقيا الشمالية، ط. باريس، 1952؛ ط. قيقية، درغوث رايس، ط. تونس، 1974، ص 8167؛ م. الجديد، نمو المدن بالساحل التونسي، بمجلة الجغرافيا، تونس، 1979، العدد 4 ص 41-59؛ ش.أ. جوليان Ch.A.Julien، تاريخ إفريقيا الشمالية، ط. باريس، 1956، الفهارس؛ علي المحجوبي، أصول الحركة الوطنية بتونس (1934-1904)، ط. تونس، 1982، ج. مارسى G.Marçais، الفن المعماري الإسلامي بالمغرب العربي، ط. باريس، 1955؛ أ. مارتال A.Martel، التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية (1881-1911)، ط. باريس، 1965، الفهارس؛ أ. المصمودي، الوظائف الحضرية لمدينة المهدية (أطروحة مرحلة الثالثة، جامعة باريس I)؛ س. م. زبيس، المهدية وصبرة المنصورية في مجلة Journal Asiatique، 1956، ص 79، 93؛ أما كتاب ط. الفقيه المهدية عبر التاريخ فهو غير ذي قيمة.

فالمصادر هي عملياً مصادر كامل تاريخ إفريقية في العصر الوسيط وتاريخ تونس في العصر الحدي. والمؤلفات المذكورة أنفاً تحيل القارئ على هذه المصادر. ويضاف إلى ذلك القاضي النعمان، كتاب المجالس والمسائرات، تحقيق ح. الفقيه وإ. شَبَّوح و م. اليعلاوي، تونس، 1978، الفهارس.

(*) 36.828 ساكن حسب تعداد سنة 1984.

قضايا

يُسَمِّعُ الْمَوْلَى الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَى
سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ
قَائِلًا أَخْلَامَ السُّوفِ لِلشَّيْخِ الْوَلِيِّ
الطَّالِعِ الْعَالِمِ الْعَلَّامَةِ سَيِّدِي بَيْلَا
بَرْعَمَزْ بَرْ لَيْلَا بِخَدَرِ حِمَّةِ اللَّهِ عَلَى
وَرَضِي عَنَّهُ

كِتَابُ أَفْصِيَةِ السُّوفِ بِخُصْرَةٍ
يَمَّا يَنْتَبِغِي لِلْوَالِي أَنْ يَفْعَلَهُ فِي
مُسُوفٍ وَرَعِيَّتِهِ مِنَ الْمَحْيَا وَالْمَيِّتَانِ
وَالْأَفْعَزَةِ وَالْأَمْنَاءِ وَالْأَرْكَالِ وَالْأَوَافِي وَبِهِ

الحسبة

الحسبة لفظ غير قرآني يجري استعماله للدلالة على الواجب المفروض على كل مسلم في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » من وجه أول، ولتسمية خطة الشخص المكلف فعلاً داخل المدينة بتطبيق هذا المبدأ في مجال السهر على التزام مكارم الأخلاق وعلى توخي النزاهة والأمانة في التعامل التجاري بالأسواق، من وجه ثان. وهذا الشخص الذي يقوم بأعباء خطة الحسبة يسمى المحتسب، وليس يوجد - فيما يبدو - أي نص يضبط لنا بصورة واضحة ومدققة السبب الداعي إلى اختيار هذا اللفظ، ولا الطريقة التي تم توليد المعنيين المذكورين واستخلاصهما من مفهوم « الحساب » أو « الحسب » - بمعنى الكفاية - الموجود ضمن الجذر اللغوي للكلمة .

- معطيات عامة

المصادر والأصول والوظائف : إنَّ الازدواجية التي يتضمَّنُها مفهوم الحِسْبَة هي السبب في تنوُّع المصادر التي تفيدنا بمعلومات عنها. فبِصَرَف النظر عن التلميحات العديدة إلى المحتسبين التي نعثَر عليها في كتب الأخبار والسِّير وطبقات أعلام الرجال وغيرها، فإنَّ كلَّ ما كتب من التَّأليف عن الأخلاق العامَّة وضدَّ البدع، مثل المدخل لابن حاج، وكل ما أُلِّف كذلك في باب البيع والشراء وفقه المعاملات التجارية يفيدنا بوجه من الوجوه في التعرُّف على الحسبة. وسوف نقتصر في هذا المبحث على الحديث عن المؤلَّفات التي اتخذت من الحسبة - في أيِّ واحد من معنَييها - موضوعاً التزمت به ووقفت عند حدوده. ويمكن تصنيف هذه المؤلَّفات - بصورة تقريبية جدًّا - في صنفين ليس بينهما حدود فاصلة حاسمة. فبعض هذه الكتب يدرس بوجه عامَّ محتوى فضيلة الحسبة، والواجبات المترتبة عنها بالنسبة إلى المحتسب، وما تكتسي خطته من صبغة دينية وفقهية. كما يوجد من بين هذه المؤلَّفات ما تكون الغاية منه أساساً إنارة المحتسب بخصوص التفاصيل والجزئيات الملموسة والفنية من جوانب عمل المراقبة الذي ينبغي أن يقوم به. وبما أن هذه الرقابة إنَّما تجري أساساً على الصناعات والحرف، فإنَّ مثل هذه الكتب تكون دليلاً حقيقياً لأصول الرقابة الإدارية على المهن. وأنَّنا سوف نسعى إلى تقديم قائمة مفصَّلة في مؤلَّفات هذا الصنف الأخير. أمَّا الصنف الأوَّل فسوف نكتفي بإيراد معطيات عامة حوله .

فالمؤلَّفات التي تتضمَّن نظرة عامَّة في الحسبة هي عديدة فعلاً، لكنَّ الغريب في أمرها هو أنَّنا لا نجد أيَّ كتاب منها قبل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، أي قبل فترة متأخرة بقرنين عن ظهور خطَّة الحسبة. وأهمُّ هذه المؤلَّفات كتابان هما : **الأحكام السلطانية** للماوردي، الباب العشرون، وهو كتاب فقه وتشريع بالخصوص، (إلاَّ أن هذا الكتاب يذكر أحياناً، على سبيل الاستشهاد أو على سبيل الإنكار والنقض، مؤلِّفاً سابقاً لأبي سعيد الإصطخري المحتسب الشافعي ببغداد في أوائل القرن الرابع هـ / التاسع م)، و**إحياء علوم الدين** للغزالي، المجلد II، ص 296 وما بعدها، وهو كتاب تبرز فيه الصبغة الأخلاقية بصورة أوضح. ومن بين المؤلِّفين الآخرين يجب أن نذكر ابن حزم، وهو من الأندلسيين

القدامي (في كتابه الفصل بين الملل والنحل، ج IV، ص 171 وما بعدها). ثم ابن تيمية الحنبلي الذي عاش في عصر متأخر في عهد المماليك، (في مؤلفه الرسالة في الحسبة، انظر هنري لاوست H.Laoust، دراسة ... عن ابن تيمية Essai sur ... Ibn Taymiyya، الفهارس)، والنويري (كتاب النهاية، ج VI وابن جماعة، والسبكي (كتاب معيد النعم)، والقلقشندي، والمقريزي، وغيرهم. أمّا في بلاد أسيا الوسطى فقد ظهر كتاب النصاب في الاحتساب للسّنامي (؟)، الذي يشير عنوانه إلى خطّة مؤلفه كمحتسب (القرن السابع هـ / الثالث عشر م ؟). ويبدو أنّ هذا الكتاب قد لاقى إقبالا عظيما ببلاد الأعاجم والترک بناء على وفرة نسخه المخطوطة (انظر ك. عواد في مجلة M.M.I.A. المجلد XVII (السنة 1942)، ص 433 وما بعدها. وأمّا ببلاد المغرب، فهناك المقدّمة لابن خلدون، ج III، ص 31.

أمّا مؤلفات الصنف الثاني فهي من قبيل مخالف لكل ما ذكرناه. ذلك أنّها تنصرف إلى الاهتمام بالجزئيات الفنيّة للرقابة الواجب القيام بها، لاسيّما على الحرف والمهن، بل وتبرز أيضا في شكل كتيّبات أو رسائل مؤلّفة للمحتسبين خاصّة. ولئن كانت هذه المؤلّفات موافقة بطبيعة الحال للشرعية الإسلامية فهي تكتسي مع ذلك صبغة إدارية بعيدة عن الطابع الفقهي. ويعتبر كتاب أحكام السّوق لفقيه إفريقيّة المالكي يحيى بن عمر (النصف الثاني من القرن الثالث / التاسع م) أقدم مؤلّف من هذا النوع. (نشر أهم قسم من هذا الكتاب اعتمادا على ما عثر عليه منه في مجموع متأخّر. وقام بهذا النشر محمود علي المكي في مجلة RIEEI المجلد IV، (سنة 1956). وترجمه إلى الإسبانية غارسيا غومز E. Garcia Gomez في مجلة الأندلس al-Andalus، المجلد XXII (السنة 1957). ويوجد منه مخطوطان أصليّان كاملان بالبلاد التونسية، أحدهما بمكتبة الزيتونة، رقم 3137، والثاني بإحدى المجموعات الخاصة). وبالإضافة إلى أنّ كلمة الحسبة لم ترد في هذا المؤلّف، فإنّ هذا الكتاب أقرب إلى باب من مجموع فتاوى فقهية حول موضوع السوق وما أشبهه، منه إلى رسالة في الأحكام الخاصّة بالمحتسب.. أمّا كتاب الزيدية Zaydi Manual الذي نشره سرجان Serjeant بمجلة RSO المجلد XXVIII (السنة 1953) (التاريخ التقريبي : حوالي سنة 300 هـ / 910 م) فهو أقرب إلى صنف التأليف الذي نحن بصدده، وقد ورد فيه هذه المرّة ذكر

لفظ الحسبة. وليس من قبيل الاتفاق والصدفة أن ظهر مثل هذا الكتاب داخل بيئة الشيعة الزيدية المتمسكين بالتثبّت والتدقيق في الشريعة، لكنّ حالة التأخر الاقتصادي والاجتماعي بمنطقة طبارستان التي تمّ تصوّره وتأليفه بها قد أثّرت بالنقص في محتواه .

أمّا المصنّفات الحقيقيّة في فنّ الحسبة بالمعنى الدقيق الذي نقصده فإنها سوف لن تظهر إلّا ابتداء من أواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. بالمغرب الإسلامي (ولا سيما بالاندلس)، وابتداء من القرن السادس هـ / الثاني عشر م. بالمشرق (بالشام و مصر)، ولم يعثر على شيء منها فيما سبق ذلك زمانا ولا فيما عدا ذلك مكانا. والمؤلّفات المعروفة المذكورة في هذا الباب هي التالية :

- 1 - بالمغرب الإسلامي: كتاب في أدب الحسبة. للسّقْطِي المالقي (حوالي سنة 500 هـ / 1100 م .، نشر أ . ليفي بروفنصال وج. س. كولان E. Lévi-Provençal et G.S. Colin في مجلة J.A سنة 1931 ، ورسالة في القضاء والحسبة لابن عبدون الإشبيلي (القرن السادس هـ / الثاني عشر م، نشر ليفي بروفنصال في مجلة J.A سنة 1934 وقد أعاد نشرها في كتابه ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة، سنة 1955 مع ترجمة فرنسية لنفس الباحث في كتابه إشبيلية الإسلامية في أوّل القرن الثاني عشر، سنة 1947 و ترجمة إسبانية بالتعاون مع غارسيا غومز، إشبيلية المسلمة ...، سنة 1948؛ ترجمة إيطالية لـ :ف. غابريال F.Gabrielli في نشریات Rend.Accad. Lincei المجموعة السادسة، المجلّد XI، (السنة 1935). - ثمّ يأتي بعد ذلك، في نفس الثلاث الرسائل الأندلسية ...، ابن عبد الرؤوف والجرسيفي ترجمة فرنسية لراشال أريي Rachel Arié في مجلة Hespérus - Tamuda المجلّد (السنة 1960)، ترجمة انجليزية للأوّل قام بها ج.م. ويكنس G.M. Wickens في مجلة I.Q - المجلّد III، (السنة 1965) راجع ما كتبه ج. د. لاثام J.D.Latham في مجلة الدراسات السامية J. Sem.St. المجلّد V، (السنة 1960)، ص 124 وما بعدها) - وينتسب بقدر مشترك إلى كلّ من فنّ التّأليف في الحسبة وفنّ الكتابة في القضايا أو الفتاوى الشرعية، الباب الخاص بالحسبة في كتاب تنبيه الحكّام في الأحكام لابن المناصف (سنة 563-620 هـ / 1168-1223 م) مكتبة الزيتونة، رقم 1917 و وكتاب التحفة، لمحمد العقباني التلمساني، مكتبة الزيتونة رقم 2978 ورقم 6234، ومكتبة الجزائر، رقم 1353

الذي قدّم حوله محمد الطالبي تحليلاً بمجلة ARABICA، المجلد I، (السنة 1954) بعنوان بعض معطيات عن الحياة الاجتماعية بالمغرب الإسلامي في القرن الخامس عشر.

2- بالمشرق: ألّفت عدة كتب مشرقيّة في الموضوع، وهي أكمل وأغزر مادّة من مؤلّفات المغرب الإسلامي. وقد كان المثال الأنموذجي الأوّل الذي نسجت سائر هذه الكتب على منواله هو كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمان بن نصر الشيزري (المتوفى سنة 589 هـ / 1193 م). وطبع مع ترجمة فرنسيّة (لبرنهـاور Bernhauer) منذ سنة 1860-1861. في مجلة J.A، منسوباً إلى النبروي بعنوان مؤسسات الشرطة عند العرب...، ثم نشر في طبعة عصرية طيّبة للعريني، القاهرة، 1946؛ ومن هذه الكتب مؤلّف يحمل نفس العنوان لكنّه أوسع وأشمل، كتبه ابن بسّام (الذي عاش في القرن السابع هـ / الثالث عشر م. بالشّام أو بمصر)، وقد قام بتحليله الأب شيخو في مجلة المشرق، المجلد X (السنة 1907)؛ ومنها أيضاً كتاب أغزر مادّة وأوسع تحليلاً من سابقه، وهو كتاب معالم القربة في أحكام الحسبة لابن الأخوة المصري (أوائل القرن الثامن هـ / الرابع عشر م)، طبعة مع ترجمة مختصرة بالّلغة الانجليزيّة لروبن ليفي Reuben Levy، نشرت في سلسلة Gibb Mem. Serie الجديدة المجلد XII (السنة 1938)؛ ثمّ هناك عدد من الكتب الأخرى معظمها فيما يبدو إعادات محرّرة للمنشورات السابقة، منسوبة، أحياناً، إلى غير أصحابها (مثل الماوردي) ويتعذّر تصنيفها بسبب بقاء مخطوطاتها بدون نشر ولا دراسة؛ راجع أيضاً فصول ودراسات م. غود فروا- ديمونين. M. Gaudet-Demombynes في مجلة J.A. المجلد CXXIII (السنة 1938)، و ك. عواد في مجلة M.M.I.A، المجلد XVIII (السنة 1943)، وراجع كذلك بالنسبة إلى كتاب الحسبة لابن عبد الهادي (المتوفى سنة 905 هـ / 1503 م) تعليق حبيب الزيّات في الخزانة الشرقية. المجلد II (السنة 1937)، ص 112. أمّا بخصوص الزيدية فانظر ر. شتروثمان R. Strothman، Das Staatsrecht der Zayditen، ط. سترازبورغ سنة 1912، ص 90 وما بعدها.

وتضاف إلى هذه المؤلّفات من ناحية أخرى بعض وثائق تسمية المحتسبين التي لم تلق بعد ما تستحقّه من العناية. فمنها وثيقة من القرن الرابع هـ/

العاشر م. موجوده ضمن ديوان الإنشاء للصاحب بن عباد، ص 39، ومنها وثائق أخر إيرانية تركية من القرن الرابع هـ / العاشر م. ضمن رسائل رشيد الدين الوطواط، ص 80، وفي عتبة الكتّبة (الفارسي) لمنتجب الدين بديع أتابك الجويني، طهران 1329 . p ، ص 82 ، ووثائق أخيرة من الشام ومصر ترجع إلى عهد الأيوبيين والمماليك موجودة في مراسلات ضياء الدين بن الأثير (راجع مجلة BSOAS، المجلد XIV / 1 ص 38) وفي كتاب صبح الأعشى للقلقشندي، ج X، ص 460 (من إنشاء القاضي الفاضل)، وج XII، ص 339، ومقتطفات أخرى في مواضع مختلفة من الكتاب. ويمكن العثور بدون شك على العديد من الوثائق الأخرى الماثلة.

هذه إذن هي المصادر التي يمكننا الاعتماد عليها في دراسة الحسبة، والحسبة في مفهومها الواسع هي حينئذ الواجب المكتوب مبدئياً على كل مسلم في الإعانة على الخير ومقاومة الشر، ويستطيع المسلم أن يقوم بذلك بواسطة الإرشاد والتقريع في الحالات العادية، وبتحكيم سلطة القضاء في حالات أخص. أمّا في أقصى الحالات، وعند فقدان السلطة العامة، فإنّه يستطيع اللجوء إلى استعمال الجبر - إن أمكنه ذلك - بل والخروج تماماً عن طاعة الحكّام والثورة عليهم - حسب رأي ابن حزم - إذا ما تبين عدم صلاحهم.

وفي الحقيقة فإنّ هذا الفرض هو واجب نظري خاضع لاستطاعة صاحبه أن يقوم به على أفضل وجه، وإنّه من المحجّر الحلول محلّ السلطة العامة ما دامت قائمة. هذا وإنّ مفهوم الحسبة، لئن كان بوسعه أن يساهم ببعض الدور في استعراض أصناف السلوك داخل المجتمع، فإنّه لا يكتسي عملياً سوى فعالية محدودة القيمة والتأثير. فلا بدّ حينئذ، من السعي إلى تفهّم الظروف التي نشأت وتطوّرت فيها - مع ذلك - هذه النظرية.

إن ظروف النشأة الأولى لخطة الحسبة في المجال العملي - وهي سابقة فيما يبدو ظهور النظرية - محاطة أيضاً بالغموض. فنحن لا نجد في أوّل الأمر حديثاً عن الحسبة أو المحتسب، بل نرى بخصوص الخطة التي سوف يشغلها المحتسب حديثاً عن صاحب (أو عامل) السوق. فهناك حينئذ مسألتان: مسألة أصل ظهور صاحب السوق، ومسألة تحوّل إلى محتسب. والرأي السائد عند الباحثين هو أنّ صاحب السوق قد حلّ

محلّ حاكم السوق Agoranomos الذي كان موجودا بالمدن اليونانية : ذلك أنّ وظائف الأوّل والثاني متطابقة بوجه عامّ. وقد تكون التسمية العربية ترجمة للعبارة اليونانية. وقد زال ذكر حاكم السوق Agoranomos في الكتابات والنقوش اليونانية قبل الفتح العربي بثلاثة قرون (انظر بولى - ويسوا - وواست، وجونسن، مصر البيزنطية 1955، الفهارس، Pauly-Wissowa West et Johnson, Byzantine Egypt لكثنا نجد هذا الاسم في التلمود، وقد تكون اللّهجات الشعبية احتفظت به في التخاطب. وقد حافظت المدن القديمة بدون شكّ على مؤسّساتها ونظمها بعد الفتح العربي. أمّا البصرة والكوفة وغيرهما - وقد كانت بها أسواق مثل مكّة والمدينة - فإنّ صاحب السوق قد يكون ظهر بها دونما حاجة إلى تأثير خارجي.

ومهما يكن من هذا الأمر فإنّ المحتسب قد حلّ محلّ صاحب السوق في أيام الخليفة المأمون على وجه التقريب . وقد كان اسم المحتسب إلى ذلك العهد لا يطلق إلّا على رجل خاصّ شغل نفسه بفضيلة الحسبة. وهذا التحوّل في التسمية يندرج بصورة واضحة ضمن مساعي العباسيين إلى إضفاء صبغة إسلامية على المؤسّسات، ولا سيّما أثناء فترة غلبة المعتزلة على الدولة، ولكثّه من العسير علينا أن ندرك المدى الحقيقي لهذا التحوّل في خطة المحتسب روحا ومضمونا. وبحكم حصول هذا التحوّل بالشرق بعد حدوث القطيعة العملية بينه وبين المغرب الإسلامي، فإنّ اسم صاحب السوق قد ظلّ غالبا في الاستعمال ببلاد المغرب والأندلس حيث بقي تبني مفهوم الحسبة بالمعنى الاصطلاحي مقصورا بالخصوص على رجال الفقه والقضاء (وشهادة ابن بشكوال بهذا الشأن واضحة كلّ الوضوح، كما أنّ الأمثلة والشواهد عديدة في هذا الباب، لاسيّما في البيان لابن عذاري). وعندما أصبح بالإمكان الشروع في إعطاء محتوى حقيقي لهذه الخطّة ، فإنّنا لم نعد نرى فرقا كبيرا بخصوصها بين شطري العالم الإسلامي.

فالذي يميّز المحتسب التقليدي حينئذ هو اندراج خطّته في مراقبة السوق ضمن عمل أوسع حدودا يتّصل أساسا بالجانب الدّيني وهو السعي إلى الحفاظ على سلامة السلوك الاجتماعي . هذا وإنّ الحدود الفاصلة بين الشؤون التي هي من مشمولاته وبين ما يعود بالنظر إلى القاضي أو إلى صاحب الشرطة ليست دائما في منتهى الوضوح. وبالنسبة إلى عدة أصناف من هذه الأمور فإنّ الفرق في الاختصاص لا يرجع إلى نوع هذه

الموضوعات بقدر ما يكمن في طريقة مباشرتها ومعالجتها : فالقاضي ينظر ويحكم في الشؤون التي قامت بخصوصها دعوى وتمّ فيها إجراء بحث لمعرفة حقيقتها ، والشرطة تتدخل في حالة حدوث جريمة أو جريمة تقتضي تحرك القوة العامة. أمّا المحتسب فهو لا يشتغل إلاّ بأمور صريحة ومخالفات واضحة للعيان لا مجال فيها للشك أو النزاع. وهو لا يقوم بأبحاث وإنما يتدخل في القضية من تلقاء نفسه ودون انتظار قيام أحد بدعوى. أمّا المسائل الداخلة في مشمولات نظره فقد تمّ ضبطها على وجه العموم دون كبير عناء بالاعتماد على تقاليد جرى العمل بها منذ زمن بعيد، ولم يطرأ عليها تغيير يذكر حتى العصور الحديثة. ولا تتصف أية واحدة من هذه المسائل بأنها شكلية بوجه محض، لكنّ الأسلوب الذي يؤدي به المحتسب بعض واجباته - بصرف النظر عن السوق ذاتها - يرتبط كثيرا بالبيئة الاجتماعية السائدة ويتأثر جداً بمزاجه الخاص. فبالإضافة إلى شؤون السوق يمكن تصنيف مشمولات المحتسب في ثلاثة أقسام : فهو مطالب أولاً بالسهر على أداء الفرائض الدينية (كإقامة الصلوات ورعاية المساجد). وثانياً بمراعاة التقوى ومكارم الأخلاق في السلوك المتبادل بين الرجال والنساء بالشوارع (والحمامات)، وهو مطالب أخيراً بالحرص على تطبيق إجراءات الميز بالنسبة إلى أهل الذمة . وقد ذكرت حالات أقدم فيها بعض المتّصفين بالجرأة من المحتسبين على لوم بعض القضاة المنحرفين عن الصواب في أحكامهم ، وعلى التشهير ببعض الفقهاء المخالفين لإجماع المسلمين واستنكار تعاليمهم. أمّا في نظر الجمهور من الناس فمن الثابت أنّ مهمّة المحتسب الأساسية والدائمة إنّما تتمثل في مراقبة السوق. فعليه قبل كل شيء - كما كان يتمّ التنصيص على ذلك أحيانا بشكل صريح في وثيقة التسمية - أن يقوم بالتأكّد من صحّة الموازين وسلامة المكايل التي كانت تسمح بسهولة بالتطفيف والغشّ لكثرة ما فيها من التنوّع والتشعّب. وبوجه أعمّ فقد كان يجب عليه أن يترصد ويقاوم كلّ أنواع الفساد والغشّ التي قد تحدث إبّان صناعة المواد أو عند بيعها، (وهي العيوب التي كتب بشأنها العديد من المؤلفات المختصة، وأشهرها كشف الأسرار للجوهري (في القرن السابع هـ / الثالث عشر م.) فضلا عن عناية الفقه بها). وإنّنا لنجد في الكتب المختصة بفنّ الحسبة قوائم مفصّلة في أهمّ أنواع الصناعات والمهن تمدّ المحتسب، فيما يتعلّق بكلّ واحدة منها، بالإشارات والبيانات الفنيّة التي

تمكّنه من التثبّت من جودة الصناعة والكشف عن وجوه الغش فيها. وهذه وثائق فائقة الأهمية بالنسبة إلينا من حيث التعرف على جوانب الحياة الاقتصادية في تلك العهود. بل ويستطيع المحتسب أن يقوم كذلك بالتأكّد من سلامة عيار معدن النقود إذا لم يكن يوجد جهّز مختصّ بهذه المهمة، كما يجب عليه أن يتحقّق من سلوك الباعة والوسطاء لا يتضمّن تسترّاً عن عيب ولا تكتّمًا عن نقص ولا مغالطات غايتها التغرير بالحريف وغشّ المشتري في البضاعة أو الثمن. ويتأكّد المحتسب أيضاً - من الوجهة الفقهية - من عدم تعاطي الباعة أية عملية يدخل فيها الرّبا المحرّم المشهّر به، بل ويمتدّ مجال نظره فيشمل مهنا لا نعتبرها عادة من مشمولات السّوق، فإذا به يراقب الصيدلانين والأطباء ويقتحم الكتابات ودور تعليم الصبيان لينذر المعلمين أو يعاقبهم بسبب إفراطهم في الشدّة على الصّغار، على أنّ المحتسب لا يتجاوز في عمله حدود المدينة ، وبالتالي فإن التجار الذين يتعاطون المعاملات مع الخارج يخرجون عن نطاق رقابته .

ومن جوانب هذا النشاط الاقتصادي الأخلاقي التي يجدر إبرازها والتأكّد عليها لما لها من العلاقة بالتقاليد الاقتصادية الإسلامية أن المحتسب يقوم بمراقبة الأسعار لكنّه ليس بيده عادة أن يقوم بتحديدّها أو ضبطها. فهو يؤنّب ويعاقب أحياناً البائع الذي تكون أسعاره غير مماشية للقيمة الجارية المتداولة في السوق ، وهو يقسو على المحتكرين للخيرات والأقوات لاسيّما في زمن القحط والمجاعة، لكنّ الشريعة ترى أنّ تحديد الثمن أو تقديره هو من خصائص الإرادة الإلهية. ومع ذلك فقد قويت في أواخر العصور الوسيطة النزعة إلى التسعير الرسمي المفروض .

وفي سياق الحديث عن هذه المهام ، توجد وظيفة أخرى دفعت الباحثين المعاصرين إلى الإلحاح في كتاباتهم على ما كان موجوداً أثناء العصور القديمة من تقاليد النظر في شؤون المدينة والسهر على تموين أهلها وصيانة سككها ومبانيها العامة وغير ذلك ممّا ورثه المحتسب عن القدامى. فهو مطالب بالاحتياط لئلاّ يكون في بناء المساكن وتعهّدها بالصيانة ولافي إقامة الدكاكين وتجهيزها أي عنصر يكون من شأنه أن يضرّ بأمن مجموعة السكّان وسلامتهم أو أن يمسّ بقواعد استعمال مسالك المدينة وطرقاتها، وعليه أيضاً أن يتّخذ ما يلزم من التدابير والإجراءات لضمان تنظيف الشوارع ولترميم الأسوار عند الاقتضاء

وتأمين التزويد بالمياه والسهر على انتظام توزيعها وغير ذلك ... كل هذه الواجبات والفروض حملت بعض الناس أحيانا على اعتبار المحتسب بمثابة موظف بلدي - وهو إذن الوحيد من هذا النوع في الإسلام : فهو (مثل القاضي تماما) لا يتّصف بهذه الصفة بحكم نوع الوظيفة الموكولة إليه، إذ هو لا يستمد نفوذه من أي تنظيم مدني أو مهني، لكنّ محتوى نشاطه يتمثل فعلا على وجه التخصيص والحرص في القيام بشؤون مدنيّة بلدية .

والمحتسب تعينه الدولة مباشرة في بعض الأحيان، أو في أغلب الحالات بواسطة الولاية والقضاة الذين تكل إليهم الدولة رسميا وظيفة الحسبة، لا لكي يقوموا بها مبدئيا بأنفسهم، بل لكي يضمنوا نفاذها على الجميع وانتظام العمل بها بين الناس. وينبغي أن يكون المحتسب معروفا لدى جمهور الناس باستقامته الأخلاقية وتضلّعه في معرفة الشريعة الإسلامية. فيتّم انتقاؤه إذن في غالب الأحيان من بين الفقهاء. لكنّ ما يطالب به المحتسب أيضا من تجربة وخبرة في مجال الحياة المهنية والحرفية - وإن كان هذا الجانب أقلّ اعتبارا من سواه - يجعل المكلفين بتعيينه يختارونه، ما أمكنهم ذلك، من بين سلك الباعة وأهل الأسواق. هذا وفي سياق تصنيف الخطط إلى سياسية ودينية، فإنّ الحسبة تعتبر خطة دينية كما هو الشأن بالنسبة إلى خطة القضاء. وتعتز انتداب المحتسبين وأداءهم وظيفتهم عقبتان تتعلق إحداهما بكفاءة المحتسب، والثانية بوسائل العمل التي يملكها. ويمكنه أن يتدارك النقص في خبرته المهنية بتعيين أمين أو عريف على كلّ صناعة أو مهنة. ومن ناحية أخرى فإنّه يتصرف في عدة أعوان وأتباع يساعدونه على أن يكون عينا ساهرة في أسرع وقت على كلّ مكان، وعلى أن يتمّ اقتياد أصحاب الجرائد والجُنح إليه بسهولة، إلى غير ذلك ،،، ومع هذا فمن النادر أن تكون هذه الوسائل وافية بالغرض، ومن اللازم أن يتمّ التعاون بين كلّ من المحتسب والقاضي والشرطة. ومن أجل نفس السبب تمّ في كثير من الأحيان الجمع لشخص واحد إمّا بين خطتي القاضي والمحتسب أو بين وظيفتي الحسبة والشرطة. ورغم ما كان يتميّز به عمل المحتسب من الشمول وما كانت تكتسيه خطّته من صبغة دينيّة فقد اعتبر بوجه عام بمثابة عون تابع للقاضي من ذوي الاختصاص. وقد كان أصحاب هذه الخطّة ينتدبون من ضمن رجال من مرتبة أدنى من منزلة القضاة لأنّ مركز المحتسب كان يعدّ أقلّ قيمة من مركز القاضي، (وقد كان الأوّل يمهد لبلوغ الثاني أحيانا) .

وفي معظم الدول الإسلامية يعهد إلى محتسب عاصمة البلاد بمهمة مراقبة محتسبي المدن الصغرى. وفي أوائل القرن السابع هـ / الثالث عشر م. سعى الخليفة الناصر، في نطاق سياسته العامة لتوحيد العالم الإسلامي تحت قيادته نظرياً ودينياً، إلى إقامة نظام رقابة عامة على الحسبة على الأقل في منطقة المشرق، لكن هذا النظام لم يكتب له التحقق الفعلي (انظر مجلة أوريانس Oriens المجلد VI، (السنة 1953 ص 21) .

أما العقوبات التي يستطيع المحتسب أن ينزلها بالمخالفين دون الاستعانة بمراجع النظر الأخرى فهي في العادة التوبيخ والجلد والتطويف بالمدينة. ويمكن أن يتم حجز المقاييس والمكايل الفاسدة وكذلك البضائع والمواد المغشوشة. وفي بعض الحالات القصوى فإنه يمكن حرمان الأشخاص المدمنين على المخالفات من تعاطي مهنتهم أو الحكم عليهم بالنفي والتغريب.

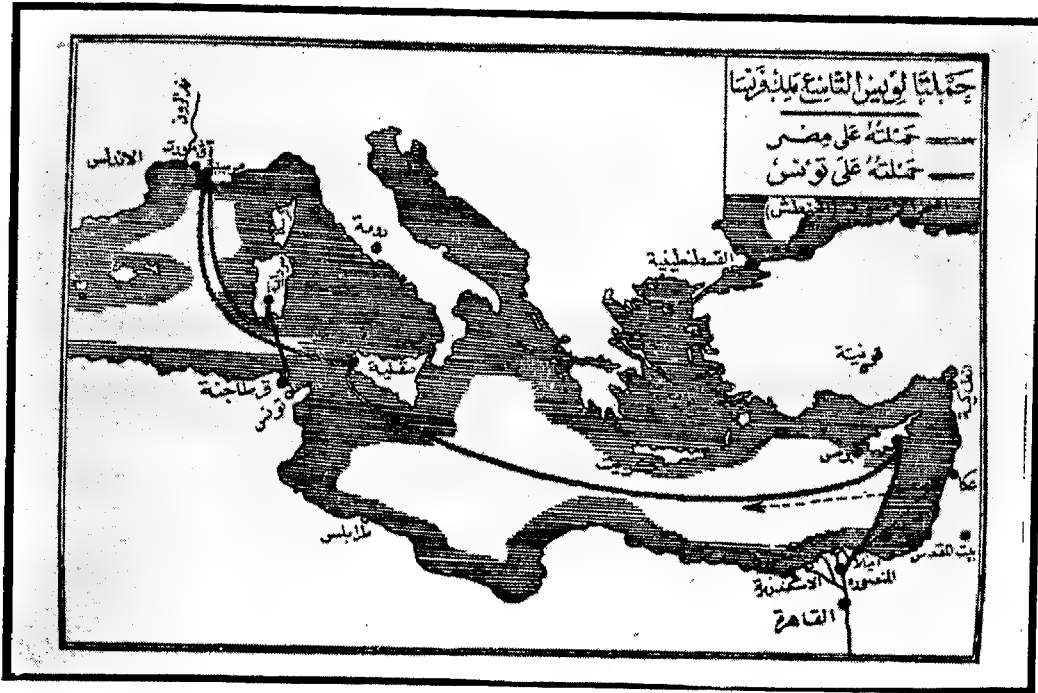
وفي أواخر العصر الوسيط ، ومع حلول التدهور الاقتصادي والأزمات الاجتماعية، داخل وظيفة المحتسب، كثير من التبدل والفساد. ففي عهد المماليك كانت هذه الخطّة - كغيرها من الوظائف - تشتري بالمال من أصحاب النفوذ ، على أن يقوم المشتري بعد ذلك بتعويض خسارته على حساب الباعة بالأسواق بأن يفرض عليهم دفع ضرائب ورسوم غير شرعية . وقد كثرت وشاعت الخصومات بين المترشحين لهذه الخطّة، مثل المشادة الشهيرة بين المقرئزي والعيني . وقد يحدث أن تسند هذه الخطّة - خلافاً لكل ما جرت به العادة والتقاليد- إلى أحد العسكريين ، وذلك إما بدافع الرشوة أو حرصاً على مزيد من الفعالية والنجاعة .

هذا وقد حافظ المحتسب على بقائه ، وظل قائم الذات في أكثر أجزاء العالم الإسلامي حتى مجيء عهد الإصلاحات المعاصرة. فكان موجوداً مثلاً في فجر القرن العشرين بكل من المغرب الأقصى ومدينة بخارى. ومنذ عهد الدولة السلجوقية، أصبحت هذه الخطّة في بلاد الإيرانيين والترك - وحتى في غيرها أحياناً - تسمى الاحتساب في حين خصص اسم الحسبة لمختلف مظاهر الفضيلة التي ينبغي أن يتميز بها القائم بهذه الخطّة - أمّا المشرق اللاتيني المتولد عن الحروب الصليبية فقد تبنى لفظة « المتهسلا » mathesepمع التضييق في معناها الأصلي وكسوها صبغة لائكية .

ثبت المراجع

المصادر والدراسات الحديثة المتعلقة بها تم ذكرها في صلب هذا البحث. أمّا فيما يتعلّق بالموضوع في جملته فإننا لا نزال بحاجة إلى الدراسة الشاملة والعميقة التي ينبغي أن تكون وافية بهذا الغرض. وأهم ما لدينا الآن هي دراسة ذات صبغة قانونية غالبية كتبها أ - تيان E.Tyan في الباب الأخير من كتابه تاريخ النظام القضائي في الإسلام، ج II، 1943، مع العروض التحليلية التي خصّها بها كلّ من غودفروا - ديمونين M. Gaude-froy - Demombynes في مجلة العلماء، 1947، وج. سوفاجي J.Sauvaget في مجلة J.A. J. Schacht، ج. CCXXXVI سنة 1948، ص 309-311 وج. شاخ J. Schacht في مجلة Orientalia، ج XVII (سنة 1948)، ص 518. انظر أيضا مقدمات أ. ليفي بروفنصال E.Lévi-Provençal ومحمود علي مكّي للطبعات التي أصدرها، والتوضيح الذي أصدره شاخ أخيراً ضمن مقدمته للتشريع الإسلامي، 1966، الفهارس، والمراجع ص 231 - 232. فصل جيّد كتبه أ. درّاج في كتابه مصر في عهد بيبس، 1961، تعليق 76-86. أمّا كتاب ن. زيادة، الحسبة والمحتسب في الإسلام فقيّمته تكمن بالخصوص في مجموعة النصوص التي تضمّنها. وفي ما كتبه عماد الدين بمجلة IC، 1963 بعنوان الحسبة بالأندلس نجد تراجم لعدد من المحتسبين الأنديسيين. انظر أيضاً فصل محتسب بدائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى - ر. ليفي R.Lévy، هذا وإن كلّ العروض المخصّصة للحديث عن المدينة الإسلامية تعطي المحتسب نصيبه من الاهتمام. ولئن تعذّر علينا ذكرها جميعاً فمن الجدير في نظرنا أن نشير إلى : ج. مارسى G. Marçais نظرات حول المدينة الإسلامية والمحتسب ضمن مجموعات جمعية جان بودان J. Bodin ج VI (السنة 1954) والرسالة الجيدة التي خصّ بهار. لوتورنو P. Le Tourneau مدينة فاس. وعن بخارى، ب. إ. بتروف P.I. Petrov المحتسب البخاري في مجلة Problemi Vostokovedeniya 1951 / I ص 139-142. وعن المشرق اللاتيني كلود كاهن C. Cahen، الإقطاعية والمؤسسات السياسية بالشرق اللاتيني في مجلة Accad. Naz.d.Lincei، ج XII، ندوة فولتا، 1956، ص 22-23.

كلود كاهن ومحمد الطالبي



القديس لويس في تونس

إنّه لا يزال هنا بأرض تونس، على وجه من الوجوه. فالسياح، وهم حجاج هذه العصور الحديثة، يعرفون جيّد المعرفة، على اختلاف مللهم ولغاتهم، سيدي أبا سعيد، ذلك الرجل « الصالح المنعم السعيد » الذي أطلق اسمه على كامل المصطاف الشهير بضواحي مدينة تونس. لكنّهم لا يعلمون نفس العلم أنه يوجد على بعد ميلين من هناك، بأعلى هضبة بيرصا قلعة قرطاج العتيقة ووسط آثار البونيين، بعض بقايا من رفات رجل « صالح » آخر يدعى لويس التاسع، تنام في مُذخَر من الشّبه المذهب علّق فوق هيكل الكتدرائية، تلك التي أقيم بناؤها تكريسا لهذا الرجل وزلفى، فوق قطعة من الأرض تمّ التنازل عنها لفائدة البلاد الفرنسية بمقتضى اتفاق أبرم بين حسين باي وشارل العاشر

فصل من مؤلّف جماعي بعنوان « الحروب الصليبيّة » صدر عن دار لوسوي، باريس، 1988، ص ص. 72 - 79.

بتاريخ 8 أوت 1830. فقد مات القديس لويس فعلا بقرطاج يوم 25 أوت من سنة 1270 م .

فماذا أتى بالقديس لويس إلى تونس ؟ هل جاء، كما يدعي جورج دوبى Georges Duby: « ليموت شهيدا كما سولت له نفسه ورؤاه الانفرادية الكبيرة » أم جاء، كما يقول كلود كاهن Claude Cahen طالبا «تضحية فات أوانها وانقضى زمانها ؟ » أم تراه جاء حاملا في رأسه فكرة عبقرية سبق بها الخطط الاستراتيجية العسكرية الحديثة، وهي أن ينزل الضربة بنقطة الضعف في المغرب ليفك من شدة الطوق على البقاع المقدسة المسيحية في المشرق ؟ ما فتىء الناس يسعون إلى سبرنوايا الملك الحقيقية أو المفترضة. وبما أن هذه النوايا قد أحيطت بالكتمان الشديد حتى آخر لحظة، ونظرا إلى فقدان الوثائق الواضحة الدقيقة، فإن كل الافتراضات والاحتمالات تبقى جائزة وقابلة لأن تدعمها حجج مقبولة.

وقد سبق للقديس لويس أن تطوع بالانخراط في سلك الصليبيين من قبل. وقد قام في سنة 1249م. بمهاجمة دمياط على ساحل البحر شمالي القاهرة. وإثر هزيمته في معركة المنصورة وأسرته، تمّ اقتداؤه بالمال، فأطلق سراحه وبقي بأرض فلسطين من سنة 1250 إلى سنة 1254 م قبل أن يرجع فيلتحق ببلاد فرنسا. وعندما عاد يوم 25 ماي 1267 رفقة بنيه الى حمل شعار الصليب من جديد، لم يلاق مسعاه تحمّسا من أحد. ولم يكن ذلك ناتجا عن فتور في الإيمان، لكنّ روح الحملات الصليبية قد خمدت وفلّ حدّها من جرّاء الخيبات المتكرّرة. ثمّ إنّ هذه الحملة التي عزم عليها القديس لويس لم تأت متأخرة عن زمانها فحسب، بل إنّها كانت أيضا شاقّة وعسيرة. ذلك أنّ الظروف المادية لم تكن مؤاتية بالمرّة أجل، لقد أمكن للملك الفرنسي أن يقضّ لصالحه بفضل معاهدة باريس (سنة 1259 م) تلك الخلافات والنزاعات التي كانت قائمة بينه وبين انجلترا، لكنّ العملية الجديدة كانت باهضة التكاليف في حين كانت الأموال مفقودة. فقد كان يجب صناعة أسطول كامل أو تسويغه، وكان ينبغي أيضا وبالخصوص إقناع عدد من الحلفاء المتردّدين المتمنّعين، ممّا جعل الاستعدادات حينئذ طويلة إذ دامت مايناhez الثلاث سنوات. وبالإضافة إلى كلّ ذلك كان الملك مصابا منذ بضع سنوات بداء الزحار الاسهالي. وفي الحقيقة فإنّ الرّجل الذي غادر باريس يوم 15 مارس 1270 كان بعدُ رجلا مريضا .

- بين آثار قرطاج : سار الجيش في طريقه من حجّ إلى حجّ حتّى وافى مدينة «آغ مورت » Aigues-Mortes، ومن هناك، وبعد قدّاس ليلي، أبحر الجيش في أوّل

جويلية نحو مدينة «كالياري» Cagliari التي بلغها بعد ستة أيام. ولم يتم اتخاذ القرار بالتوجه بالأسطول نحو تونس - أو الكشف عنه للملوك والبطارقة وأعيان النبلاء المساهمين في الحملة - إلا بعد بلوغ تلك المرحلة. وفي يوم 17 جويلية، أي بعد قطع يومين بالبحر، بلغ الصليبيون مرسى حلق الوادي. فنزلت جيوشهم (وكانت تعدّ بين العشرة آلاف والخمسة عشر ألف رجل تقريباً)، وتحصّنت بأثار مدينة قرطاج القديمة. وكان عليها أن تقاوم شدة الحرّ، وأن تواجه فقدان الأغذية - وقد أصبح هذا المشكل يدعو إلى الانشغال والحيرة منذ يوم 20 أوت - وأن تجابه بالخصوص خطر الوباء .

وأخذت جيوش المسلمين مواقعها بمنطقة مطار تونس قرطاج الحالي. وكان المعسكران محاطين بالخنادق. وفي انتظار قدوم شارل دي أنجو Charles d'Anjou شقيق القديس لويس وملك صقلية، تمّ الامساك عن أي اشتباك جدّي طيلة شهر كامل أو يزيد. وفي الأثناء أخذ وباء الرّحار الجرثومي يفتك بالناس. وفي يوم 3 أوت قضى الوباء على جان تريستان Jean-Tristan أصغر أبناء الملك و « كونت » مقاطعة نوفار Nevers. وفي عشية يوم 25 من نفس الشهر أسلم القديس لويس الروح إلى بارئها، في حين كانت مراكب أخيه شارل دي أنجو تُرسى هناك بعد طول انتظار. ومن الغد، وبمحضر أفراد أسرة الملك وأهل بيته، وجريا على سنة كانت سائدة بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر فيما يتعلق بجثمان المملوك، تمّ تجريد الجسد وتغليته الأحشاء والأجزاء الرخوة منه. ثم أخذها شارل دي أنجو معه إلى مدينة بلرمة .

وكان فيليب الثالث، ملك فرنسا الجديد، قد أقعده نفس المرض الذي قضى على والده، فتولّى عمّه قيادة جيش فاقد معنوياته أهلك الوباء جانبا هاماً من رجاله. وقد تعذّر دفن كلّ الموتى حتّى عمد الناس إلى إلقاء الجثث في مياه البحيرة، وقد أدّى ذلك إلى انتشار روائح نتنة لا قدرة لأحد على تحملها. هذه هي الظروف التي حفّت بحدوث اشتباكين بين الفريقين، الأول يوم 4 سبتمبر، والثاني يوم 20 أكتوبر. وقد دارت الدائرة في كلا المعركتين على جيوش المسلمين التي لم تسلم هي الأخرى من الوباء. عندئذ اتجه الرأي لدى كلّ من الجانبين إلى إيقاف القتال. فقد أصبح همّ فرق البدو الرّحل من جيش المسلمين هو الالتحاق بمراعي الجنوب كما تقتضيه عاداتهم المألوفة في مثل ذلك الوقت. أمّا الصليبيون فكان يلزمهم الفرع الشديد من مفاجأة الخريف لهم مع ما يرافقه

من الصعوبات في الملاحظة. لكنّ مفاوضات السلام كان لها خصومها داخل كل فريق. لذلك لم تبلغ تلك المفاوضات نتيجتها - بعد شيء من التردّد لدى الجانب الإسلامي في خاتمة المطاف - إلّا يوم 5 نوفمبر. وقد وصلنا الأصل العربي من المعاهدة المبرمة مختوما بخاتم كبير من الشمع فوق شريط من الحرير الأحمر والأخضر. وهو محفوظ حالياً بخزانة الوثائق الوطنية بباريس. وتنصّ هذه المعاهدة على إطلاق سراح الأسرى، وضمان سلامة المسافرين والتجار، وطرد أعداء كل طرف من بلاد الطرف المقابل، والإقرار للمبشرين النصاريّ بحق القيام بطقوسهم وشعائرتهم ودعوة الناس إلى دينهم بكامل الحرية في أراضي الدولة الحفصية. هذا مع وجوب قيام المستنصر بالله بدفع غرامة حربية تساوي 210.000 أوقية من الذهب، وبتسديد « الجزية » التي كان شارل دي أنجو قد فرضها على البلاد. وقد ضوعف مقدار هذه الجزية ابتداء من تاريخ المعاهدة. وبعد انصراف جيوش الصليبيين تمّ تهديم آثار قرطاج من أساسها بصورة شاملة ومنظمة، فكان في ذلك خسارة لا تعوّض، وهو أسوأ ما ترتّب عن هذه المغامرة من العواقب.

على هذه الصورة كانت نهاية هذه الحرب الصليبية الغربية الأطوار، التي تمّ الانحراف بها عن القصد، وكان المستفيد الرئيسي منها - كما تمّ تأكيد ذلك مرارا - هو شارل دي أنجو الذي اغتنمها فرصة ليسويّ لصالحه النزاع القديم الذي كان بينه وبين السلطان الحفصي. أمّا الأثر الذي تركته هذه الحرب في أذهان الناس فهو شعور عميق بالارتباك وإضاعة الجهود سدى. فلم تكن هذه الحرب تعني في رأي ميشال مولا (Michel Mollat) سوى «مجهود مالي ضخم ذهب بدون طائل، وجيش عتيد قضى عليه «الطاعون» ... وأسطول كامل أبادته عاصفة خريفية بعرض ميناء تراباني [...]» و[بالخصوص] إضاعة لماء الوجه وفقدان للهيبة والاعتبار». هذا وقد لاحظ أحد رواة الأخبار من اللاتينيين، في نقمة وسخط، إنّ الصليبيين « قد انسحبوا جميعا تاركين نصف رجالهم في بطون القبور بأرض غريبة، وفي ذلك الجزاء العادل على ما قدمت أيديهم، لأنهم اتجهوا إلى أرض إفريقيّا خداعا وزورا، مخالفين بذلك الإرادة الإلهية والعدل اللذين كانا يفرضان عليهم المناجزة بالتوجّه إلى الأرض المقدّسة بقصد تحريرها». (1)

- معاهدة مخزية : وفي المعسكر الإسلامي لم تكن الأمور أيضا تبعث على قدر أوفر من الفخر والاعتزاز. فلم يكتسب المستنصر بالله فعلا من هذه المحنة

مزيّدا من العظمة وعلوّ الشأن. أجل، إنه استطاع أن يجنّب عاصمته ما كان يتهدّدها من أهوال النهب الذي بدأت مخاوفه تساور أذهان السكّان المخيم عليهم اليأس والقنوط، وقد « ابتلي المسلمون بتونس - كما يقول ابن خلدون - وظنّوا الظنون، واتهم السلطان بالتحوّل عن تونس الى القيروان »⁽²⁾. فتقبّل الناس انصراف الصليبيين عن أرضهم بمشاعر الارتياح العميق، ونحن لا نشكّ في صدق شهادة ابن خلدون إذ يؤكّد لنا أنّ السلطان أغرّم الرعايا ما أعطى العدو من المال فأعطوه « طوعية » .

ولا نزاع مع ذلك في أنّ هذه المعاهدة قد كانت مجحفة ومُخلّة بالكرامة بالنسبة إلى الأمير الحفصي. فهذا « خليفة » المسلمين كافة يخوّل المبشرين المسيحيين القيام في كامل الحرية بدعوة الناس الى النصرانية على كامل تراب مملكته ! وهذا ما يفسّر بدون شك إحجام أكابر رجال الدولة عن المساهمة في ختم المعاهدة. إذ لم يوقع عليها ابن الخبّاز كبير القضاة ولا الوزير ابن أبي الحسين وابن الرّائس. وقد وجّه السلطان بيبرس، أحد ملوك دولة المماليك بمصر، كتابا إلى المستنصر خاطبه فيه بكل احتقار قائلا له : « رجل مثلك لا يستحق أن يكون حاكما على المسلمين »⁽³⁾.

ومع ذلك فإنّ المقاومة ضدّ الصليبيين قد كانت بدأت في غمرة من الإيمان والحماس، وتوجّه الأمير الحفصي إلى أهالي البلاد بخطبة استشهد فيها بالقرآن الكريم ونادى في الناس بالجهاد متمكّلا بقوله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »⁽⁴⁾ فأقبل الناس من كلّ صوب وجأوا حتّى من المغرب الأوسط، وساهم الشعراء بنصيبهم في هذا المجهود ساعين الى جمع الطاقات وتقوية الهمم والعزائم . وما إن سرى خبر الاستعداد لشنّ هذه الحرب الصليبيّة الثامنة ، التي لم تكن تعرف وجهتها الحقيقية في بادئ الأمر ، حتّى سارع أبو مطروح شاعر البلاط بمصر إلى إرسال هذه الصيحة من قصيدة حماسية طويلة يقول فيها :

« وقل لهم إن أزمعوا عودة ★ لأخذ ثار أو لشغل قبيل »

دار ابن لقمان على حالها ★ والقيّد باق والطواشي صبيح »

وعمد أحد شعراء مدينة تونس، إلى إنذار القديس لويس بأنّه وشيك الوقوع في قبضة منكر ونكير الملكين المكلفين بتعذيب الأشقياء في قبورهم، فخاطبه قائلا :

« يا فرنسيس، هذه أختُ مِصْرٍ * فتَاهَبْ لِمَا إِلَيْهِ تَصِيرُ

لك فيها دارُ ابنِ لقمانَ قَبْرُ * وطواشيك مُنْكَرٌ ونَكِيرُ »

أقلّم يكن ذلك يعني فعلاً تجنّد كامل بلاد الإسلام في وجه النصرانية؟ كلا! فقد ظلّت الحروب الصليبية إلى ذلك العهد نزاعات محليةً في نظر المسلمين لا يعني بأمرها سوى الأجوار المباشرين لميادين الصراع، ولم يتمكّن أحد في العالم الإسلامي على ذلك العهد من إدراك عمق هذا الحدث ومداه ولا طبيعته الحقيقية على وجه الخصوص. ولم تظهر عبارة «الحروب الصليبية» إلّا في عهد متأخّر، أي في العصور الحديثة حيث استعملت في بادئ الأمر داخل أوساط العرب المسيحيّين المتفتّحين للتأثير الفرنسي. أمّا أهل ذلك العصر القديم فلم يروا في الحروب الصليبية سوى حلقات من الصراع التقليدي الذي بدأ منذ ظهور الإسلام، والذي كان المسلمون فيه يجابهون الروم بالشرق والإفرنج بالمغرب. وهذا هو الإطار الذي أحلّ فيه المؤرخ التونسي ابن خلدون (1332 - 1406 م) بكلّ بساطة ووضوح هذه الهجمة ضدّ تونس التي قام بها «الإفرنجية وتسمّيها العامة بالإفرانسييس». وقد غابت عنه الدوافع العميقة الحقيقية للصليبيين، فجعل السبب المباشر لهذه الحملة مالحق من الخسارة «بمال أدعياء تجار أرضهم». فهذه الخسائر قد حدثت فعلاً وقد تمّ إفساد سفارة بشأنها، لكنّه لم يكن لهذه الديون من أثر حقيقي في هذا النزاع رغم ما يوجد من وجوه التشابه بينه وبين الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830. بل ان بعضهم قد ذهب إلى حدّ القول بأنّ السبب المباشر لهذا الهجوم هو غضب القديس لويس عندما بلغ إلى علمه أنّ المستنصر هزىء به يوماً في أحد مجالس بلاطه بسبب ما كان حلّ به من أسر بأرض مصر. وهذا كلّهُ يؤكّد مدى بعد رواة الأخبار العرب في ذلك العهد عن إدراك النوايا الحقيقية التي كانت تدفع وتحرك خصومهم.

- **الجهل بالجغرافيا** : من البديهي الواضح أنّ جواً من الخلط والجهل والغلط كان يغمر أطوار الصليبية الثامنة سواء من جانب النصاري أو المسلمين. فالوجهة التي دفعها فيها القديس لويس كانت تصدر عن سلسلة من الأخطاء الجغرافية — مثل سوء تقدير المسافات — والاستراتيجية والبيئية والسياسية والدبلوماسية والبشرية. وقد دار جدال كثير حول الدور الذي قام به شارل دي أنجو شقيق الملك، إمّا لتبرئته من كل ذنب، أو لاتهامه بأنّه كان موجّهاً خفياً تحرّكه انتهازيته وحرصه الماكيافيلي على حساباته الخاصة

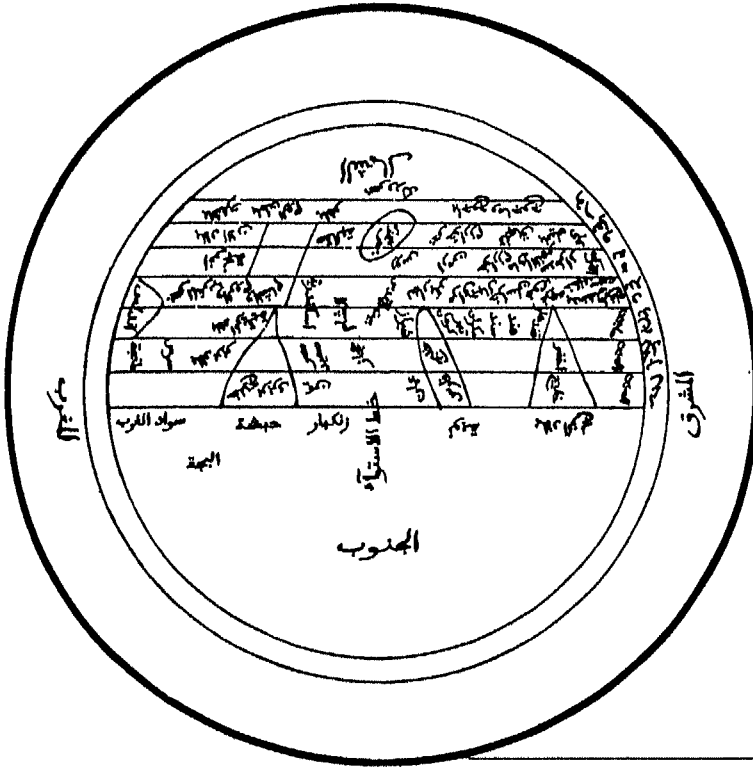
ومصالحه السياسيّة، ويتميّز بقدرته الشيطانيّة على الاستئثار بثمرة مجهود غيره. وقد لوحظ أنّ نصارى مدينة تونس، بمن فيهم من التجّار أصيلي مدينة جنوة - وهي المدينة التي زوّدت أسطول القديس لويس بالعدد الأكبر من الرجال - لم يمسسهم أيّ أذى من قبل الحكّام ولا جماهير الأهالي. كما لوحظ أيضاً حضور كلّ من فريديريك دي كاستيل Frédéric de Castille ابن عمّ القديس لويس، وفريديريك لانشا Frédéric Lancia ابن عمّ كونستانس دي هوهنشتاوفن Constance de Hohenstaufen إلى جانب المستنصر وداخل قبة خبائه. فيالها من صليبيّة غريبة حقّاً تلك التي يستعين فيها قائد المسلمين بمستشارين عسكريين نصارى يمثل هذه المنزلة الرفيعة !

أمّا الشخص الوحيد الذي كان يتميّز بين كلّ هذه الأصناف البشريّة بصفاء النية ونقاء النفس والضمير، فيبدو أنّه القديس لويس الذي ليس يوجد من شكّ في صدقه ونزاهته وحرارة إيمانه. وكان يدور من حوله عدد من الرهبان المبشّرين المختصّين في تنصير المسلمين، ومن أشهرهم رامون مارتى Ramon Marti المستعرب الجيدّ الاطلاع، وعضو مؤسسة Studium Arabicum بتونس ومؤلف كتاب Pugio fidei adversus Mauros et Judeos. وقد يكون هو الذي رسّخ الاعتقاد لدى القديس لويس بأنّه من الممكن تنصير الأمير الحفصي صاحب تونس. ففي خضمّ ذلك العهد وما كان يسود فيه من التباس في الأمور وحرارة في الاندفاع وإغراق في ضروب الجهل، كان مثل ذلك التحوّل والانصراف عن الإسلام لاعتناق المسيحية من الأمور التي تبدو محتملة وقابلة للتصديق. وإنّه ليجدر بنا، من أجل التعمّق في إدراك حسابات أهل ذلك العصر وفهم عقليّاتهم، أن نذكر أنّ بلاد الأندلس، رغم طول عهدها بالإسلام منذ الفتح، قد عادت إلى سالف صلتها بتقاليد الحياة النصرانيّة نتيجة للجهود المتضافرة التي تشارك في بذلها رجال الدنيا ورجال الدين بقصد استرجاعها من أيدي المسلمين. فلماذا لا تسير إفريقية إذن - وهي موطن القديس أغسطينوس - على آثار الأندلس؟

- 1 (Chronicon de rebus in Italia gestis) نقلا عن دي ماس لا تري De Mas Latrie في كتابه معاهدات حربية وتجارية ط. باريس، 1866، القسم الأول، ص 137.
- 2 (ابن خلدون، كتاب العبر، ط. بيروت، 1959، ج VII، ص 680 (IV - 670).
- 3 (المقرئزي، سلوك، القاهرة، نشر مطبعة لجنة التأليف. 1957. ج I، ص 601.
- 4 (القرآن، سورة IX، آية 41.
- 5 (راجع مقال : « هل عاش القديس لويس حقاً ؟ » حوار مع جاك لوغوف Jacques Le Goff مجلة التاريخ « l'Histoire » عدد 40، ديسمبر 1981، ص 90.

مراجع لمزيد الاطلاع

- A. S. Atiya, *the Crusade, Historiographie and Bibliography*, Londres, Oxford University Press, et Bloomington, Indiana University Press, 1962.
- A. Bridge, *les Croisades*, Paris, Denoël, 1983.
- *Les Croisades*, Numéro spécial de "Notre Histoire" n 20 février 1986.
- R. Lefèvre. "La crociata di Tunisi nei documenti del distrutto archivio angioino di Napoli" dans *Africa*, t. 5. Rome, 1977.
- A. Maalouf, *les Croisades vues par les Arabes*, Paris J.C. Lattès, 1983.
- J. Richard, *Saint Louis*, Paris, Fayard, 1985.
- J. Richard, *Saint Louis et son siècle*, Paris, Taillandier, 1985.
- E. Saïd, *L'Orientalisme. L'Orient créé par l'Occident*. Paris, Ed. du Seuil, 1980.
- E. Sivan, *L'Islam et la Croisade, Idéologie et propagande dans les réactions musulmanes aux croisades*, Paris, Maisonneuve, 1968.



مشاركة

مشاركة، هم العرب والمستعربون المنتسبون إلى المشرق الإسلامي، مقابل المنتسبين إلى المغرب الإسلامي الذين يطلق عليهم اسم المغاربة [راجع هذه اللفظة في « دامت »]. وليس يدخل في نيتنا هنا تناول تاريخ المشاركة بالشرق، لأنّ مثل هذا العمل داخل في صلب تاريخ تلك المنطقة بأكملها. وإنّما سوف يقتصر اهتمامنا على المشاركة الذين كان المغاربة يحسّون بأنهم يتميّزون بهذه الصفة داخل منطقة المغرب الإسلامي. وقد بدأ التمييز بين هذين المجموعتين الكبيرتين - مع شيء من الخصوصية التي تتسم بها الأندلس - يظهر بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب بأقل من نصف القرن، أي حوالي سنة 122هـ / 740 م.

وأنه من المتعذر أن نحدد بشكل مدقق - ولو على سبيل التقريب - عدد المشاركة الذين جاؤوا في دفعات متتالية وفي عهود تتراوح بين منتصف القرن الأول ومنتصف القرن الخامس هـ. / الربع الأخير من القرن السابع إلى منتصف القرن الحادي عشر م. فاستقرّوا بالمغرب الإسلامي، ولاسيما بإفريقية حيث بلغ تمركزهم أقصى كثافته و أطول مدّته. هذا وبقدر ما كان الوافدون على البلاد « يَتَمَغَّرِبُونَ - أي منذ الجيل الثاني - فإن الإحساس بأنهم مشاركة كان يزول شيئا فشيئا. وقد كانت الدفعات الأولى من المشاركة إلى حدود الربع الأخير من القرن الثاني هـ / أوائل القرن التاسع م. تتكوّن من حضر أسسوا المدن أو نزلوا بما وجدوه منها قائما. ويمكن أن نقدر أنّ عددهم لم يتجاوز ربع مليون من الأشخاص بين مجاهدين في سبيل الله تصحبهم نساؤهم وأولادهم، وبين رجال دواوين ورجال دين وتجار وباعة وغير ذلك من أصناف الناس الذين تستهويهم الأرباح والمغانم التي يمكن أن يتيحها مثل هذا البلد الجديد (انظر محمد الطالبي، الإمارة الأغلبية، باريس، 1966، ص 21-22 ، والموسوعة الإسلامية، ج I، ص 549 عند لفظة العرب)، وقد شكّلت المدن التي نزلوا بها، في أن واحد، مراكز دينية لنشر الإسلام ومراكز ثقافية لمشرّقة المغرب، ويبدو أن عددا من صحابة الرسول عليه السلام ماتوا بالمغرب (راجع أبو العرب، الطبقات نشر ابن شنب، باريس، 1915، ص 16 - 18 ، والمالكي، رياض النفوس، نشر ب. البكوش وم. ع. المطوي، بيروت، 1981 ج I ص 60 - 98 ، حيث يحيل الناشران في حواشيهما على سائر المصادر بصورة شاملة تقريبا)، وقد احتفظت بعض المدن إلى اليوم بذكراهم في شكل مآثر خالدة تتجسّم في أضرحة ومقامات مبنية، من ذلك مثلا الضريح الموجود بالقيروان والمنسوب الى أبي زمعة البلوي، وقد أقيم حوله معلّم ديني يسمّى (زاوية سيدي الصّاحب) ويحظى بشهرة خاصّة (انظر ب. روا. وب. بوانصو B.ROY et P. POINSSOT، النقائش العربية بالقيروان، باريس، 1950، ج II / 1، 65-76) . على أن المصادر تولي مكانة ممتازة للتابعين العشرة الذين أوفدهم الخليفة عمر بن عبد العزيز (99-101 هـ / 717-720 م) إلى إفريقية لنشر الإسلام ببلاد المغرب (المالكي، رياض النفوس، ج I، ص 99-118 مع الإحالة على المصادر

الأخرى). والجدير بالملاحظة أنه لم يكن يوجد بين هؤلاء المشاركة أيّ علم يُشهد له بالتقدّم .

أمّا من الجانب السياسي فإنّ أهمّ الأسر المالكة المشرقية التي حكمت بالمغرب الإسلامي كانت دولة الأغالبة بالقيروان ودولة الأدارسة بفاس ودولة الأمويين بقرطبة ودولة الفاطميين الذين أسسوا المهديّة على الساحل التونسي .

وآخر المشاركة الذين دخلوا بلاد المغرب ثم الأندلس في جماعات كثيفة (بضعة مئات الآلاف) هم البدو من قبائل بني هلال الذين انتصروا سنة 443هـ / 1052م. بحيدران ، ثمّ تبعهم بعد ذلك بنو سليم. وبخصوص مدى « الكارثة » الهلالية فإنّ الآراء تختلف كثيرا (راجع محمد الطالبي، القانون والاقتصاد في إفريقية ... ضمن دراسات في تاريخ إفريقية ... تونس، 1982، ص 205 ، التعليق رقم 4 ، ترجمة انكليزية ضمن الشرق الأوسط الإسلامي نشر أ. ل ، أودوفيتش A.L. Udovitch ، برنستن، 1981، ص 272-273 والتعليق رقم 77). هذا ولم يتمّ اعتبار بني هلال وبني سليم في المغرب الإسلامي كمشاركة بآتمّ معنى الكلمة ، فهذه التسمية - مثل تسمية عراقي أو كوفي في غالب الأحيان بالمغرب الإسلامي - كانت لا تعني دائما وبالضرورة الانتماء الترابي إلى رقعة اجتماعيّة ثقافية محدّدة، بل والانتساب كذلك إلى مدرسة دينية. فقد كان الشيعة بالخصوص منذ قيام الدولة الفاطمية غالبا ما يسمّون بالمشاركة ولو كانوا من المغاربة الخُص. فقد كان ابن غازي مثلا رجلا من أتقياء أهل السنة بالقيروان ومن المقبلين على المrapطة. فلما دخل عبيدالله القيروان « تشرّق » ابن غازي، أي أنه اعتنق مذهب الشيعة. (انظر محمد الطالبي، تراجم أغلبية، تونس، 1968، ص 284). وهذا رجل آخر « مشرقيّ » خرج عن الإسلام (انظر المالكي، رياض النفوس، ج II، ص 502) ليعتنق نحلة الشيعة. وهذا مجلس بالقيروان كان يضمّ جماعة من « أهل السنّة ومن المشاركة » (المالكي، رياض النفوس، ج II، ص 338) أي من الشيعة. وهناك أمثلة أخرى في رياض النفوس للمالكي، ج II، ص 425-427. وفي تراجم أغلبية لمحمد الطالبي، ص 369، 383، 394.

أما كلمة عراقي (أو أهل العراق) وكلمة كوفي فقد كانتا تطلقان على أتباع المذهب الحنفي من أهل إفريقية (راجع رياض النفوس للمالكي ج I،

339، 207، وتراجع أغلبية محمد الطالبي، عند كلمة عراقيون في (الفهارس). وقد كان هؤلاء الحنفية- على نقيض المالكية الذين كانوا بمثابة سنان الرّمح في حركة المقاومة ضدّ الفاطميين - أكثر تقبّلاً للدعوة الشيعية، ممّا قد يفسّر جزئياً اختفاءهم من الساحة الإفريقية مع استئصال المذهب الشيعي نهائياً، بعد أن كانوا يشكّلون فيها أكثرية السكّان (راجع محمد الطالبي، الإمارة الأغلبية ، ص 233).

وقد قام المشاركة بدور حاسم بالمغرب الإسلامي على الصعيدين الديني والثقافي. هذا ومن الثابت أننا لم نر أيّ واحد من أعلام المشاركة قد تجاوز حدود أرض النيل. فقد كانت بلاد المغرب بمثابة المغرب الذي لا يقصده بحثاً عن الرزق والثراء سوى شخصيات من الطراز الثاني نسبياً، على أنّ هذا لا يعني أنّ دور هؤلاء الرجال كان أنقص قيمة أو أقلّ أثراً. ولنذكر على سبيل المثال أن القاضي عياضاً قد كان من شيوخه رجلان من المشاركة زارا سبته وهما أبو الحسن الربيعي المقدسي (المتوفى بالناصرية سنة 531 هـ / 1137 م؛ عياض، الغنية، رقم 81) والشافعي سهل بن عثمان النيسابوري (المصدر السابق، رقم 89؛ المقرئ، نفح الطيب، ط. بيروت، 1968، ج III، ص 67). ولا يمكننا هنا طبعاً أن نقوم بإحصاء شامل لجميعهم، على أن مثل هذا الكشف الذي لا نملكه إلى حدّ الآن يمكن لو تمّ تحقيقه أن يكون موحياً بكثير من الأفكار الجديدة وفتاحاً بعض المسالك والسبل أمام البحث.

هذا ولم تحتفظ لنا المصادر المتوفرة اليوم لدينا بكل المعلومات بصورة شاملة. فهذا المقرئ يؤكّد - بعد أن خصّص 86 ترجمة شخصية للمشاركة الذين أقاموا بالأندلس (انظر نفح الطيب ج III، ص 5-149) - أنّه لا سبيل إلّا إلى حصرهم جميعاً حتى لو اقتصر الأمر على أشهرهم. (نفح الطيب، ج III، ص 5). أمّا ابن بشكوال فإنه يقدّم لنا من جهته أسماء خمسين من المشاركة المستقرين بالأندلس (راجع كتاب الصلّة حيث تجدهم مرتّبين حسب ترتيب حروف الهجاء تقريباً في نهاية كل قسم من الكتاب ضمن باب « ومن الغرباء »).

ومن أكبرهم شأننا ثلاثيّة وجوههم أحسن مثال على الدور الممتاز الذي قام به المشاركة في

المغرب الإسلامي، إثنان منهم من رجال الأدب واللغة، والثالث من أهل الغناء والموسيقى. فأبو علي القالي (288 - 356 هـ / 901 - 967 م.) قدم قرطبة سنة 330 هـ / 942 م، وحظي فيها باستقبال مشهود (انظر المقرئ، نفح الطيب، ج III، ص 71-72). وقد اعتمد على ما استمدّه من مكتبته الثرية جداً ومن ذاكرته كذلك ليضمن لثقافة المشرق أوسع الانتشار. وهو يحتلّ بذلك « منزلة رئيسية في إشاعة التقاليد الأدبية العراقية بالمغرب الإسلامي » (انظر الموسوعة الإسلامية. الطبعة الثانية ج IV، ص 523). أمّا شخصية سعيد البغدادي (المتوفى سنة 417 هـ / 1026 م؛ فهي لامحالة أكثر تمثيلاً لهذه الظاهرة وأشدّ طرافة (انظر بلاشير، رائد للثقافة العربية المشرقية بالأندلس في القرن العاشر : سعيد البغدادي، في مجلة أنالكتا، دمشق ، 1975 ص 443 - 465). وهي شخصية «فنان متسكّع ظريف الأطوار» (المصدر المذكور، ص 445) تساعده ذلاقة لسانه على التآلق بين أهل البلاط. وبحكم اضطراره إلى « التخلي عن بلوغ الشهرة في العراق » فقد قصد قرطبة حيث كان «بمثابة أنموذج الرائد والداعية للثقافة الأدبية المشرقية بالأندلس في النصف الثاني من القرن العاشر» (المرجع المذكور، ص 465). أمّا زرياب، فقد كان مغنياً أسود بدأ حياته المهنية في محيط البلاط العباسي ببغداد حيث أثار من حفيظة حسّاده ما أرغمه على اليأس من بلوغ بعض السّطوة بالعراق ، ودخول قرطبة سنة 207 هـ / 822 م - بعد إقامة قصيرة بالقيروان - بحثاً عن الثراء والحظوة. وقد كان له هناك أثر عظيم لم يقف عند حدّ الغناء والموسيقى. فقد ذكر الأستاذ أ. ليفي بروفنصال أنّ : « أهل البلاط وكامل سكان المدينة قد غيروا ملابسهم وأثاثهم وأطعمتهم عملاً برأي زرياب الذي كان لا يناع » (راجع أ. ليفي بروفنصال، تاريخ الأندلس، باريس، 1950، ج I، ص 272).

المراجع

لا توجد مجموعة مراجع خاصة بهذه المسألة، فبالإضافة إلى المراجع التي أشير إليها في صلب هذا البحث، يمكن الظفر ببعض المعلومات في المؤلفات التاريخية وفي طوايا كتب الأدب وكتب الطبقات على وجه الخصوص .

ديار المغرب

واما المغرب فهو ممتد على بحر الروم وهو صفاً نصف من شرق هذا البحر
ونصف من غربه فاما الشرق فهو باقية وافرقيقه وناهره وطحجه والشرق
الافقي وزوبله وما في اضعاف هذه الاقاليم واما العربي فهو الاقل
وقد جمعتهما في التصوير فاما الخائف الشرقي فان البحر المحيط به من
شربه حاصص من اسخندريه وبرقه من بحر الروم حتى مضى على ظهر
الواحات الى برقه يسمي الى ارض النوبة وغربه البحر المحيط ممتداً على حده
وسماليه بحر الروم الذي يكثر من البحر المحيط بالبحر من حاصص على ما حاصص برقه الى
اطرابلس المغرب ثم الى المهرية ثم الى تونس ثم الى طبرقة ثم الى سن ثم الى هرو
سي رقي ثم الى خور ثم الى البصيرة ثم الى ازيله ثم الى السوسن الاقصى
ثم ممتد على برقه ليس واما عماره وخنوسه رمل من هذا البحر المحيط حتى ممتد
من وراس الجاسه الى زوبله وممتد على طهر الواحات من ارض مصر
واما الانبلس فمحيط به مالم البحر المحيط من حبل الجلالة على
شوره قال لها سير من الى الحسنيه ثم الى اشبيلية ثم الى سلاو ثم الى
حربه جبل طارق ثم الى صاليه ثم الى جايه ثم الى بلاد ريشه ثم الى بلاد بلبيس
ثم الى طرطوطه ثم يصل بلاد القز مالم البحر بلاد الافرنجه ومالم الى
المغرب بلاد علس كس ثم بلاد مسكوس ثم بلاد الجلالة حتى سمي الى
البحر المحيط وهذه صورة المغرب

مغاربة

مغاربة اسم جمع مشتق، يعني الناطقين بالعربية في المغرب الإسلامي
(مغرب، جمعه مغارب)، بالمقابلة مع الناطقين بالعربية في
المشرق - (مشرق جمعه مشارق) ويدعون مشاركة. ويمكن تبين هذا التوزيع
للناطقين بالعربية بين مشاركة ومغاربة - ويمكن تتبع ذلك حتى في اللهجات
الحالية الموزعة بين مشرقية ومغربية - منذ الأصول. فالحد بين المجموعتين
الكبيرتين - وتدخل ضمن ذلك إسبانيا المسلمة، رغم خصوصيتها المتفردة،
ومصيرها المختلف - يقع دائماً شرقي طرابلس، على مستوى لبدة، ويتأتى من
هنا الوضع الخاص بلبيبا، المقسمة باستمرار بين انتماءاتها المغربية والمشرقية.
وقد «تمغرب» العرب المستقرون في أرضهم بالمغرب بسرعة كبيرة أو

أصبحوا إسبانيين بصفة كافية ليظهروا في مظهر المختلفين بالقياس إلى إخوتهم في الجنس الباقيين بالشرق. ونستخرج ذلك من علامات عديدة متوافقة. فمنذ منتصف القرن الثاني هـ / الثامن م، وعت الجالية العربية المتجذرة في ولاية القيروان (أهل إفريقية) بخصوصيتها المحلية (انظر م. الطالبي، المغرب من الفتح إلى أواخر الربع الأول من القرن الثاني وبذور الشعور بقوميات محلية، في العدد 4 من سلسلة الدراسات الاجتماعية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية CERES، تونس 1979، 207 - 230) بالمواجهة العنيفة التي أبدوها، زمن الانفجار الخارجي الكبير سنة 122 هـ / 740 م. ، تجاه الإخوة القادمين من المشرق لإنجادهما، وفي الحقيقة، دون التخلي عن ضمها في نفس الاحتقار المخصص حتى ذلك الوقت للبربر وحدهم. ونلاحظ، بالمثل، تطورا شبيها، بالمواجهة بين العرب البلديين، و « الغرباء » من الموجات اللاحقة، في إسبانيا المسلمة، رغم أنها محيت بطول الوقت (انظر أ. ليفي بروفنسال «E.Lévi Provençal»، تاريخ إسبانيا المسلمة Histoire de l'Espagne musulmane ، باريس، 1950، I، 44 - 53، 83، 110، 345). وفي المشرق، مثل المغربي (جمع مغاربة) القريب الفقير، ورد الفعل القديم الوسيط هذا شديد اللصوق حتى أنه يواصل، في عصرنا بفويرقات ودرجات مختلفة، اشباع العلاقات بين المشرق والمغرب في جميع المستويات، بما في ذلك مستوى الموسيقى. فالمغرب يعجب دائما — مهما كان التطور الجاري — بالشرق ويستورد منه، أكثر بكثير مما يصدر إليه، حاجات الاستهلاك الثقافي : الكتب والأفلام والأسطوانات .

ويتعلق الأمر بظاهرة قديمة جدًا تستحق التحليل والتفسير، ولم تخصص لها أية دراسة جمالية إلى الآن. وهذه بعض الأمثلة التي تعود إلى القرنين الأولين من العهد الإسلامي : كان أبو محمد بن عمران التجيبي (المتوفى 125 أو 127 هـ / 743 أو 745 م) ، المستقر بتونس، يعيش بشعور حقيقي بأنه منفي في هذا الربع الكنود « وهو المغرب » (م. الطالبي، الإمارة الأغلبية «L'Emirat Aghlabide»، باريس، 1966، 43)، وقد أهين التونسي ابن فروخ وكان يتابع بالعراق دروس أبي حنيفة (80 - 150 م / 700 - 768 م) لمغربيته (نفسه المرجع، 20)، وقد قبل أسد بن الفرات (المتوفى 212 هـ / 827 م) [انظر الفصل المخصص له في « دامت »] والذي أصبح من أشهر شيوخ القيروان، في دروس مالك (المتوفى

179 هـ / 796 م) ضمن حلقة المصريين لأنسه كان أذكى من أن يبقى ضمن مجموعة المغاربة (نفسه، 20)، الخ. وهكذا كان المغرب معقدا برضوح تجاه المشرق، مما جعل ابن بسّام (المتوفى 542 هـ / 1147 م) يقول مستنكرا: «إن أهل هذا الأفق، أبوا إلا متابعة أهل الشرق ... حتى لو نعى بتلك الأفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما» (الذخيرة، ط، القاهرة، 1358 هـ / 1931 م، I / 2، 1).

وهذا ما يفسر لم يستقرّ التيار الغالب لتنقل النخب خاصة في اتجاه المغرب - المشرق. وعلى سبيل المثال، نقول إن المقري (المتوفى 1041 هـ / 1641 م) يثبت قائمة تحوي 307 اسما للأندلسيين الذين زاروا المشرق (نفح، ط. إحسان عباس، بيروت، 1968، II، 5-704) مقابل 148 مشرقيا قاموا بالرحلة المضادة (نفس المصدر، III، 5-149). والحدث المعبر أكثر، هو أن أي شاعر كبير من دمشق أو بغداد أو القاهرة، وباختصار أي شاعر لم يرهق مطبته على طريق المغرب. وكانت الرحلة، وهي الجمع بين الحج والدراسة، وبالنسبة أيضا، التجارة، تتم، لأسباب ثقافية ودينية بديهية، لصالح المشرق. ويعود المسافر غالبا إلى بلاده مسلحا بالعلم والشهرة.

لكن يقع أيضا في كثير من الأحيان أن يستقرّ المسافر نهائيا في المشرق. وهكذا أمكن لجاليات مغربية أن تتكوّن في كبرى العواصم الشرقية التي تتركّز على طرق الحج، وخاصة في الإسكندرية، والقاهرة وقوص، ودمشق، والمدينة، ومكة، وبسبب انعدام دراسة جملية شاملة، فإن تاريخها مازال بالنسبة إلينا متقطعا ناقصا للوضوح. إلا أنه يمكننا أن نعتبر أنه إذا كان من الحاصل أن الحضور المغربي كان فعليا، وفي بعض الأحيان، كثيفا بالمشرق، فإنه لم يؤدّ على الإطلاق في التاريخ والمجتمع دور الفرس أو الأتراك. فلا توجد أية شعوبية مغربية خاصة، أو أي تأثير في المؤسسات أو أسلوب الحياة.

وكانت النساء البربريات معتبرات في البلاطات الأموية والعباسية. وكان هشام ابن عبد الملك (105 - 125 هـ / 724 - 743 م) يطلبهنّ من واليه على المغرب (م. الطالبي، المرجع المذكور أعلاه، 33)، وقد تزوّج أبو جعفر المنصور (136-158 هـ / 754 - 775 م)، وهو بنفسه ابن بربرية تدعى سلامة، قيروانية تدعى أم موسى، وهي أم الخليفة المفضل محمد المهدي (158-168 هـ / 775-785 م)، وأنجبت راح، أصيلة قبيلة نفزة البربرية، عبد الرحمن الداخل (138-172 هـ / 756-788 م)، مؤسس الدولة الأموية بإسبانيا، وقاتول المعتضد

(279 - 289 م / 892 - 902 م)، وقرطيس القاهر (320 - 322 هـ / 932 - 934 م).
(م. الطالب، المرجع المذكور أعلاه، 42 - 43).

وكان دور المغاربة، في جيوش الخلفاء الأمويين والعباسيين، من غير أن تكون له أبدا أهمية دور الخراسانيين أو الترك، بعيدا عن أن يهمل. وكان وزن البربر، بقيادة طارق بن زياد، حاسما في غزو إسبانيا. وشارك جيش إفريقية، سنة 98 هـ / 717 م، بقيادة المغيرة بن أبي بردة القرشي، في الهجوم الكبير، الذي أسفر في نهاية الأمر عن الفشل، ضد القسطنطينية (أبو العرب، طبقات، تح. ابن شنب، باريس، 1915، 22، ابن عذاري، البيان، تح. س. كولان G.S Colin وأ. ليفي بروفنسال E.Lévi. Provençal، ليدن 1948، I، 49). وفي بغداد، بدأ المغاربة يقومون، بداية من عهد حكم المتوكل (232 - 247 م / 847 - 861 م)، وفي نطاق الجيش، وبإمرة قواد من صفوفهم، بدور معتبر. وقد حصلوا على نفوس رواتب الترك (الطبري، تاريخ، تح. أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1968، 155)، ونصبوا، مع هؤلاء، المستعين (248 - 252 م / 862 - 866 م) خلفا للمنتصر (247 - 248 م / 861 - 862 م)، (الطبري، المصدر المذكور أعلاه، 256)، ثم تخلوا عنه، وبايعوا، دائما إلى جانب الترك الذين قاموا بدور المحرك، المعتز (الطبري، 287)، وساهموا بصفة نشيطة في الحرب الأهلية المندلعة بين 251 هـ / 865 م و 252 هـ / 866 م (الطبري، 290، 295، 304 - 339)، وساهموا سنة 255 هـ / 869 م، في خلع المعتز واغتياله، عندما عجز عن الوفاء برواتبهم ورواتب الترك (الطبري، 389)، وبداية من ذلك الحين، لم يعودوا يشغلون مقدمة الركب. وينبغي أن ننتظر إثر ذلك الفاطميين لنرى المغاربة يدخلون بكثافة المشرق. فقد انتصر الفاطميون بفضل بربر كتامة [انظر الفصل المخصص لهم في «دامت»]. وقد تبعهم هؤلاء إلى القاهرة ودمشق، وكانوا رأس الحربة لجيوشهم ودعايتهم الإسماعيلية. وشركهم جوهر الصقلي، غازي مصر، في جميع مستويات السلطة. «وفي كافة الخطط، أولى جوهر مغربيا مع من يشغلها» كما ذكر المقرئ (اتعاظ، 78). وبين 361 / 972 م و 363 م / 974 م، كانت كتامة منطلق عدة فتن بالقاهرة. وفي سنة 386 م / 996 م، فرضت رئيسها ابن عمار على الخليفة الحاكم (386 - 411 م / 996 - 1020 م). وسبب حضور المغاربة، بدمشق، اضطرابات أيضا. واندلعت أخطر فتنة واجهوها فيها الأهالي، سنة 461 م / 1069 م، ولحقت بالمدينة والجامع الكبير أضرار هامة.

ولم يكتف العديد من ممثلي النخبة المغربية بزيارة المشرق، إذ استقرّوا فيه. ولا يمكن بالطبع أن نثبت هنا قائمة شاملة لهم. ولنذكر، على سبيل المثال، من بين أشهرهم : الطرطوشي، المولود بطرطوشة سنة 451 هـ / 1059 م، والمتوفى بمصر حوالي 525 هـ / 1131 م حيث كان له تأثير كبير بصفته فقيها وزاهدا، وابن جُبَيْر، مؤلف الرحلة الشهير، المولود ببلنسية سنة 540 هـ / 1145 م، والمتوفى بالإسكندرية سنة 614 هـ / 1217 م، حيث جمع حوله حلقة لدراسة السنة والتصوف، ومحيي الدين بن العربي (560 - 638 هـ / 1165 - 1240 م)، أشهر الصوفيّين وأكثرهم عرضة للنقد، المولود بمرسية والمدفون بدمشق في تربة أسرة ابن الزكي التي حضنته، وهي أسرة شهيرة جداً، والمؤرخ عبد الواحد المراكشي، المولود بمراكش سنة 581 هـ / 1185 م، والذي قصد المشرق سنة 613 هـ / 1216 م. وتوفي به بعد سنة 621 هـ / 1224 م. إثر إقامته على التوالي بمصر، وبغداد، والحجاز، ودمشق، وابن مرزوق (حوالي 710 - 781 هـ / 1310 - 1379 م)، المولود بتلمسان، والذي سافر إلى القاهرة سنة 771 هـ / 1370 م حيث تمتع بتقدير كبير وكان قاضيا وواعظا ومدرسا، وابن خلدون، المولود بتونس سنة 732 هـ / 1332 م. والذي استقرّ نهائيا بالقاهرة (784 - 808 هـ / 1382 - 1406 م) دون أن يخلّى أبدا عن برنسه المغربي، والمقرّي، المولود بتلمسان سنة 986 هـ / 1578 م، والذي ارتحل إلى المشرق سنة 1027 هـ / 1618 م. حيث ألّف بطلب من طلابه الدمشقيّين كتابه البالغ الشهرة نفح الطيّب، وقد توفي بالقاهرة سنة 1041 هـ / 1641 م.

ومن بين المعاصرين، نشير إلى بيرم التونسي (1840 - 1889)، مؤلف صفوة الاعتبار، الذي استقرّ بالقاهرة، والأمير عبد القادر (1807 - 1883) الذي اختار، بعد إطلاق سراحه ومنحه جراية من السلط الفرنسية، دمشق مقرا لإقامته سنة 1855 حيث قام بدور معتدل معتبر، وعبد القادر الوردغي المغربي (المتوفى 1895) الذي كان من أشهر شيوخ الأزهر، وعبد القادر الجزائري (1887 - 1945)، من أشهر أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق.

ولنذكر أخيرا بأن أحد مؤسّسي النحل - نحلة البرغواطية - يونس بن إلياس بن طريف (227 - 271 م / 842 - 884 م)، بحث عن الإلهام في المشرق (م. الطالبي، الكفر، وتلاشي الثقافة والوطنية لدى البربر البرغواطية) «Hérésie, acculturation et nationalisme des Berbères Barghawàta» في أعمال المؤتمر الأول لدراسات الثقافات المتوسطية ذات التأثير العربي البربري «Actes du premier congrès d'études des cultures méditerranéennes d'influence arabo-

«berbère» الجزائر، 1973، 217-233)، وأن مؤسس مدرسة ودولة، وهو ابن تومرت (حوالي 471-524 هـ / 1078-1130 م)، قد جمع بالشرق عناصر المذهب الذي نشأت عنه الحركة الموحدية.

ولم يكن حضور المغاربة بالشرق حضور الشخصيات الشهيرة فقط، لكنه كان أيضا حضورا أكثر كثافة لجاليات التجار، والطلبة، والمهاجرين المختلفين. وإن معلوماتنا حول هذه الجاليات قليلة جدًا، عدا جالية اليهود الأفارقة المستقرين بالقاهرة بين القرنين الخامس هـ / الحادي عشر م والسابع هـ / الثالث عشر م، وقد أصبحت اليوم مألوفة لدينا نسبيا بفضل وثائق الجنيزة Geniza التي قام بتحقيقها س. د. غويتين S.D.Goitein (مجتمع متوسطي A. Mediterranean society، I، بركلي - لوس أنجلس 1967، II، بركلي - لوس أنجلس - لندن، 1971، III، بركلي - لوس أنجلس 1978، ورسائل تجار يهود من العصر الوسيط Letters of Medieval Jewish traders، برنستون Princeton، 1974). وتكشف لنا هذه الوثائق عالما محكم التنظيم، كامل الهيكلية، مزودا بوسائل ناجعة للاتصال وتحويل النقود، وجميع ذلك في خدمة نشاط تجاري هام لا يغطي فقط حوض المتوسط، بل يمتد أيضا إلى المحيط الهندي. وتأتي الدراسة الحديثة التي قام بها ج. س. غارسان J.C.Garcin من جهة أخرى فتؤكد الدور الحاسم الذي أدّاه المغاربة في إعادة إقرار السنة بمصر ودعمها بعد سقوط الفاطميين. فقد استقروا بأعداد كبيرة بقونة، على طريق الحج وعلى مسيرة يوم شمالي قوص. « وتدين المدينة بجانب كبير من ازدهارها الجديد للشهرة التي حصلت عليها لأن بعض الصالحين، وهم مغاربة عامة، استقروا بها، وتوفوا، ودُفِنوا بمقبرتها التي غدت محجّا. وهؤلاء الزهاد والمتصوفون يميزون بسنّيتهم، وبواسطتهم أكثر مما تمّ عبر التأثير المباشر لحلقات الإسكندرية أو القاهرة، انتشر « الإصلاح المضاد السنّي في الشعب » (مركز إسلامي ... ق. ص «Un centre musulman... Qùs» القاهرة، 1976، 161). وهذا الثال ليس فريدا. إذ يلاحظ ل. بوزي L. Pouzet، في مقال جيد التوثيق (المغاربة بدمشق في القرن السابع هـ / الثالث عشر «Maghrébins à Damas au VIIè / XIIIè Siècle»، في نشرة الدراسات الشرقية XXVIII B.E.O (1977)، 167-199، كيف أن المغاربة، المستقرين بأعداد كبيرة بسورية « عرفوا الاستفادة من الظروف قليلة الملاءمة لهم نسبيا (النفي والهجرة الجبريين جزئيا، صعوبات شخصية في المجال المذهبي أو غيره، اضطراب سياسي وانقلابات في موطن منفاهم نفسه، الخ.) فاتخذوا مكانة، من المستوى الأول بالنسبة إلى بعضهم، ومشرفة جدًا للجالية المغربية « بدمشق إذا نظر إليها كلا » (192). ويتبين لنا حضور

المغاربة بالقاهرة، في القرن الثامن عشر، أكثر كثافة و أكثر تنوعاً : من طلاب بالأزهر يتوقّر لهم رواق خاص بهم ، ويكوّنون فريق ضغط يمكنه أن يكون مخيفاً في بعض المناسبات، وتجار يحتكرون التجارة في بعض المنتجات مثل الزيت أو الطرابيش، الخ (أ.ريمون A.Raymond ، **الصنّاع والتجّار بالقاهرة في القرن الثامن عشر** «Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIè siècle»، دمشق، 1974، I 171 191 II، 201، 52، 419، 452، 470 — 476، 507، 518). ويقدر عددهم ب 15 أو 20 ألف شخص مستقرّين شديد الاستقرار في أحياء معينة، مثل حيّ مسجد ابن طولون. وقد اصطدم نابليون Napoléon ، لما دخل مصر، بهم وفكّر، عندما عجز عن طردهم من القاهرة، في أن يستخدمهم وقرّر أن يجنّد « فرقة مغربيّة » تتألّف من « أوغاد أشداء، قساة القلوب، كقائدهم » (أ. ريمون A.Raymond)، **التونسيّون والمغاربة بالقاهرة في القرن الثامن عشر** «Tunisiens et Maghrébins au Caire au dix-huitième siècle» ، في كراسات تونس «C. T.»، 1959، العددان 27 - 28 (364 - 365) وكان ذلك عبثاً، لأنّ المغاربة كانوا من الذين استجابوا بأكبر الحماس للنداء الموجّه من أجل المقاومة. وقد نتج عن استقرار الفرنسيّين في إفريقيا الشمالية حركة هجرة واسعة، تمتدّ على ثلاث مراحل أساساً : 1881 - 1889 ، 1890 - 1908 ، 1909 - 1914. وبصفة جمليّة استقرّ الجزائريّون بسورية، والتونسيّون بالقسطنطينية ومصر والبلاد الطرابلسيّة (ب . باردين P.Bardin ، **الجزائريّون والتونسيّون بالامبراطورية العثمانية**، من 1848 إلى 1914 «Algériens et Tunisiens dans l'Empire Ottoman» ، باريس، 1978). وأخيراً يضرب لنا التاريخ الحالي بعض الأمثلة لتواصل الحضور المغربي بالشرق. فقد زار الزعيم الوطني التونسي، الشيخ الثعالبي، مصر سنة 1898، والتقى بالعالم المصلح محمد عبده، وتأثّر به، وأدخل أفكاره إلى البلاد التونسية (نقولاً أ. زيادة، **أصول الوطنية بالبلاد التونسية** «Origins of Nationalism in Tunisia» بيروت ، 1962، 97 وما بعدها). ثم، التحق الرئيس المقبل ح. بورقيبة، عند تأسيس الجامعة العربية، وكان آنذاك قائد الدستور الجديد، بالقاهرة بصفة سرّيّة في مارس 1945. و أنشأ بها، بمعية حزب الاستقلال المغربي، والحزب الشعبي الجزائري « مكتب المغرب العربي » سنة 1947، قبل أن يعود إلى تونس في 8 سبتمبر 1949 .

البيبليوغرافيا : عدا المراجع المذكورة في صلب الفصل، يمكن أن نلتقط معلومات في جميع المصادر ذات الطابع التاريخي أو الجغرافي، وخاصة في الرحلات وكتب الطبقات .

الألف (ا)

- 14 - إبراهيم الأوّل
- 21 - إبراهيم الثاني
- 24 - ابن خلدون
- 44 - ابن الرقيق
- 46 - ابن شدّاد
- 48 - ابن عاشور (آل -)
- 80 - إفريقية

الحاء (ح)

- 180 - الحسبة
- 51 - حسّان بن النعمان الغسّاني

الخاء (خ)

- 90 - خمير

الدال (د)

- 54 - الدبّاغ

القاف (ق)

- 98 - قابس
- 116 - قسطيلية
- 122 - قفصة
- 133 - قوصرة
- 137 - القيروان

الكاف (ك)

- 163 - الكاف
- 56 - الكاهنة
- 62 - كسيلة

اللام (ل)

- 192 - القديس لويس في تونس

الميم (م)

- 200 - مشاركة
- 205 - مغاربة
- 66 - المعز بن باديس
- 171 - المهديّة

* د . الطالبي (محمد) : راجع «دامت» الكراس 2 و 3
تكملة لـ «بيلوغرافيا محمد الطالبي» المنشورة في كتاب «بحوث مهداة الى محمد الطالبي في عيد ميلاده السبعين»
منشورات كلية الآداب بمنوبة 1993، ص ص 163-181. اعداد أحمد الحمروني

I- الكتب :

1- عيال الله ، دار سراس للنشر ، 1992.

II- أبواب في كتب جماعية :

2- القاضي النعمان بن محمد بن حيون مؤرخ ظهور الدعوة الفاطمية . ملتقى القاضي النعمان ، تونس ، 1977، ص 87.

3- الاوضاع التي مهدت لقيام دولة الفاطميين في افريقية . ملتقى القاضي النعمان . تونس ، 1981، ص 29 . 35.

4- نحن والغرب (اجوبة على أسئلة كلثوم السبعفي) ، تونس 1992، ص 113-135.

III- مقالات بالعربية أو مترجمة اليها وعرض كتب :

5- الفتاوي وقيمتها التاريخية . - مجلة الندوة، مارس 1954 ص 19-22.

6- «اليوسي» لجلك برك (تقديم)، الفكر، ماي 1958 ص 78.

7- «الحوادث والبدع» للطروش، الفكر، جوان 1958، ص 79-83.

8- ابن خلدون وسبيل النظر الحر. الفكر، جوان 1960، ص 37-39.

9- نظرية ابن خلدون في سلطة الدولة. الفكر، مارس 1961، ص 34-38.

10- «مجلة معهد المخطوطات العربية»، مج 6، الجزآن 1 و 2، الفكر، ديسمبر 1961، ص 85-89.

11- لوي ماسينيون وتاريخ الاسلام. الفكر، جانفي 1963، ص 11-13.

12- مشكلة تحديد النسل في القديم. الفكر، اكتوبر 1963، ص 29-31.

13- ندوة الجامعة التونسية. الفكر، نوفمبر 1967، ص 29. 30. 59. 86. 87.

14- «افريقية» (ترجمة محمد العربي عبدالرزاق) - دائرة المعارف التونسية - «بيت الحكمة»

الكراس 1991/2 ص 90. 98، (عن دائرة المعارف الاسلامية، ط2)

15- «الكاف» - دائرة المعارف - «بيت الحكمة» الكراس 1992/3 ص 81. 86، (عن دائرة

المعارف الاسلامية، ط2)

*** عبد الرزاق محمد العربي ، من مواليد سنة 1936 بتونس . تخرج من دار المعلمين العليا بتونس (الفوج الأول، سنة 1959)، ثم أحرز على التبريز من جامعة باريس، ودرس بالتعليم الثانوي ثم العالي . ساهم بمقالاته ومترجماته ومحاضراته في الحركة الأدبية والفكرية الحديثة بتونس .

*** كاهن (كلود) Claude Cahen (1909-1991)

أستاذ مختص في تاريخ العالم الإسلامي في العصر الوسيط، صدر له : الشعوب الإسلامية في التاريخ القروسطي (Les peuples musulmans dans l'Histoire médiévale)
منشورات المعهد الفرنسي بدمشق، 1977 (مجموعة مقالات) و «سوريا الشمالية في عهد الحروب الصليبية والإمارة الفرنكية بأنطاكية»، باريس، 1940. ساهم في «دائرة المعارف الإسلامية» بمقالات متعددة .

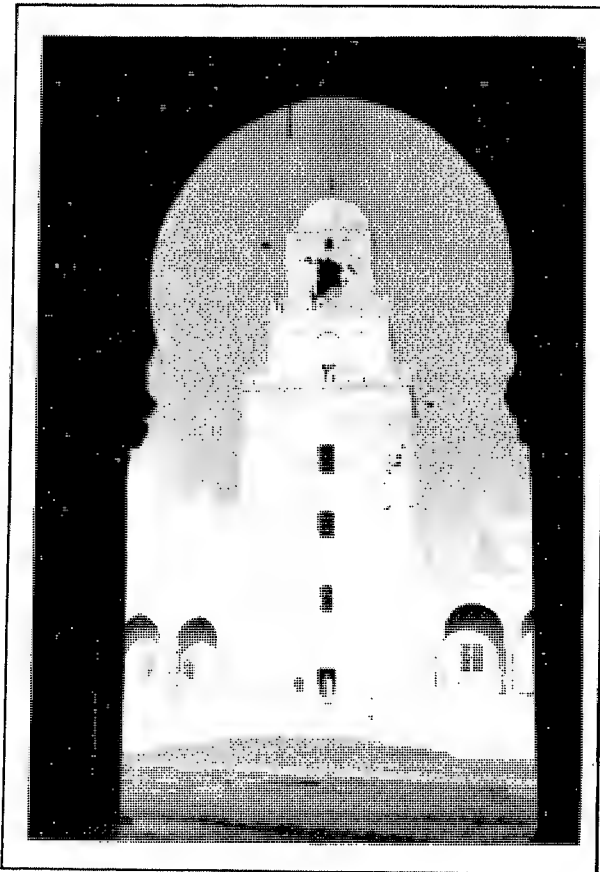
**** أ . المرزوقي (رياض) راجع «دامت» الكراس 1 و 2

- صحن من الخزف الأغلبى بالقيروان - القرن الثالث هـ - متحف القيروان .
[صفحة 14]
- «قائمة انساب الدولة الأغلبية» كما وردت في كتاب «الدولة الأغلبية - التاريخ السياسي» - تأليف أ. د. محمد الطالبي - نقله الى العربية د. المنجي الصيادي - نشر : دار الغرب الإسلامى - ط 1/ 1985. [ص. ص. 17-18-20].
- صحن من رَقادة قرب القيروان من الطراز الأغلبى - متحف القيروان .
[صفحة 21]
- ابن خلدون كما نحتة الفنان التشكيلي التونسي الزبير التركي - تصوير رضا الزبلي - [صفحة 24].
- الورقة 8 / ظ من المخطوط المنسوب الى ابن الرقيق . (المرجع : كتاب «قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب» لابن الرقيق - تحقيق : د. عبدالله العلي الزيدان ود. عزالدين عمر موسى - نشر : دار الغرب الإسلامى - ط 1/ 1990.
[صفحة 44].
- الصفحة 14 من كتاب «رحلة التجاني» - قدّم لها حسن حسني عبدالوهاب - نشر : الدار العربية للكتاب - طبعة سنة 1981. [صفحة 46].
- الصفحة 72 من كتاب «فتوح إفريقية والأندلس» للمؤرخ ابن عبد الحكم ، تحقيق وتقديم : ألبار قاتو - Albert Gateau - طبعة الجزائر - سنة 1942. [صفحة 51].
- غلاف الجزء الرابع من كتاب «معالم الإيوان في معرفة أهل القيروان» [صفحة 54]
- الصفحة 74 من كتاب «فتوح إفريقية والأندلس» لابن عبد الحكم . المرجع المذكور - [صفحة 56].
- الصفحة 66 من كتاب «فتوح إفريقية والأندلس» - المرجع السابق المذكور [صفحة 62].
- ورقة من مصحف على الرق ، كتبه بالخط الريحاني الخطاط القيرواني الشهير علي بن احمد الورّاق سنة 410هـ لفاطمة حاضنة الأمير باديس بن المنصور الصنهاجي (سورة الحجر - الآية 98 و99) - تصوير «مصلحة التصوير بوزارة الثقافة» - [صفحة 66].
- «شجرة نسب الأمراء الصنهاجيين» كما وردت في كتاب «الدولة الصنهاجية - تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 الى 12 م». تأليف : الهادي روجي ادريس - نقله الى العربية : حمادي الساحلي - نشر : دار الغرب الإسلامى - ج 2. ط 1/ 1992 - [صفحة 77].

- إفريقية من خلال خريطة نادرة - [صفحة 80]
- الورقة الاولى من مقدمة كتاب «أحكام السوق» للشيخ يحيى بن عمر بن لبابة -
(نسخة مصورة من المكتبة الوطنية بتونس) - [صفحة 180].
- خريطة «حملتا لويس التاسع ملك فرنسا : - حملته على مصر، وحملته على
تونس» [صفحة 192].
- خريطة القزويني من كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد» - نشر : دار صادر -
بيروت - طبعة غير مؤرخة - [صفحة 200].
- ورقة من مخطوط «كتاب الأقاليم» للأصطخري - نسخة مصورة -
[صفحة 205].



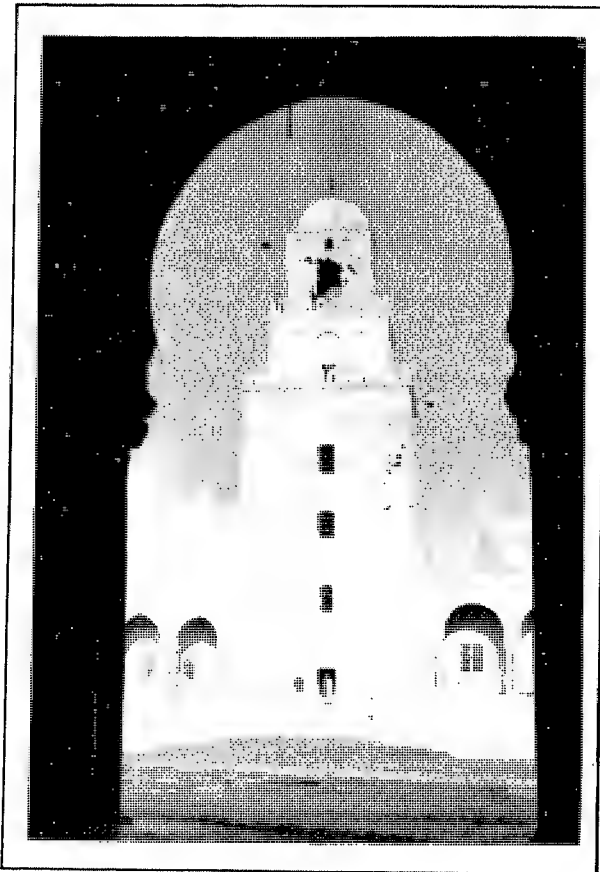
● القيروان ...



● جامع عقبة



● القيروان ...



● جامع عقبة



● توزر (قسطينية) ...



● خمير

● أثر روماني (الكاف)





● المهدية...

(بقايا الميناء الفاطمي)



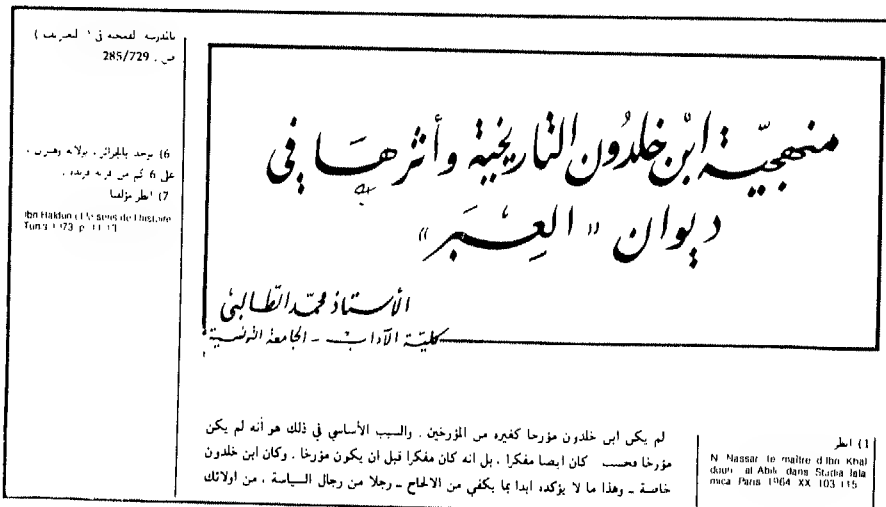
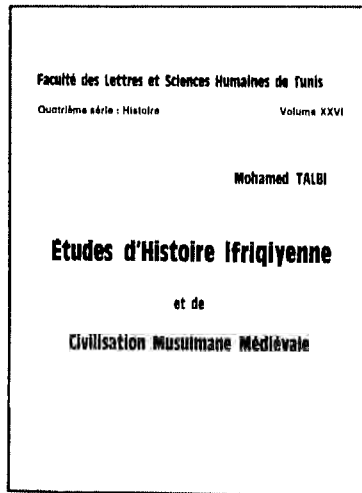
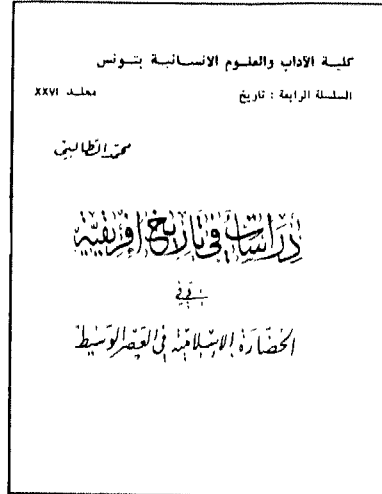
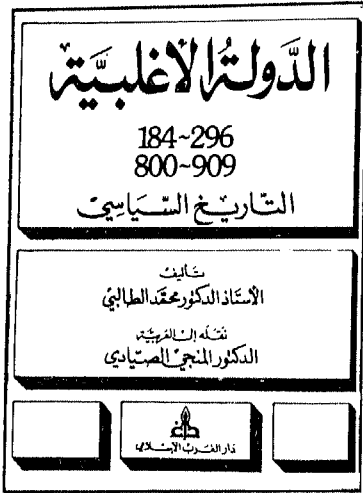
● القلعة...



● قفصة... المدينة ...

...والغابة...





Mohamed TALBI

**Ecrits sur l'histoire de l'Ifrikiya
(Biographies - Sites - Culture et civilisation)**

Articles parus dans l'Encyclopédie de l'Islam (seconde édition)

Traduction arabe :

M. A. Abderrazek et R. Marzouki

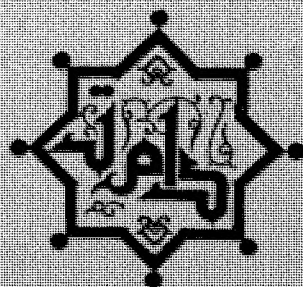
Tous droits réservés à l'Académie Tunisienne des Sciences, des
Lettres et des Arts, «Beît El Hikma - Carthage - Tunis - 1994 »

ENCYCLOPEDIE DE LA TUNISIE

4è cahier / 1994

REPUBLIQUE TUNISIENNE

Ministère de la Culture



ENCYCLOPEDIE DE LA TUNISIE

4è cahier / 1994

FONDATION NATIONALE CARTHAGE